جامعة مولود معمري– تيزي-وزو

مخبر الممارسات اللغوية

مجلة

الممارسات اللغوية

العدد الثالث والثلاثون (33)

سبتمبر 2015

ISSN : 2170-0583

مخبر الممارسات اللغوية

جامعة مولود معمري – تيزي–وزو

الجزائر

روابط الاتّصال:

ــ البريد الالكتروني: laboling@yahoo.fr

ــ الهاتف الثابت: 026213291

ــ الناسوخ: 026411400

الهيكل الإداري للمجلّة

ـــ **المدير الشّرفي:** أ. د سعيد وردان ؛

ـــ **مدير المختبر:** أ. د صالح بلعيد؛

ـــ **رئيسة التّحرير:** أ. الجوهر مودر؛

ـــ **هيأة التّحرير:** محمد الأمين خلادي، الجوهر مودر، عمر بورنان، عبد القادر تواتي، فتيحة حدّاد، حياة خليفاتي، علجية أيت بوجمعة، عيني بطوش، علجية أوطالب، ريش بوثلجة، نادية قادة.

الهيأة الاستشاريّة:

- محمد العربي ولد خليفة: رئيس البرلمان الجزائري؛
- أبو عمران الشيخ: رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في الجزائر؛
- عبد الرحمان الحاج صالح: رئيس مجمع اللغة العربية الجزائري؛
- محمود فهمي حجازي: رئيس جامعة نور مبارك في طشقند؛
- محمود أحمد السيد: نائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق؛
- سالم شاكر: باحث في المازيغيات في inalco بفرنسا؛
- وفاء كامل فايد: أستاذة اللغويات في جامعة القاهرة؛
- علي القاسمي: خبير في الأسيسكو وباحث في المصطلحات والمعاجم؛
- عبد السلام المسدي: أستاذ كرسي في جامعة تونس؛

- Valérie Orlando, Professor, University of Maryland, U.S.A.
- Kathryn Lafever,Professor, University of Miami,U.S.A.
- Zerar Sabrina, Maitre de conférences, University of Tizi-ouzou, Algiers.

ـــ **المدير الفنّي:** أ د صلاح يوسف عبد القادر.

مجلّة الممارسات اللّغوية

مجلّة الممارسات اللّغوية مجلّة علمية عالمية محكّمة

قواعد النّشر في المجلة

1 ــ مجلة **(الممارسات اللغوية)** لسانُ حال المختبر، فتستقبل كلّ الأبحاث والدّراسات ذات العلاقة بالممارسات اللغوية؛

2 ــ ترحّب المجلة بكلّ من يرغب نشر بحثه الذي يدخل في إطار اختصاص المجلة (الممارسات اللغوية)؛

3 ــ تنشر المجلة في طيّ أوراقها ملفات خاصة حول موضوع واحد، كما تنشر موضوعات متخصّصة في عنوان مستقل عن المجلة، يصدر في شكل كتاب متخصّص؛

4 ــ تَنْشر مجلةُ **(الممارسات اللغوية)** البحوثَ المكتبية والدراساتِ الميدانيةَ والنّصوصَ المحقّقةَ أو المترجمةَ أو مراجعاتِ الكتب المتعلّقةِ بالعربية وآدابها؛

5 ــ يقدّم البحث في صورة ورقية، يذكر الباحث: اسمه ولقبه ودرجته العلمية والمؤسّسة التي ينتمي إليها، أو المهنة التي يمتهنها؛

6 ــ تَنْشر المجلّةُ البحوثَ الأصيلة المعدّة أصلاً باللغة العربية، كما تَنْشُر البحوثَ المحرّرةَ باللغاتِ: المازيغية والإنجليزية والإسبانية والفرنسية، شرط أن يتصدّرها ملخصٌ باللغة العربية؛

7 ــ تنشر المجلةُ البحوثَ ذات اختصاصِ المجلةِ في بُعدها العام؛ بعد أن تخضعَ للتحكيم ولا تردّ إلى أصحابها سواءٌ قُبلت أم لم تُقْبل؛

8 ــ يتولّى تحكيم البحث أعضاء هيأة التحرير؛

9 ــ يُشترَط في البحث المقدّم للنشر ألاّ يكون قد نُشِر سلفاً، إلاّ إذا كان البحثُ قد أضيف فيه نسخة مزيدة ومُنقّحة أو من الأبحاث التي تستحقّ النشرَ مرّة ثانية على أن يشيرَ صاحبُه إلى مكان وتاريخ صدوره؛

10 ــ كلّ بحثٍ منشورٍ في مجلة **(الممارسات اللغوية)** لا يُنشر في قناة أخرى إلاّ بالإشارة إلى أسبقية صدوره في هذه المجلة، ويشير إلى ذلك في صدر القناة التي ظهر فيها؛

11 ــ يُكافأ صاحبُ البحثِ المنشور بخمسِ (5) نُسَخٍ من المجلة التي نُشِر فيها بحثُه؛

12 ــ على صاحبِ البحث التقيّد بشروط استقبال البحث وهي:

- التقيّد بالمعايير العلمية والأكاديمية المُتعارف عليها من سلامة اللّغة، وتوثيق واستخدام للمصادر والرسوم، والتفريق بين التهميش للكتب والتهميش للمجلات، واستعمال علامات الوقف، وكلّ متعلّقات المنهجية...
- كتابة البحث بخط simplified Arabic ببنط 13؛
- طول الكتابة 24 بعرض 12؛
- توضع الرسوم والبيانات ضمن إطار 12 x 24؛
- المسافة بين السطور 1.0؛
- الهوامش في آخر البحث متسلسلة ومكتوبة آلياً، ببنط 12؛

13 ــ يلتزم صاحبُ البحث بالتعديل حالةَ ما أقرّ المحكّمون نشرَه بشرط التعديل

14 ــ الأبحاثُ المنشورة في مجلة **(الممارسات اللغوية)** تعبّر عن رأي أصحابها ولا تعكس بالضّرورة توجّهاتِ المختبر أو جامعة مولود معمري، أو وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في الدولة الجزائرية؛

15 ــ صاحب المقال هو المسؤول علميّا عن المقال؛

16ــ ترسل الأبحاث في نسخة ورقية مصحوبة بنسخة قُرصية عن طريق البريد على العنوان التالي: السيد رئيس تحرير مجلة الممارسات اللغوية/ مخبر الممارسات اللغوية. جامعة مولود معمري. تيزي وزو. الجمهورية الجزائرية، أو تُرسَل عن طريق بريد المخبر الإلكتروني.

الفهرس

عنوان المقال وصاحبه	الصفحة
كتب اللحن ومصادر معجم العربية التاريخي. ***د. محمد شندول، -المعهد العالي للغات - جامعة قرطاج، تونس.***	11
دراسة في المعاجم المختصة، -معجم الأساطير أنموذجا- ***أ.نبيل حويلي، جامعة أمحمد بوقرة – بومرداس***	59
دراسة في الرّصيد اللّغوي لكتب اللّغة العربية للمرحلة الابتدائية – مفردات المدرسة التّعليم أنموذجا- ***أ. الجوهر مودر، جامعة مولود معمري تيزي-وزو***	73
مصطلح النَّبر في الدَّرس اللّساني العربي ــ بين الموجود والمفقود ــ ***د. سعاد بسناسي، جامعة وهران السَّانية.***	85
جهود العرب الصوتية ما بين القرنين الرابع والسابع الهجريين ***حورية زلاقي، جامعة المسيلة***	99
علامات الترقيم في بناء المشهد السردي (ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي نموذجا). ***أ.أسماء بوبكري، جامعة أحمد دراية ، أدرار.***	141
ابن أبي الرَّبيع الإشبيليِّ السَّبتيِّ وأثره النَّحوي. ***جميلة راجاح، جامعة مولود معمري تيزي وزو***	167
أثر البلاغة العربية في الدرس اللساني الحديث -نظرية النّظم أنموذجا- ***أ. عماري عزالدين، جامعة المسيلة***	191

Queer Butler? ***HATEM Youcef, Department of English/FLL***	1
L'impureté dans *la chambre de la vierge impure* d'Amin Zaoui ***M. Hakim MAHMOUDI, ENS Université d'Alger***	9
Apprentissage de l'oral en contexte plurilingue. Problèmes liées à l'acquisition de la prononciation. ***Nacéra Kheloui, Université de Tizi-Ouzou***	19

تصدير

يسرّنا أن نقدّم للقارئ الكريم العدد الثّالث والثّلاثين من مجلّة الممارسات اللّغوية، وهي مجلّة يصدرها مخبر الممارسات اللّغوية في المجتمع الجزائري، أريد منها أن تكون منبرا لطرح الآراء العلميّة البنّاءة، ومناقشة القضايا المتعلّقة بواقع اللّغة العربية، بحثا وممارسة، وتضمّ أبحاثا نظرية تخصّ العلوم اللّغوية من الصّوتيات وعلم التّراكيب وعلم الدّلالة وعلم الصّرف والمعجمية والنّظريات اللّسانية الحديثة، وأبحاثا تطبيقية تخصّ اللّسانيات التّطبيقية وتعليميّة اللّغات والتّرجمة، والمصطلح ... وكلّ الجهود التي من شأنها أن تدفع بالدّراسات اللّغوية إلى الأمام، وتعكس جهود الباحثين الذين يولون دراسة قضايا الممارسات اللّغوية أهمية خاصّة.

وإذا كانت انطلاقتنا من واقع الممارسات في المجتمع الجزائري بكلّ شرائحه وفئاته، فذلك على سبيل التّمثيل فقط باعتباره عيّنة من عيّنات الوطن العربي، لذلك نسعى من خلال هذه المجلة إلى الاهتمام بالواقع اللّغوي العربي وأملنا أن تظلّ همزة وصل بين الباحثين والمؤسسات العلمية المهتمة بقضايا استعمال اللّغة العربية وطنيا وعربيا ودوليا، وتنال دعمهم جميعا.

كتب اللحن ومصادر معجم العربية التاريخي

د. محمد شندول

المعهد العالي للغات بتونس– جامعة قرطاج

– **تمهيد:** يندرج حديثنا عن "كتب اللحن" في إطار المبادئ التي ينبغي أن تضبط لإنجاز معجم العربية التاريخي من حيث المادة ومصادرها ومعايير قبولها أو رفضها.

ومنطلقنا هو اعتبار كتب اللحن مصدرا من مصادر مدونة معجم العربية التاريخي، وذلك لكثرتها مع ما تعكسه هذه الكثرة من وجود مادة غزيرة يرى الصفويون إقصاءها، وهو إقصاء يثير كثيرا من التحفظ إذ يطرح لدينا السؤال التالي: أليس هذا الكم الهائل من المفردات الذي يرى الصفويون إقصاءه هو جزء من العربية يمثل مادة لغوية تعكس تطورا طبيعيا في دلالة المفردات مما يصلح أن يكون مادة مفيدة لمعجم تاريخي موضوعه تقصي مظاهر تطور المفردة الدلالي عبر مراحل اللغة المختلفة ؟

وإن اختلاف وجهة النظر الصفوية، التي تعتبر ما يندرج في كتب اللحن خطأ عن وجهة النظر اللسانية التي ترى في بعض مظاهر الاستعمال الجديدة لتلك المادة انعكاسا لتطور دلالي في مفردات اللغة، يمثل مفارقة تطرح السؤالين التاليين:

1) ما هي معايير مقبولية المفردات التي تتضمنها كتب اللحن باعتبارها مفردات لا تنتمي إلى مستوى الفصيح؟

و2) متى يجوز أن تكون تلك المفردات مداخل معجمية في معجم تاريخي يتتبع تطور دلالة الوحدة المعجمية في مراحل اللغة المختلفة ؟

إن محاولتنا الإجابة عن هذين السؤالين وغيرهما مما تسمح به حدود هذا العمل، تقتضي تقديم وجهة نظر لسانية تبحث بموضوعية في الأسس التي بنى عليها أصحاب التصحيح مواقفهم وصولا إلى تبيّن المبادئ السليمة–المعرفية منها واللسانية– التي تمكّن من قبول نسبةٍ مما تضمنته كتب اللحن لتكون جزءا من مادة معجم العربية التاريخي. ونبدأ قبل ذلك، بالإشارة إلى منزلةكتب التصويب بين غيرها من المصادر.

1– منزلة كتب التصويب بين غيرها من المصادر: تكتسي كتب التصويب أهمية خاصة في البحث المعجمي عامة لأنها تتنــزّل في إطار قضية محددة هي قضية اللغة والتطور. فكثرة الاستحداثات اللغوية أدت إلى بروز مستويات لغوية كانت محلّ جدال مازال مستمرا، وقد صنّفها بعضهم اليوم إلى أربعة أصناف هي: العربي الفصيح، والعربي المولد، والعربي العامي، والأعجمي[1]. كما أدت تلك الكثرة أيضا إلى تباين في وجهات النظر حول درجة مقبولية الألفاظ المستحدثة.

وتزداد أهمية هذه الكتب إلحاحا عند السعي إلى وضع معجم تاريخي للغة العربية. وتتجلى هذه الأهمية في:

1– أنها كتب لا تحتوي إلاّ على المظاهر المحدثة بإزاء مقابلاتها الفصيحة وهي بمنهج الجمع هذا توفر للباحث مادة لغوية قابلة لدراسة التطوّر اللغوي.

2– أنها تتضمن مختلف مجالات استعمال اللغة، فقد جمعت مظاهر كثيرة من الاستحداث اللغوي في مجالات اللغة الأدبية، واللغة العلمية، واللغة الدواوينية واللغة المهنية، والعامية، وتعرّضت للمقترضات الأعجمية الخ... وبتميّزها بهذا الجمع تخفف عن الباحث تقصي مظاهر التوليد في مصادر أخرى متفرّقة كالصحف، والتقارير الإدارية، وكتب الأدب الحديثة. بل إنه يمكن أن يكتفي بها فيكون في غنى عن بقية المصادر إن اعتددنا بتمثيلية كتب التصويب هذه في جمع المولدات والمستويات اللغوية.

3- أنها ذات طبيعة مركبة، فهي من ناحية ترمي إلى المحافظة على سلامة اللغة، وهي تكشف من ناحية أخرى عمّا داخل العربية من الألفاظ والأساليب المحدثة. وهذه الطبيعة المركبة تجعل المعجمي، وإن كان صفويا، في غير غفلة عما ينضاف إلى رصيد اللغة من المفردات.

4- أنها مستمرة في الظهور استمرارا يضمن تتبع المستجدات اللغوية بما يسهل إجراء عمليات التحيين على المعجم التاريخي[2].

على أنه يجب التنبيه إلى أن ما تتضمنه كتب اللحن من المواد ليس محل إجماع في الدراسات التقليدية. فهي مواد بقيت معلقة في هذه الدراسات بين الرفض والقبول (أو بين المقبولية وعدم المقبولية بلغة اللسانيات الحديثة). وبيان ذلك في الفقرة التالية:

2- مادة كتب اللحن بين المقبولية وعدم المقبولية: نشير في هذا السياق إلى عدم إجماع الدراسات التقليدية على قبول الألفاظ المولدة. وعدم الإجماع هذا يمثل عائقا في الأخذ بتلك المواد وإدراجها في معجم تاريخي يكون محل اتفاق لدى الجميع. فالمواقف من هذه المواد متضاربة، بل متناقضة أحيانا. فالظواهر التي تُعدّ من وجهة نظر تطوّريّة توليدا يمكن أن تتّسع لكثير من مظاهره قوانين اللغة وقواعدها، هي من وجهة نظر محافظة انحراف عن القواعد المرجعيّة يندرج ضمن مقولة اللحن والخطإ، لأنّ اللغة حسب وجهة النظر هذه، قادرة بنفس أوضاعها القديمة على مسايرة حاجات أهلها المتجدّدة كما يذهب إلى ذلك اليازجي[3]. فما يتولّد في اللغة العامّة من المظاهر الناتجة عن الاستعمال العفوي ليس في نظر المحافظين سوى وضع لألفاظ اللغة في غير مواضعها يؤول إلى فساد في اللغة يتعذر اقتلاعه[4].

وتتلخص جملة الآراء المتعارضة في اتجاهين رئيسيين يحسن بيانهما قصد تمام الفائدة. وهذان الاتجاهان هما الاتجاه المتشدّد والاتجاه المتساهل.

2-1- الاتجاه المتشدّد في التصويب اللغوي: هو اتجاه ينزع فيه أصحابه باللغة نزعة صفوية. فلا يرون في المظاهر اللغوية المحدثة مظاهر تطور، بل يعدّونها خطأ لا يجوز إقراره لأنها تخرج عن مستوى الفصيح الذي تجسمه لغة ما يسمى بعصر الاحتجاج وهو العصر الذي ينتهي بأواخر القرن الثاني الهجري في الحواضر وأواخر القرن الرابع في البوادي. ولذلك فهم من أهل التوقيف الفصاحي الذين لا يعتدّون إلاّ بما نقل عن الفصحاء العرب القدامى، والذين يعتبرون اللغة ملكا للسلف وإرثا لم يخضع لإرادتنا، فليس للخلف إلاّ أن يقبلها على الحال التي ورثها بها دون أن يكون له حق التبديل أو الإضافة. وممّن يمثل هذا الاتجاه من الأفراد الذين هم من أعلام حركة التصحيح الحديثة الشيخ إبراهيم اليازجي. فهو يري أن اللغة العربية هي لغة القرآن والأجداد الأوائل والنمط الذي يجب الالتزام به والمرجع في الصحة والخطأ و الموروث المقدّس الذي ليس لنا حق التصرف فيه، وفي هذا يقول: "... بلى، لا تنكر مزية العربي على المولد في أنه هو واضع اللغة وأنّ المولد مقلّده فيها، وأنه مادام منتحلا لهذه اللغة فهو مقيد بمتابعة الواضع وكل ما خالفه فيه لم يعدّ من اللغة التي انتحلها. وهذا أمر لا سبيل إلى إنكاره ولا جدال فيه... لأنه هو السابق إليها، فليس لمن جاء بعده أن ينازعه في ذلك ولا أن ينقض حكما بناه ولا سيما بعد أن ختم على اللغة بخاتم القرآن والسنة وتعيّن الجري فيها على ما انتهت إليه زمن التنــزيل والنطق بالاحاديث النبوية"[5].

وممن يمثل هذا الاتجاه أيضا زهدي جار الله في كتابه "الكتابة الصحيحة" الذي نشر ببيروت سنة 1968، وعباس أبو السعود في كتابه "أزاهير الفصحى في دقائق العربية" الذي نشر بمصر سنة 1970، وفاروق شوشة في كتابه "لغتنا الجميلة".

أما من يمثل هذا لاتجاه من المجمعيين فنذكر على سبيل المثال أحمد العوامري في مبحثه "بحوث وتحقيقات لغوية متنوعة" الذي نشره في الأجزاء الأربعة الأولى من مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة بين 1934 و1935. ومن مواقف العوامري

منعه الاستحداث في اللغة وعدم اعتباره كلام المتأخرين حجة وإن كانوا من علماء اللغة، وقد عبّر عن ذلك بقوله: "نحن لا نحتجّ بكلام المتأخرين من أئمتنا اللغويين كابن منظور والفيروزابادي والفيومي والزبيدي وغيرهم ... فهؤلاء الأعلام نقلة ورواة لا غير، وليس في كلامهم قوة أن يحتجّ به"[6].

والتشدّد في الاستحداث اللغوي ليس حديثا. فقد كان عدد كبير من المؤلفين في التصحيح اللغوي قديما يعدّون المولّد في اللغة ضربا من الخطأ، ومن هؤلاء على سبيل المثال أبوحمزة الكسائي (ت189هـ/805م) في كتابه "ما تلحن فيه العامة" فقد اعتمد في الحكم على صحة لفظ أو خطئه بوروده في السماع، ولم يعوّل في ذلك إلا على الاستشهاد بالقرآن والشعر، ورفض ما سوى ذلك. وفي موقفه المتشدد هذا غرابة، لأنّه يتناقض ومبدأ أهل الكوفة الذي أرسى هو قواعده، والذي يعتبر الشاذ أصلا يقاس عليه ولا يجوز تخطئة مستعمله. وهكذا يتبين لنا أنّ المواقف المتشدّدة، القديمة منها والحديثة، قد وقفت من التوليد في اللغة موقف الرفض ونظرت إليه على أنّه مظهر فساد فيها[7].

2-2- الاتجاه المتساهل: هو اتجاه يجيز التطوّر النوعي في الاستعمال عن طريق الاجتهاد والبحث في وجوه التخريج والتجويز لما يشيع من الاستعمالات المحدثة. فقد رأى أصحابه أنّ أغراض المتكلمين تتطوّر بتطوّر الواقع الاجتماعي ومتطلبات الحياة المتجدّدة. ولذلك فإنّ ألفاظ اللغة وتعابيرها المستعملة قابلة للتغير والتبدّل، وأنّ معجم الجماعة اللغوية مهيأ للزيادة والنقصان. وإذن فليس كل ما يداخل اللغة لحنا، بل يمكن أن يكون في جانب منه، تلبية لحاجة جديدة في التعبير.

وتجلى هذا الاتجاه في قرارات المجامع اللغوية العربية وفي مواقف بعض الأفراد من الدارسين. فأما المجامع العربية – وأبرزها مجمع اللغة العربية بالقاهرة– فقد رخّصت في استعمال عدد كبير من الألفاظ والأساليب المحدثة التي شاع استعمالها[8]، وأصدرت قرارات في إجازة الوضع للمحدثين، وفي الارتجال

والترجمة، والتعريب، كطرق في التوليد في العربية –عند الضرورة– لجعلها مواكبة للتطوّر[9].

أما أبرز من يمثّل هذا الاتجاه في العصر الحديث من الأفراد فهو أحمد حسن الزيات (ت 1968م) في مقاله "الوضع اللغوي وهل للمحدثين حق فيه" الذي نشره في العدد الثامن من مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة. فقد اعتبر أنّ "حقّ الوضع حقّ مطلق لا يتخصص بأحد، ولا يتعلق بطرف، يملكه الفرد والجماعة، وتملكه الخاصة والعامة[10]، فهو يري أنّ التوليد في اللغة ممكن للأفراد والجماعات على حدّ سواء، وهذه الجماعات يمكن أن تكون أصحاب المهن من المثقفين كالصحافيين والفقهاء والأطباء، أو من العامة كالحدّادين والنجارين والتجار الخ... ومن أبرز حججه التي أوردها في رأيه هذا، الأثر التالي: سمع الرسول أنّ منافقا نال من عروبة سلمان الفارسي، فدخل المسجد مغضبا وقال: "أيّها الناس، إنّ الرب واحد والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أمّ. وإنما هي اللسان. فمن تكلّم العربية فهو عربي"[11]. وهذه الحجة التي أوردها تعكس رأيه في الاستحداث اللغوي، فهو لا يراه خطأ كما هو الشأن عند الصفويين بل يراه حالة طبيعية تعتري اللغة، لأنّ العربية عنده ليست توقيفا فصاحيا أو حكرا على العرب الخلّص[12].

ويندرج في هذا الاتجاه المتساهل أيضا أولئك الذين يرون أنّ من الكلام أفصح وفصيحا وصحيحا، وأنّ استعمال الصحيح مثلا بدل الأفصح والفصيح لا يستوجب التخطئة، فكل استعمال من الاستعمالات الثلاثة المذكورة صواب. ومن أبرز أعلام هذا الاتجاه محمد العدناني في كتابه "الأخطاء اللغوية الشائعة" فهو يدعو إلى "التشبث بكل كلمة مألوفة لدينا تفوهت بها إحدى القبائل في العصر الجاهلي وكل رأي قاله البصريون أو الكوفيون أو نحوي مفكّر عبقري كابن جني وابن هشام الأنصاري وابن مالك، أو لغوي فذّ كالزمخشري وابن منظور والزبيدي[13]. ومثل

هذا الموقف لا يخلو من تساهل، وذلك لأنه يقبل من تطعيم اللغة لمسايرة العصر ما يجيزه علماء اللغة.

يتبين لنا إذن من خلال هذين الاتجاهين الكبيرين اختلاف النظرة إلى المولَّد في اللغة اختلافا يدعو إلى إعادة النظر في الظواهر اللغوية المحدثة ومنهج معالجتها بما يوضّح مدى قابليتها لأن تكون مداخل معجمية تتدرج في مدونة معجم تاريخي.

ويتبين لنا أيضا أنّ العربية كما تبرزها كتب التصويب هي لغة غير مستقرّة في ألفاظها ومعانيها وبعض أساليبها، ولا تخضع في ذلك لحدود الفصاحة التي قيّدها بها الصفويون؛ وهو ما يدعو إلى تتبع ما يتولد من الألفاظ والمعاني في نطاق معجم تاريخي، وإلى متابعة هذه المسألة متابعة موضوعية تنظر إلى اللغة لا من خلال ماضيها فقط كما يفعل المحافظون بل أيضا من خلال حاضرها ومستقبلها وعلى أنها أداة تواصل تخضع لحياتنا، لا على أنها إرث ثابت لا يحق لنا التصرّف فيه.

على أن هذا يطرح سؤال أساسيا وهو: كيف نقبل بأن تكون كتب التصويب مصدرا من مصادر المدونة القاموسية لوضع معجم اللغة العربية التاريخي ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضي وضع منطلقات نظرية معرفية ولسانية، على أساسها نضع المعجم التاريخي في إطاره من الدرس اللغوي ليسهل بعد ذلك تحديد مصادر مدونته. ولعل أول هذه المنطلقات تحديد مفهوم واضح للتطور اللغوي في إطار المبادئ المعرفية لنظرية التطور.

3- مفهوم التطور اللغوي: إن عدم تحديد مفهوم دقيق للتطور اللغوي في الدراسات المعجمية العربية أدى إلى إغفال كتب اللحن. فهذه الكتب لم تجد، على أهميتها، صدى كبيرا في الدراسات اللسانية التي اهتمت بالمعجمية النظرية والتطبيقية. ومثّل هذا نقصا كبيرا في تحديد المدونة المعجمية ومصادرها. وتجلّى هذا النقص فيفقدان دراسة مبوّبة و شاملة تجعل من كتب اللحن مصدرا من مصادر

المدونة القاموسية للغة العربية. فلكي يستوفي المعجم التاريخي مواد كتب اللحن لابد من توفير ببليوغرافيا كاملة في كتب التصويب القديمة منها والحديثة.

وعدم تقصي المظاهر التطورية ناتج عن عدم الإدراك الكافي لمفهوم التطور. فلو كان ذلك الإدراك متحققا لكانت الدراسات أكثر جدوى ولكانت الخطوات في إنجاز معجم العربية التاريخي أسرع. فما هو المفهوم اللساني للتطور اللغوي إذن؟

نستند في تحديد هذا المفهوم على نظرية النشوء والارتقاء التي وضعها شارل داروين في كتابه "أصل الأنواع (The origine of spaces)" لنخرج بعد ذلك بتصور لساني لمفهوم التطور.

وملخص ذلك في هذه النظرية مما يُعدّ فيها من الأسس الثابتة التي لا مأخذ فيها، أن التطور قانون طبيعي عام، و يعني التغير الذي يصيب الكائنات الحية عبر التاريخ. ومن خصائصه أنه حركة دائبة لا تنقطع. وقد يطرأ على الشيء كله أو على البعض منه. والتحولات التي تحدث بمقتضاه تكون هي أيضا كلية أو جزئية. وكذلك تكون كثيرة أو قليلة. وكل ما يحدث إنما هو في أغلبه عملية تكيّف مع البيئة لتحقيق غاية في الوجود، أي إن التطور في أساسه وظيفي. وهو يخضع لعاملين أساسيين هما عامل الزمن وعامل البيئة.

1) عامل الزمن: يتمثل في عمر الكائنات إذ لا بد لكل نوع من الكائنات من عمر معلوم قد يطول فيطول عمر ذلك الكائن. وقد يقصر فيضمحل الكائن أو ينقرض.

2) عامل البيئة: يتمثل في ما يحدثه تغير البيئة من تأثير في طبيعة الكائنات

ومن أهم مبادئ التطور في هذه النظرية: مبدأ البقاء للأقوى ومبدأ البقاء للأصلح.

1) مبدأ البقاء للأقوى: أساس هذا المبدأ أن العلاقة بين الأفراد هي علاقة صراع بين قوي بضعيف. فما يمتلك من الأفراد المتنازعين عناصر قوة في ذاته هو الذي يبقى. وما يفتقر إلى ذلك قد يضمحل أو يفنى.

2) مبدأ البقاء للأصلح: يتميز هذا المبدأ بأن العلاقة بين الأفراد المتنازعين هي علاقة تنافس، لأن الأفراد المتنازعين يتكافؤون في القوة، أي إن العلاقة بينهم ليست علاقة قوي بضعيف كما في المبدإ السابق. ومن ثم فإن المنافس الذي يوفر لنفسه عناصر التكيف مع عوامل التطور والتأثيرات الخارجية لأداء وظيفته هو الذي يستمر في الوجود. ولْنلاحِظْ هنا الفرق بين أن يكون للفرد عناصر قوة ذاتية وبين أن يقوم هذا الفرد بعملية تتكيف لاكتساب عناصر القوة التي تمكنه من البقاء.

ويتحكم في هذين المبدأين قانون يسمى قانون الانتخاب الطبيعي. وهو القانون الذي يقوم بعملية انتقاء نوع الكائنات. فالكائن الذي يحقق فائدة من بقائه هو الذي يُنتخَب. وتتمثل هذه الفائدة في أداء الكائن لوظيفته من وجوده. وعليه فإن تحقيق هذه الوظيفة هو الذي يبرر وجود كائن وغياب آخر في إطار الصراع القائم بين أنواع الكائنات في الوجود.

على أن من الكائنات الموجودة ما يبدو شاذا في نوعه أو ضعيفا في بنيته. وتفسر نظرية النشوء والارتقاء هذين المظهرين بمبدأين هما: مبدأ الانتقاء الجنسي ومبدأ القول بالطَّفرة.

1) مبدأ الانتقاء الجنسي: هو المبدأ الذي يفسر استمرار الكائنات الضعيفة على البقاء. فمن الكائنات ما لا يُفسَّر بقاؤه بقوته وفقا لمبدإ البقاء للأقوى أو بقدرته على التكيف وفقا لمبدإ البقاء للأصلح بل بمقبوليتِه في الوجود. ومن ثم فإن مقبوليتَه هي مبرِّرُ وجودِه.

2) مبدأ القول بالطَّفرة (Mutation): هو المبدأ الذي يفسر التغيير الذي يحدث فجأة ويعسر تعليله والذي تكون نتائجُه بروزَ ظواهر تبدو شاذة أو غريبة. فتكون

الطفرة هي التبرير الذي يُفسِّر بروز تلك الظواهر، ذلك أن البروز الفجئي لتلك الظواهر قد لا يوجَد له في فترة ظهوره تعليل واضح وتفسير مقنع.

هذه هي أهم الأسس النظرية التي يقوم عليها مفهوم التطور معرفيا في نظرية النشوء والارتقاء وما يتعلق بها من بعض المفاهيم كما تجلت في أبرز مراجعها وهو كتاب "أصل الأنواع" لداروين.

وهذا المعنى المعرفي ينعكس في أسسه وفي معناه عن المعنى اللساني، فيكون التطور اللغوي هو "التغير الذي يصيب عناصر اللغة في مرحلة من مراحلها بحكم تغير الحياة الاجتماعية والحاجات التواصلية للجماعة اللغوية[14]. ويكون إما بتحول تام يحدث تدريجيا عبر الزمن تخرج به اللغة من مرحلة تاريخية إلى أخرى فتصبح لغة ثانية غير الأولى؛ وإما بتكيف ذاتي يحدث داخل نظام اللغة ذاته ويحقق الملاءمة بين البنى اللغوية والتغير الاجتماعي. ونحن نذهب إلى هذا التصور الأخير انطلاقا من رؤية للغة تعتبر "تطور لغة ما مرتبط بتطور الحاجات التواصلية للجماعة التي تتكلم تلك اللغة"[15]، وذلك أنّ وظيفة اللغة الرئيسية هي التواصل. وعليه فإنّ العلاقة التي تكون بين التطور وحاجات الإنسان التواصلية هي علاقة تلازم. وهذا يفضي إلى القول بأنّ التطور اللغوي، هو كلّ تغـيّر يحصل في اللغة عبر تعاقب مراحلها التاريخية من أجل بقائها أداة صالحة للتواصل من خلال ما يتحقق من تكيف بين بناها والحاجات التواصلية المتجددة. فتكون الأفراد اللغوية حسب هذا التصور، كسائر الأفراد في الكون، ينطبق عليها التغير بمختلف تجلياته كانطباقه على كل كائن آخر. فمن الأفراد اللغوية ما يفرض بقاءه دون تغير لقوّة في ذاته، مثال ذلك سائر وحدات اللغة التي حافظت على طريقة استعمالها القديم رغم شدة المنافسة أحيانا (لاحظ بقاء حرف الفاء مقابل: [ڤـ] كما في: تلفزة (télévision) وفيستة(veste)، ومنها ما يستمر في البقاء مع عمليات تكيّف كما هو الحال في كلمتي سيارة وذرة على سبيل المثال من حيث دلالتهما

القديمة ودلالتهما الجديدة. ومنها ما يضمحل لعدم قدرته على الاستمرار في أداء وظيفته التواصلية، من ذلك ما يسمى مُماتا وما يسمى متروكا (ما تركه الاستعمال من المفردات). ومنها ما يعد شاذا أو غريبا ولكنه يستمر في التداول لمقبوليته التواصلية رغم ضعف بُنيته، مثل: مكره أخاك لا بطل (ضعف إعرابي)، و"من قتل من؟" (ضعف تركيبي).

وتتحدد حاجة المتكلم إلى المفردة بحسب عملية انتقاء يقوم بها في ذهنه. ويقوم مفهوم "الحاجة" هنا مقام قانون الانتخاب الطبيعي في تحديد ما يبقى أو يهمل من وحدات اللغة. فما يُحتاج إليه لأداء وظيفة التواصل يبقى في الاستعمال. وما لا يؤدي هذه الوظيفة يُهمل أو يمات.

فالتطور اللغوي إذن هو ذلك التفاعل الذي يحدث بين بنى لغوية قائمة وواقع اجتماعي متبدل يفضي إلى تلاؤم بين تلك البنى التي تعد تقليدية والحاجات التعبيرية الجديدة. وإن هذا المفهوم من شأنه أن يساعد على تقبل مظاهر التغيّر في ألفاظ اللغة تبعا لقوانين وقواعد تؤهلها لأن تكون عناصر بناء في معجم العربية التاريخي.

وطرح مسألة التطور اللغوي بهذا المفهوم أمر ضروري، وذلك أنّ مظاهر الاستحداث تقتضي تقييما في إطار مقاربة لسانية تأخذ بعين الاعتبار مسألة التطوّر اللغوي، وتقبل من الظواهر المحدثة ما يستجيب منها لقوانين تستوعبها وقواعد تتحكم فيها.

على أن الأساس النظري لمفهوم التطور اللغوي وفقا للمبادئ المعرفية، يقتضي البحث في أسس لسانية تترابط مع الأسس المعرفية لكي يجوز لكتب اللحن أن تكون مصدرا من مصادر المدونة القاموسبية لوضع معجم العربية التاريخي. ومن هذه الأسس قضية التطور بإزاء القيود القواعدية، وقضيتا الخطإ مقابل الصواب (خطأ/صواب)، والقاعدة مقابل الشذوذ(قاعدة/شذوذ).

4- مفردات اللغة بين التطور والقيود القواعدية: إنّ الإجابة عن السؤال: كيف تستجيب اللغة في نفس الوقت لحتمية التطوّر وثبات القاعدة؟ تستوجب معرفةَ الكيفية التي تتمّ بها الملاءمة بين هذين الجانبين اللذين يبدوان متناقضين. ونحن في ما يلي نتعرض لذلك بحثا عن الصلة بين جانبي المسألة.

4-1 حتمية التطوّر اللغوي: التطوّر اللغوي كما سبق أن حدّدنا، هو تغيير يصيب اللغة عبر التعاقب التاريخي لمراحل اللغة. وترجع هذه الخاصية إلى المواضعة الناتجة عن آنية الاستعمال، وإلى كون اللغة، في مفهومها العام، مؤسسة اجتماعية تخضع لتأثيرات مختلفة داخلية وخارجية تساهم في تطوّرها.

فاللغة باعتبارها مؤسسة اجتماعية، قابلة للتطوّر كغيرها من سائر المؤسسات الاجتماعية الأخرى، وهيلا تمثّل استثناء في ذلك. فلابدّ أن يطرأ عليها تغيير ولو جزئيا بحكم عوامل التطور المختلفة. فكما يؤدّي تبدّل الأحوال الاجتماعية والتطوّر الثقافي إلى تغيير التقاليد المختلفة، فإنّ دافع الحاجة إلى التعبير عن المستجدات يؤدّي إلى تطوّر في اللغة.

ومهما اختلفت عوامل التطور اللغوي فإنها تفضي في غالب الأحيان إلى حدوث انسجام في العلاقة بين عناصر لغوية قديمة وأخرى جديدة من أجل تحقيق ملاءمة بين تلك العناصر تؤدي عادة إلى مظهر حديث في الاستعمال يصبح مقبولا لدى الجماعة عندما تتواضع عليه. فليس من الضروري إذن، على مستوى المعجم مثلا أن يلازم الدال مدلوله. فالدليل اللغوي يمكن أن تضيقه الجماعة بتخصيص دلالته كما يمكن أن توسّعه فتجعله أكثر تعميما. وربما تكسبه معنى جديدا لا علاقة له بدلالته القديمة، أو تستعيض عنه بدليل آخر، لأن مظهره المادي يجعله غير مضمون البقاء على حالة واحدة وعرضةً للتبدل أو الزوال.

والتغييرات التي تحدث في اللغة هي تحقيق ملاءمة بين عناصر اللغة والواقع الاجتماعي المتطور تتكيف بمقتضاها مختلف الوحدات لتستجيب لحاجات التواصل.

وما يصبح منها جزءا من استعمال اللغة العام إنما يتمّ بالمواضعة لأنّ الإبقاء على التواصل اللغوي يقتضي من المتكلمين الاتفاق على أوجه استعمالهم للغة. ولذلك فإن ما يشيع من مظاهر التطور المحققة لتلك الملاءمة إنما هو مواضعة جماعية استمدت جانبا من مقبوليتها من المعيار الاجتماعي الذي أكسب تلك المظاهر التطورية شرعية التداول.

على أن هذه التغييرات تحدث غالبا ردود فعل معارضة. وردود الفعل المعارضة هذه إنما تصدر على وجه الخصوص، من العارفين بأوضاع اللغة من المحافظين. ولا يمكن لردود الفعل هذه أن تتدرج في نطاق النقد اللغوي بقدر ما تتدرج في نطاق البحث الاجتماعي والحضاري ضمن مبدإ الصراع بين القديم والجديد في مظاهر السلوك. وذلك أن مقولة "قل ولا تقل" أو "الخطأ والصواب" هي في جانب كبير منها مقولة اجتماعية وليست مسألة لغوية بالأساس[16]، إذ هي ترجع في جوهرها إلى الصراع التقليدي بين المحافظين والمجددين داخل كل مؤسسة اجتماعية، وليس إلى الحجاج اللغوي، وذلك أنه لا يوجد دليل لغوي يقنع بصورة موضوعية بصحة استعمال ما دون آخر. فكلّ لغة تتكلمها جماعة لغوية تشهد مستويات في الاستعمال واختلافات تسمى لهجات. و"اللهجة الراقية تسمى لهجة مثالية (Dialecte standard). لكن ما معنى "لهجة راقية؟" إنّه لا يوجد تحديد دقيق لها. بل إنّ هذه اللغة الراقية تتعرّض لخروق حتى من أشد الصفويين محافظة وهي في واقع الأمر لغة مثالية غير مستعملة"[17].

والناحية اللسانية التي يؤاخَذ عليها المحافظون في تخطئتهم الاستحداثات اللغوية على مستوى المعجم، هو قولهم بملازمة الدال للمدلول. فهم عندما يخطِّئون بعض الكلمات، يذهبون إلى القول بأنّ اللفظة وُضِعَت في غير موضعها ذهابا منهم إلى أن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة مناسبة، أي علاقة اتصال طبيعية توجب ملازمة اللفظ لمعناه. وهذا الاعتقاد تعارضه النظريات اللسانية الحديثة. فاللسانيات

الحديثة تقول بالفصل بين الدال والمدلول ارتكازا على مذهب اعتباطية الدليل اللغوي وفق مفهوم دي سوسير[18]. ومن شأن هذا المذهب أن يجعل القول بالتطوّر اللغوي ممكنا ولو نظريا [19]، وذلك أنّ الدليل مهيأ للتغيّر بحكم خضوعه للمواضعة التي يمكن أن تتبدّل من جيل إلى جيل. وهذا يخالف وجهة نظر المحافظين التقليدية التي تحكم على الدليل بعدم التبدل وعلى اللغة بعدم التطوّر.

والاعتقاد بملازمة الدوال للمداليل ينطوي على خلط آخر هو عدم التمييز بين ما يطرأ على الأدلة من تطور وما يطرأ على المداليل. فالتطور قد يحدث على الدال دون المدلول كما في : مَعُوقٌ← مُعَاقٌ، وخِصْبٌ←خُصُوبَةٌ، مَلْآن ← مَلِيءٌ. وقد يحدث عكس ذلك أي أن يتطور المدلول دون الدال كما في: تكبّد(توسَّط الشيءَ) ← تكبّد(عانى وقاسى(محدثة). وإن عدم الانتباه إلى مثل هذا الفصل قد أدى بالمصححين إلى الاعتقاد بأن معنى وحدة معجمية ما ذات صيغة معينة يلازمه ثبات تلك الصيغة. أم على المستوى النحوي فإن المصححين يؤاخَذون في جزء من اعتراضاتهم على التراكيب بعكس ما قلنا على المستوى المعجمي. فإنّ تبدّل معنى جملة ما ذات بنية شكلية مجردة قد لا يتبعه بالضرورة تحوير في بنيتها تلك. فقد تبقى تلك البنية هي نفسها، إلاّ أنّ تطوّر الأدوار الدلالية للوحدات الموجودة بداخلها يغيّر معناها، وذلك "أنّ الخصائص الدلالية لوحدات معجمية معينة هي التي تحدّد أنواع الوحدات الأخرى التي تأتلف معها في التركيب"[20]. فبنية الجملة المجرّدة إذن لا تتبدّل ولكنها تستوعب مضامين تطوّريّة فتبقى بذلك مضطلعة بدورها الوظيفي وإن اختلف تجسيمها المادي الذي يمكن أن يعطيها دلالة أخرى. فما يتبدّل في الجملة هو المضمون وليس البنية المجرّدة. وبالتالي لا يعني تغير المضمون في صلب البنية المجرّدة تغيّر تلك البنية، ذلك أنّ من الجائز أن تحلّ مضامين محلّ أخرى عبر الزمان دون أن تُحوَّر القوالب المجرّدة التي تستوعب تلك المضامين. وعليه فإنّ ردود الفعل التي ترفض مظاهر التطوّر

التركيبي هي في هذه الحالة ردّات فعل تتعلّق بالمضامين. ومن ثَمَّ فهي ردود فعل جزئية لا صلة لها بالبنى المجرّدة، ولا تمسّ بنظام اللغة وإن كان المحافظون يعتقدون خلاف ذلك، لأنهم لا يميزون بين المباني ومضامينها[21].

إنّ تطوّر المضامين هو الذي يوهم بالعدول عن الصيغ والبنى. وعدم الفصل بينها هو الذي يوهم بأنّ كلّ توظيف جديد لهياكل اللغة المجردة خرق لنظام اللغة ووضع لألفاظ اللغة في غير مواضعها. فاكتساب وحدة معجمية ما لخصائص دلالية جديدة أو تطوّر فحوى جملة ما داخل بنية أو تركيب معيّنين لم تجر به العادة هو في نظر المحافظين خرق للقواعد المرجعية في الاستعمال.

وتبدّل المضامين لا يتعارض ومبدأ التطوّر اللغوي. فهو مما تحتّمه حاجات كلّ عصر إلى التعبير عن الأغراض التواصلية، ومن ثَمّ يصبح توليد الألفاظ والتعابير المحدثة بما توفّره اللغة من القواعد، أمرا مقبولا ومبرّرا، فـ"إذا كان على لسان ما أن يرضي حاجاته الإبلاغية باستمرار فينبغي للغة أن تتلاءم مع المستجدّات. وهذا لا يتنافى مع مفهوم اللغة باعتبارها بنية، ولا يتناقض مع القول بأنّ بنية لغة ما قارّة مع أنّ مظاهرها التعبيرية تتطوّر. ولكنه يتضمّن أنّ هذه البنية تطرح على الدرس باستمرار لأنّها تشتغل، وذلك لتحقيق التوازن بين الحاجات التواصلية المتجدّدة والعادات الموروثة"[22].

على أنّ ما يُعدّ عدولا عن القواعد اللغوية المرجعية له حكمان: حكم بالتخطئة وهو حكم معياري انطباعي لا يجوِّز الخروج عن القواعد الموروثة كما سبق أن ذكرنا؛ وحكم لساني يَعتبِرُ ما يصدر عن المتكلم–المستمع النموذجي الذي يفهم لغته فهما جيدا استعمالا مقبولا إذا استجابت له الجماعة اللغوية إذ إنّ الجملة المقبولة لسانيا، هي "الجملة التي يمكن أن ينتجها المتكلم في سياق مخصوص والتي يقبلها بقيّة مستعملي اللغة على أنها تنتمي إلى لغتهم"[23] دون اعتبار لصحتها النحوية واستجابتها للقواعد المرجعية.

واستتباعا لهذا الاختلاف فإنه لا ينتظر من المواقف المعيارية أن تدعو إلى مراجعة أحكام اللغة الموروثة ؛ في حين ترى اللسانيات الحديثة إمكانية مراجعة الأنحاء التقليدية وإعادة وصف اللغة بما يستجيب لنسق التطوّر وما يحمله من معطيات جديدة تمكّن من معرفة خصائص الاستعمالات المحدثة. فإذا كان النحو التقليدي يُخضِع الاستعمال للقواعد المعيارية فإنّ الوصف اللسانيّ يجيز مراجعة هذه القواعد على ضوء مظاهر الاستعمال الشائعة. فرفض مظاهر التوليد إذن موقف ذاتي وانطباعي يقابله التصوّر اللساني الذي يقرّ بالتغيّر اللغوي وبإمكانية وجود ما يمثّل عدولا عن الموروث ينبئ بوجود تطوّر في اللغة.

وعوامل التطوّر اللغوي تتلخص من خلال كلّ ما سبق ذكره، في نوعين من العوامل:

1) عوامل داخلية: وهي التي تتعلّق بطبيعة اللغة في حدّ ذاتها من حيث أنّ اللغة مؤسسة اجتماعية قابلة للتطوّر يتمّ فيها وضع الأدلة بالاتفاق وبحسب ما تدعو إليه حاجات الأفراد المتبدلة.

2) عوامل خارجية: وهي نوعان، النوع الأوّل هو العوامل الاجتماعية ذات التأثير المباشر في التطوّر اللغوي مثل تبدّل الحاجات التواصلية لدى الجماعة اللغوية وظهور مسميات جديدة للمستحدثات الحضارية وتسرّب الألفاظ والأساليب الأعجمية بفعل التأثير المتبادل بين ثقافات الأمم الذي يُعتبر التداخل اللغوي من أبرز مظاهره.

والنوع الثاني هو العوامل النفسية، ومن أهمّ مظاهره طريقة استعمال المتكلم – المستمع النموذجي(Locuteur-auditeur idéal) للغته في مختلف أوضاعه النفسية وأثر محصوله من القواعد المرجعية في ذلك.

واستتباعا لكل ما ذكرنا يصبح من الضروري اعتبار كتب اللحن من مصادر المدونة القاموسية التي تفيد في وضع المعجم التاريخي من خلال مراجعة ما ورد فيها من مواد وإبانة ما له قواعد وقوانين لغوية تفسّره.

4-2 القيود القواعدية: اللغة نظام معقّد كما يذهب إلى ذلك دي سوسير[24]. ومعنى ذلك أنها مجموعة قواعد عامة مجرّدة تستنبط بإعمال الفكر وتتفرّع لتكوّن أنظمة اللغة المختلفة. واللغة بهذا الاعتبار، تمثّل مجموع العلاقات المجرّدة التي تنظم مختلف مظاهر السلوك اللغوي المحسوس في عمليات التواصل بين أفراد المجتمع. وخاصية التجريد هذه، هي عند دي سوسير، من أهمّ عوامل اللاتحول (الثبات) (Immutabilité)، لأنها "تمثل النقطة التي يظهر فيها عدم قدرة الجمهور على إلحاق أيّ تغيير باللغة"[25]. وذلك أنّ تماسك العلاقات المجرّدة يكسب القواعد حصانة ذاتية تمنعها من التغيّر العشوائي، ويجعل من نظام اللغة نظاما مغلقا شديد المحافظة، بطيء التطوّر، ولا يتأثّر كثيرا بالعوامل الخارجية.

وتؤدي خاصية ثبات النظام إلى تقييد مظاهر الاستعمال بقواعد معلومة هي تلك التي يسمح بها النظام. وهذا التقييد القواعديّ ضروري لأنه هو الذي يضمن التواصل بين الأفراد في سلوكهم اللغوي اليومي، ويحقق استمرارية الصلة بين الاجيال. فلو ارتجل كل فرد لغة لنفسه دون نظام متّبع أو قاعدة معلومة لاستحال التفاهم بين الناس.

إلا أنّ القواعد ليست كلها مقيِّدة بنفس الشكل وبنفس الدرجة إذ من البديهي أنه يوجد في كل لغة طبيعية نوعان من القواعد:

1) قواعد عامة (Régles générales)، وهي قواعد ثابتة وقبْلية لكونها ترجع إلى نظام اللغة الموروث، ويكون وجودها مستقلا عن العناصر اللغوية المحسوسة لكنها تتحكم فيها في نطاق مبادئ شمولية. وهذه القواعد هي تلك التي شبهها دي سوسير بقواعد لعبة الشطرنج[26]، فهي لذلك لازمة في كل الأحوال وموجودة

سلفا في أذهان المتكلمين لتوجه مظاهر سلوكهم اللغويّ كما توجه قواعد لعبة الشطرنج قطع الشطرنج. فهي إذن قواعد تتّسم بسمة الشمولية. وهذه السمة تكسبها القدرة على التحكم في مبادئ السلوك اللغوي العامة لأنّها تعمل في إطار يشبه القانون الكليّ.

2) قواعد خاصة[27] (Règles particulières)، وهي قواعد بعدية تأتي لتكيّف خصوصيات الاستعمال التي تفلت من القواعد العامة، لأنّ القواعد العامة لا تستطيع –بحكم شموليتها–السيطرة على كلّ الجزئيات.

وهذه القواعد مقيِّدة أيضا، لكنها لا تُلتزم باستمرار ولا تمثل قواعد ثابتة، بل هي متجدّدة لأنها تستجيب لعوامل التطوّر فتنظّم بصورة آلية مظاهر التغيير لكي لا تدعها منحرفة عن نظام اللغة العام. فهي إذن قواعد تعمل بصفة وقتية، وتقوم بما يشبه دور الحركة الارتدادية في القواعد العامة عندما تسعى إلى استيعاب ما يبدو شذوذا أو تطوّرا في مظاهر السلوك اللغوي.

ومختلف هذه القواعد يملكها كل فرد من أفراد الجماعة اللغوية الواحدة، وهي تعمل في أذهانهم بصورة آلية، وتوجّه سلوكهم اللغوي، وتقيِّده بدون شعور منهم "فاللغة موجودة لدى الجماعة في شكل جملة من الارتسامات المودعة في كل دماغ... فهي إذن شيء ما موجود في كل دماغ من تلك الأدمغة على حدة. وهو مع ذلك مشترك بينها جميعا مُودَع لدى أصحابها دون أن يكون لمشيئتهم في ذلك أيّ دخل"[28].

تقيد القواعد إذن الاستعمال في كل الأحوال. لكن تختلف درجة هذا التقييد ووطأته. فهو إمّا قَبْلِيّ ليس لأحد حرية الخروج عنه لأنه يرجع إلى القواعد العامة لنظام اللغة الموروث الذي يفرض نفسه على الأفراد ويجعلهم في علاقة تبعية له. وإما بَعْدِيّ يتأتى بقاعدة خاصة تكون منسجمة مع النظام إثر استحداث منوال ترتضي الجماعة اللغوية استعماله، فيكون بذلك قابلا للتبدّل لأنه يمثل قانونا آنيا

يفرض نفسه على المتكلمين عن طريق ضغط الاستعمال الجماعي لكن دون وجود أي ضمان للمحافظة عليه كما ذهب إلى ذلك دي سوسير[29]، "فالنظام الذي يحدده القانون الآني نظام عابر غير ثابت"[30] لأنه لا يصمد أمام عوامل التغيير. فهو لا يعني سوى تنظيم ما يجِدُّ من الأحداث اللغوية التي تشدّ انتباه المتكلمين فيجري استعمالها بينهم.

ولا تتعارض القواعد الخاصة مع القواعد العامة بل تكملها. فالصنفان يعملان في نطاق جدلية التعميم والتخصيص، وثنائية الانتشار والانحسار: الانتشار الذي تمثّله شمولية القاعدة العامة، والانحسار الذي يجسمه عملها الارتدادي من خلال عمل القواعد الخاصة بهدف السيطرة على مظاهر التطوّر اللغوي. فالقواعد الخاصة تفريع للقواعد العامة وعامل حركي لها بفضل ما فيها من الطواعية التي تستطيع بها تكييف مظاهر الاستعمال المحدثة لصهرها في نظام اللغة والتخفيف عليها من ضغط القيود الموروثة.

ولا تمثل القواعد وحدها قيودا على السلوك اللغوي. بل إن الأدلة اللغوية المتواضع عليها تعدّ هي أيضا قيدا. وذلك أن الفرد ليس دائما حرّا في اختيار ألفاظه. فهو ملزم في غالب الأحيان بما تفرضه عليه الجماعة من وجوه الاستعمال وذلك أن اللغة من حيث هي أداة تواصل ، هي عقد مشترك بين الأفراد، لا يجوز لأحد اختراقه إلاّ إذا قبلت المجموعة بذلك حين ترضى بمظهر إبداع من أحد من أفرادها. فاستعمال اللغة إذن هو مقيد بنظام اللغة المحافظ من جهة، وبالمعيار الاجتماعي الذي يتسم هو بدوره بالمحافظة، من جهة أخرى[31].

وتجدر الإشارة في هذا الصدد، إلى كتب اللحن. فقد ذهب أصحابها إلى القول بالتوقيف القواعدي، ودعوا إلى ضرورة التقيد بما وضعه علماء اللغة من ضوابط الاستعمال وأحكامه لأن اللغة العربية بلغت في نظرهم من النموّ والاكتمال في مرحلة الوضع ما لا مزيد عليه[32]. إلا أنّ البحوث اللسانية اليوم تخالف هذا

التصوّر، إذ ترى أن القواعد التي تتحكّم في الاستعمال ليست توقيفية خارجة عن نطاق المتكلّم، بل هي تنبع من مستعمل اللغة نفسه وذلك عن طريق ما يسميه شومسكي (Chomsky) بالقدرة اللغوية (Compétence) التي تعني معرفة الفرد الضمنية لقواعد لغته والتي بموجبها يستطيع إنجاز الكلام وإنشاء الجمل. وتتحدد مقبولية تلك الجمل من خلال مبدإ الكفاية نفسه الذي يجعل من المتكلم–المستمع النموذجي وهو المتكلم بلغته الأم(Locuteur natif)، المتكلم القادر على استعمال اللغة استعمالا صحيحا[33].

على أنّ مقولة المتكلم– المستمع النموذجي في الاتجاه التوليدي، يمكن أن تحوّل الفرد إلى أن يكون هو نفسه عاملا من العوامل التي ترسّخ مبدأ التقييد القواعديّ وذلك أنّ مستعمل اللغة يرى أنّ من مصلحته التقيد بالقواعد التي اكتسبها من محيطه اللغوي، لأنها تمثل له حلاّ جاهزا، فيكتفي بها اختصارا منه للمجهود وحرصا على بقاء التفاهم سليما بينه وبين أفراد المجتمع. فالمتكلم عندما يستخدم أبنية اللغة إنّما يقتدي بقواعد اللغة السائدة. وهذه الفكرة أساسية في تشكيل مبدإ اقتصاد اللغة. فهذا المبدأ يجسّم نزعة الإنسان إلى الحد الأدنى من النشاط الذهني والجسدي.

على أنّ اللغة دائما في اشتغال مستمر رغم القيود القواعدية ورغم ما يفرضه المعيار الاجتماعي من وجوه الاستعمال. وهذه الحركية هي التي تحقق التوازن بين جذب القيود القواعدية وجذب التطوّر والتجديد. وهو ما يجعل التطور غير مؤثر سلبا في فهم اللغة عبر الأجيال.

ولئن مثلت القواعد الجانب المجرّد في اللغة الأكثر قابلية للثبات، فإن الألفاظ هي الكيانات الأكثر قابلية للتطوّر والمجسمة في نفس الوقت لعمل القواعد. ومن ثمّ فإن العلاقة بين مظاهر الاستعمال وقواعده هي علاقة تكامل، أو بالأحرى علاقة شكل بمضمون. وتكون نتيجة هذه العلاقة إمكانية تعديل بعض القواعد وذلك عبر

ما يداخل اللغة من الألفاظ المولدة، أو عبر استعمال اللغة المكثف. ومعنى هذا أن القواعد لا يمكن أن تحمي نفسها باستمرار إذ يمكن أن تتزعزع – ولو بصورة جزئية – عند ما تواجه مظهرا تطوريا ؛ وفي هذه الحالة تتكيّف ذاتيا مع ذلك المظهر بفضل ما يوفّره لها النظام من القدرة على ذلك لكي تضمن لنفسها الاستمرار ولكي يتبيّن أنّ مستعمل اللغة لم يحِد عنها إلاّ بقدر محدود ؛ وتكون نتيجة ذلك الحياد في النهاية تحقيق ملاءمة بين وحدات اللغة والواقع المتطوّر ضمن قاعدة تطوّرية خاصّة تُعدّ توسعا في قاعدة عامة أكثر شمولا.

والخلاصة هي أن نظام اللغة نظام مغلق. إلاّ أنّ اللغة بحكم كثرة تداولها، يمكن أن يتسرّب عبر استعمالها الدائم ما يحدث جِدّة في جانب من جوانب نظامها. فيكون ذلك عدولا عن قيود قواعدية معينة من أجل تحقيق ملاءمة جديدة بين نظام اللغة ومقتضيات التطوّر. وهذا يؤدي إلى القول بأن انغلاق النظام لا يعني عدم حدوث التطور الداخلي فيه. وهذا التطور الداخلي لا يحدث مخالفا للنظام أو القوانين العامة. فهو يحدث داخل النظام بحسب ما تسمح به القواعد فيكون ما يتولد من ألفاظ ومفردات محكوما داخليا بنظام اللغة، وعليه فإن أغلب ما تترصده كتب اللحن منه وتدرجه في مقولة الخطإ هو في الحقيقة قد سبق المصححين في اكتساب شرعيته النظامية إلى جانب شرعيته الاجتماعية ويجوز حينها أن يدرج في متون المعاجم.

5- الشذوذ والخطأ: قضية الشذوذ (Anomalie) مقابل الاطراد، سواء أكان هذا الاطراد في الاستعمال أم في القاعدة (القياس)، وقضية الخطأ (Incorrection) مقابل الصوابهما مسألتان مخالفتان للتصوّر المعياري من وجهة نظر لسانية. فالتصور المعياري كما هو الحال في كتب اللحن يقصي من المعجم ما يعدّ شذوذا أو خطأ. أما التصور اللساني فهو يرى اللغة لا تخرج عن كونها مؤسسة اجتماعية قابلة للتطور كما سبق أن ذكرنا. وإذن فإنّها لا تخلو في حدّ ذاتها من هذه

الخاصية. ومن أصحاب هذا الرأي، دي سوسير. فهو يرى أنّ اللغة باعتبارها نظاما من الأدلة، هي "نتاج موروث عن الأجيال السابقة"[34] أي إنّها "لسان حاصل التكوين"[35]، ومن ثَم فإنّ استمراريتها هذه "تقتضي حتما التغير أي تزحزح العلاقات تزحزحا يقلّ ويعظم"[36]. إلاّ أنّ التحوّل الذي يصيب نظامها المجرد بطيء جدّا. ويفسَّر هذا البطء بخاصية النظام المحافظة، إذ من وظائف نظام اللغة ضمان التواصل بين الأجيال وتحقيق الوحدة اللغوية بينها كما ذهب إلى ذلك غلبار (Guilbert)[37]، وذلك خلافا للمفردات، إذ المفردات مهيأة للتبدل بسبب خضوعها لتبدل العوامل الداعية إليها. فالمفردات إذن أكثر سرعة في تطوّرها نتيجة ارتباطها المباشر بالمواضعات المتغيرة.

وإذا أقررنا بمبدأ التطوّر–بقطع النظر عن درجة سرعته – فإن الحكم بالرفض على كل خروج عن المألوف هو حكم مسبق ومعياري. فقد يكون ذلك الخروج الذي يعدّ من الشذوذ أو الخطإ وجها مقبولا في الاستعمال أو في نظام اللغة المجرّد، على أن ذلك يتطلّب تحديدا لمفهوم الخطإ والشذوذ وعلاقتهما بالتطوّر اللغوي. وهو ما سنقوم به في الفقرتين المواليتين.

5–1 الشذوذ: يفضي التطوّر اللغوي إلى بروز ظواهر يمكن أن تحدث عدولا (Déviation) عن قاعدة من القواعد الثابتة أو وجه من وجوه الاستعمال الشائعة. ويرتبط هذا العدول بمفهوم الشذوذ لكونه مخالفة لنمط سائد في رأي الصفووين فلا يقبلون إدراجه في المعجم. على أن هذا الموقف لا يستقيم بناءً على نظرية ابن جني في الشذوذ. فقد حصر ابن جني قديما، الشذوذ في مبدأين أساسيين من مبادئ المقبولية (Acceptabilité) اللغوية هما الاستعمال والقياس، وذلك عند تصنيفه لأقسام الكلام إلى مطّرد وشاذ. وخلاصة مذهبه في ذلك، أن الشذوذ نوعان: شذوذ في الاستعمال، وشذوذ في القياس. فعندما يكون في الاستعمال فإنه يمثل السلوك

اللغوي التداولي الأقل شيوعا، وعندما يتعلق بالقياس فإنه يعتبر مخالفة لقاعدة مطردة معلومة[38].

وقد حدّد شومسكي في اللسانيات الحديثة مفهوم المقبولية. فذهب إلى أنها المظهر اللغوي الذي يكون مقبولا من خلال المبدأين المذكورين. وذلك أن الوحدات اللغوية التي تؤدي وظيفة تواصلية هي عنده، تلك التي تكون من إنجاز الفرد العارف بلغته، والتي تخضع للقواعد اللغوية الموجودة في ذهنه سلفا وتعكس قدرته على توليد الجمل عند عملية التواصل[39].

إذن تعكس مقولة الشذوذ ثنائيتين في اللغة:

1) الأولى هي ثنائية الشذوذ الذي يقابل كثرة الاستعمال (شذوذ / كثرة استعمال).

2) والثانية هي ثنائية الشذوذ الذي يقابل القياس: (شذوذ / قياس).

على أنّ كلا من هاتين الثنائيتين تقتضي بحثا في خصائصها، وذلك للوقوف عند مفهوم لساني دقيق للشذوذ قصد معرفة الكيفية التي يرتدّ بها الشاذ إلى اللغة العامة (Langue commune) دون أن يُقصى من المعجم. ونحن بذلك نتجاوز التصوّر المعياري الذي يقسّم اللغة إلى مستويات في الاستعمال يحتل فيها الشاذ المرتبة الدنيا ويُعتبــَر المظهر الرديء من اللغة الذي يجب أن يُهمَل أو يُتخلّى عنه عندما لا تدعو إليه الضرورة.

1-1-5 المقبولية اللغوية بين مبدأي كثرة الاستعمال والشذوذ: يعدّ النقل في الدراسات اللغوية العربية من أهمّ سبل الاحتجاج للمقبولية اللغوية. ويقسم علماء اللغة اللغة العربية المنقولة إلى مشهور كثير الاستعمال، وشاذ، وضعيف، ورديء ومتروك ممات، ومهمل[40].

فالمشهور هو ما شاع استعماله وعُرف. ويسمّى "الفصيح"، و"الغالب" و"الكثير"[41].

والشاذ في الاستعمال هو ما خالف المشهور. ويسمى أيضا "القليل"، و"النادر" من ندر الكلام يندر ندورا أي شذّ وخرج من الجمهور[42]. ويعني كذلك ما خالف القاعدة مقابلة لما ينقاس ويطردّ[43].

ويُعرف أيضا بالحوشي والغريب. فـ"الحوشي والغرائب والشواذ والنوادر هذه ألفاظ متقاربة"[44]. فـ"الغرائب جمع غريبة، وهي بمعنى الحوشي. والشوارد جمع شاردة، وهي أيضا بمعناها"[45]. والحوشي-ويقال له أيضا الوحشي-"ما نفر عن السمع"[46] و"إذا كانت اللفظة حسنة مستغربة لا يعلمها إلاّ العالم المبرّز والأعرابي القح، أو أن تكون الكلمة نافرة عن السمع"[47].

أمّا الضعيف فهو "ما انحطّ عن درجة الفصيح. والمنكر أضعف منه وأقل استعمالا" [48].

والرديء أو المذموم من اللغات "هو أقبح اللغات وأنزلها درجة (...) ومن ذلك الكشكشة، وهي في ربيعة ومضر، يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شينا (...) ومن ذلك الوكْم في لغة ربيعة (...)، يقولون: "عَلَيْكِمْ" و"بِكِمْ"[49]، حيث ينطقون الكاف بالكسر حين يكون قبلها ياء أو كسرة[50].

وأمّا المتروك فهو "ما كان قديما من اللغات، ثم ترك واستعمل غيره"[51]، فأصبح مماتا.

والمهمل هو "ما تحتمله قسمة التركيب في بعض الأصول المتصوّرة أو المستعملة"[52]، فهو إذن ليس بمعنى المتروك. وهو على ضربين: "ضرب لا يجوز ائتلاف حروفه في كلام العرب البتة، وذلك كجيم تؤلف مع كاف، أو كاف تقدَّم على جيم، وكعين مع غين، أو حاء مع هاء أو غين. فهذا أو ما أشبه لا يأتلف. والضرب الآخر: ما يجوز تألف حروفه لكنّ العرب لم تقل عليه، وذلك كإرادة مريد أن يقول: عَضَخَ"[53].

واختلف اللغويون القدماء في درجة الأخذ بأقسام النقل هذه. فذهب بعضهم إلى الأخذ بالأكثر استعمالا. ويتضح هذا الاتجاه عند بعض المعجميين وعامة البصريين من النحاة. فمن المعجميين أبو بكر محمد بن الحسين بن دريد (ت 321 هـ/933م)، فقد وضع معجما سمّاه "جمهرة اللغة"، قال في مقدمته: "وإنما أعرناه هذا الاسم لأنّا اخترنا له الجمهور من كلام العرب. وأرجأنا الوحشي المستنكر"[54]. ويقصد بالجمهور من الكلام الشائعَ الذي كثر استعماله.

واللجوء إلى هذا المبدإ عند مثل هؤلاء المعجميين، مردّه إلى اعتبار الأشهر هو الضابط للمقبولية اللغوية في استعمال الألفاظ. واعتمد النحاة البصريون على المبدإ نفسه. لكن على أساس آخر، وهو استخراج قواعد تنقاس وتطّرد مما تكثر نظائره لأن ما كثر استعماله هو الذي يؤدي في نظرهم إلى ضبط القواعد واستخراجها وفق مقاييس منتظمة، وذلك أنّ من أصولهم "المصير إلى ما له نظير في كلام (العرب) أولى من المصير إلى ما ليس له نظير"[55]. فكانوا بذلك يسقطون ما لم يشع ويعدونه شاذا يحفظ ولا يقاس عليه. ونتيجة لذلك، لم يعتبروا ما يسمّى "لغة" أصلا يعتمد عليه في وضع قوانين اللغة وقواعدها.

ومن اللغويين من اعتدّ بالشاذ أيضا. ويتجلّى ذلك عند أهل الجمع من المعجميين وعند رواة اللغة من الكوفيين. فمن المعجميين نجد محمد جلال الدين بن منظور (ت 711 هـ/1311م) في معجمه "لسان العرب"، فإنه لم ينـــزع في معجمه هذا منزعا انتقائيا. أما رواة اللغة الكوفيون فقد كانوا مهتمين بجمع اللغة، ما شاع منها وما ندر. فلم يكن مذهبهم في رواية اللغة مذهبا متشدّدا، كما هو الحال عند البصريين. بل كان مذهبا متساهلا في عمومه، يرتكز على الكمّ. "ويتمثل الاتساع في السماع والرواية في الأخذ بجميع لغات العرب، سكان البادية والحاضرة، سواء أكانوا منعزلين أم مخالطين لغيرهم من الأمم"[56]. وقد أورد جلال الدين السيوطي (ت911هـ/ 1505 م) في ذلك أنّ علماء اللغة "اتفقوا على أنّ البصريين أصحّ

قياسا لأنهم لا يلتفتون إلى كل مسموع، ولا يقيسون على الشاذ. والكوفيون أوسع رواية"[57]. بل إنّهم "لو سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلا وبوّبوا عليه، بخلاف البصريين"[58].

واتساع الرواية عند الكوفيين يدلّ على عدم اهتمامهم بمبدإ الكثرة، لأنهم يعتبرون المنقول من كلام العرب كله حجة. فلا تقلّص صفة القلّة والشذوذ في نظرهم، من قيمته عند استعماله ما دامت العرب قد تكلمت به.

ويعكس الاختلاف بين اللغويين العرب القدامى حول مدى الاعتداد بكثرة الاستعمال، تباين وجهات النظر في المبدإ الذي يمكن أن يعتمد في تحديد المقبولية اللغوية :أهو كثرة الاستعمال، أم مطلق السماع. فالخلاف القائم بينهم يبرز عدم الاتفاق في مراتب أصول اللغة. فلئن كانت أصول البصريين وأصحاب التنقية ترى أولية الكثير والمطرد، فإن أصول الكوفيين تقبل بالشاذ عند ورود السماع به. وهو ما يبيّن أنّ ثنائية الشيوع والشذوذ هي مسألة خلافية.

على أنّ رفض الشاذ هو موقف صفويّ ومحدود لأنه يضيّق مجال استعمال اللغة إذ هو يحصر المقبولية في نسبة تواتر الألفاظ دون بحث في نظام اللغة ذاته لمعرفة مدى قدرته على استيعاب ما يتولد من المفردات والأساليب، ودون تحديد لسانيّ دقيق لمعنى الشذوذ وأسبابه.

إنّ التعريف اللساني الدقيق لمفهوم الشذوذ على مستوى الاستعمال، هو مخالفة النمط الشائع والعدول عنه. والمخالفة أو العدول هما كل عملية انزياح أو تصرّف في ذلك النمط تفضي إلى تحويره. ويسمى ذلك شذوذا مقارنةً بالمادة المرجعية في الرصيد اللغوي المتواضع عليه.

وأسباب ذلك الشذوذ ترجع إما إلى اختلاف لهجيّ، وإما إلى تطوّر بنيويّ أو دلالي في الوحدة اللغوية.

وتعتبر هذه الأسباب إعادة تشكيل لجزء من أجزاء عملية التواصل يكون هدفها الرئيسي تحقيق تفاهم أكبر. فإن قبلت الجماعة اللغوية بهذا التشكيل الجديد عُدّ ذلك من اللغة، لأنه يصير جزءا من الرصيد اللغوي الجماعي بقطع النظر عن درجة تواتره، ذلك أنّ "الكلمة المولدة عندما تختزنها الذاكرة الجماعية تفقد ميزتها الإبداعية لتصبح وجها من وجوه الاستعمال القائمة"[59]، وتغدو كأنها ليست جديدة. وإن رفضت الجماعة ذلك التشكيل فإن تلك الكلمة المحدثة تُهمل وتُنسى وتنقرض تلقائيا من الاستعمال كدليل على عدم قدرتها على تحقيق الملاءمة بين التغيير المطلوب والحاجات التواصلية وكدليل أيضا على أنها تمثل إطنابا غير مرغوب فيه يؤول أمره إلى الترك بمقتضى مبدإ الاقتصاد اللغوي.

وإذن فإنّ مقولة الشاذ لا تصلح أن تكون مبدأ تُرفَض به بعض أوجه استعمال اللغة، وذلك أن هذا الشاذ يساهم في تحقيق وظيفة اللغة الرئيسية التي هي التواصل. وعليه فإن مظاهر العدول يجب أن ترتبط بمسألة نموّ اللغة وتطوّرها في أحقابها المتعاقبة وفي إطار قدرتها على التوليد وليس بمقولة "قل ولا تقل" المعيارية.

ومختلف المظاهر التطورية التي يشيع استعمالها، لا تمثل مظاهر معزولة (شاذة) إلا إذا نظرنا إليها بمعزل عن نظام اللغة كما يفعل ذلك الصفويون وأصحاب التنقية اللغوية. أما إذا اعتُبِرت امتدادا للمظاهر المتداولة فإنها تُعدّ جزءا من اللغة يمكن إدراجه في مستوى من مستويات استعمالها وفي قاعدة من قواعد نظامها. فمن المهمّ إذن اعتبار كثير من مظاهر التوليد العفوية التي هي عند أصحاب التصحيح خطأ، قسما من اللغة قابلا للتفسير من خلال ما يوفّره نظام اللغة من المبررات، ومن خلال مفهوم قدرة الفرد التواصلية، لأن قدرة الفرد على إنجاز الكلام بهدف التواصل تدل على معرفته للغته.. و"معرفة اللغة معناها معرفة

ألفاظها البسيطة، والمركبة، ومعانيها، وكذلك معرفة جملها المكوَّنة من ألفاظ متعددة "[60]. فالشذوذ ليس بالضرورة مظهرا لغويا يجب التخلي عنه.

5-1-2 المقبولية اللغوية بين مبدأي القياس والشذوذ: إنّ المقابلة بين القياس والشذوذ تفرض نفسها على طبيعة العمل التقعيدي في اللغة وتطرح الجدل حول درجة نظامية اللغة. فلئن كان القياس في معناه الأوّلي هو اتباع التمثيل النموذجي من حيث أنّ المثال يكون "جمعا لأقوال مختلفة في قول واحد"[61]، فإنه يقتضي "وجود منوال ومحاكاة منتظمة لذلك المنوال"[62] وهو ما يعني أنّ محاكاة المنوال تتجسّم في اتباع قاعدة مطردة، وهذا عكس الشذوذ، ذلك أنّ الشذوذ يدلّ على اختلاف الوحدة اللغوية عن نظائرها لتمثل استثناء.

وقد أدرك علماء اللغة العرب ذلك، فاختلفوا في مدى الأخذ بالقياس. فقد كان أبو علي الفارسي مثلا من أبرز من أخذ به من القدماء. فقد روى عنه عثمان بن جني(ت392هـ/1002م) أنه كان يقول: "أخطئ في مائة مسألة مما بابه الرواية ولا أخطئ في مسألة واحدة قياسية"[63]، ويقابله في ذلك من اللغويين الذين سبقوه أبو عمرو بن العلاء، فقد كان مذهبه الأخذ بكلام العرب كلّه واعتبار النقل الطريق إلى اللغة، "فهو في طلب اللغة يمثل العقلية النقلية"[64]. وإلى مثل ذلك ذهب الكوفيون. فقد كانوا يقيسون على المطرد والشاذ من المنقول من كلام العرب، في حين كان البصريون لا يعتدّون إلاّ بالمطرد والغالب، ويعتبرون الشاذ مما يحفظ ولا يقاس عليه[65].

ومرجع القياس عند القائلين به ليست كثرة الاستعمال أو قلته، بل اطراد القاعدة وانتظامها. ويتجلى هذا الرأي في ما ذكره ابن درستويه (ت347هـ/958م) من أنّ المقبولية تتحدد بما "أفصح عن المعنى واستقام لفظه على القياس، لا على ما كثر استعماله"[66]، فاللغة التي يكثر استعمالها والتي تقل "إنما هاتان لغتان مستويتان في القياس والعلة"[67]. فالتي تجري منهما على القياس هي التي يعتدّ بها.

ولئن بقي الشاذ عن القياس مسألة خلافية، خاصة بين علماء الكوفة والبصرة فإن هذه المسألة قد حسَم فيها من جاء بعدهم. فبعد مرحلة وضع القواعد بقياس أنماط الاستعمال التي بدأ بها عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت 117 هـ/727م) وتجلّت في كتاب سيبويه(ت180هـ/796م)[68]، تغير البحث إلى ضرب من البحث النظري المجرّد يقوم على تقصّي المسائل القياسية لتحديد ما يتفق منها وما يتعارض، وما يندرج في القواعد الكلية العامة وما يشذ عنها. فقد سعى اللغويون إلى تحديد ضروب القياس وأنواع أحكامه وعلله لضبط وجوه الاستعمال المختلفة فظهرت مقولات من قبيل "حمل الفرع على الأصل" وحمل الأصل على الفرع" وسمّوا ذلك "طرد الباب"[69]، وأدرجوه في ما سموه "قياس المساوي"، وبوّبوه ضمن ما اصطلحوا عليه "بالعلل المطردة"[70].

ومما أدرِج أيضا من المقولات ضمن هذا الصنف من العلل مقولة "حمل النظير على النظير" ومقولة "حمل الضدّ على الضدّ". وكل ذلك لاحتواء ما شذّ من وجوه الاستعمال ضمن قواعد فرعية تعيده إلى مستوى من مستويات نظام اللغة أو إلى قاعدة عامة أكثر شمولا.

ولا تخالف اللسانيات الحديثة هذا الحلّ، فقد أقرّت قواعد تسمى "قواعد الاستثناء" ((Règles d'exception يتم تطبيقها على ما يعدّ أبنية خاصة (Formes praticulières) في إطار قواعد أشمل منها تسمى "القواعد العامة"[71] فتكون قواعد الاستثناء تفريعا وامتدادا داخليا للقواعد العامة.

وتمثل المظاهر التطورية أيضا صورة أخرى من صور الشذوذ عن القواعد المرجعية العامة. إلاّ أن هذه المسألة قد تمّ فيها البتّ أيضا. ومن أبرز من واجهها من العرب القدماء ابن جني؛ فقد تحدث في كتابه "الخصائص" عن الدلائل اللغوية وذهب إلى أنّ الأقيسة الصناعية التي تعتمد على الأحكام النظرية لها من القوة ما تكون به دليلا على صحة اللفظ[72]، وذلك أنّ "الناطق على قياس لغة من لغات

العرب مصيب غير مخطئ وإنْ كان ما جاء به خيرا منه"[73]، لأنّ "ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب"[74]. وكان من جملة الأسباب التي جرّته إلى هذا المذهب جريان الكثير من الألفاظ المولدة على ألسنة الناس في عصره نتيجة اتساع رقعة المتكلمين بالعربية واختلاط الأجناس. وقد كان أستاذه أبو علي الفارسي يراها عربية بالقياس، تجري عليها أحكام الإعراب[75]؛ في حين رآها هو من شجاعة العربية[76].

ويطرح موقف ابن جني وأبي علي الفارسي من القياس ما نحن بصدد معالجته وهو قضية التطوّر اللغوي والقياس. ويجيب عن سؤالنا: هل يمكن لما يتولّد من الظواهر اللغوية العفوية وينتظم في قاعدة يتسم بالمقبولية ويصبح من اللغة ؟

وتؤيد اللسانيات الحديثة هذه النتيجة. فقد ذهب لاينـــز (Lyons) في كتابه: "لسانيات عامة" (Linguistique générale) إلى أن الشاذ عن قاعدة قديمة عند ما ينتظم في قاعدة جديدة يصبح غير شاذ في المرحلة اللغوية التي انتظم فيها. ومن ثم تصبح عملية التطوّر متمثلة في حلول قياس جديد. أمّا ما يبقى شاذا دون أن تحتويه قاعدة معينة فيمكن أن ينزع إلى الانتظام عندما تتداوله أجيال جديدة من مستعملي اللغة[77].

فمسألة القياس والشذوذ إذن مسألة تخضع في جانب كبير منها للزمن وتتمثل في عملية إبداع أو إعادة انتظام لظاهرة قديمة كما يذهب إلى ذلك دي سوسير[78]. والشذوذ عن القواعد المرجعية الذي يحدث بفعل الزمن على جوانب من اللغة مبرّره الفارق الزمني بين مستويات الاستعمال اللغوي، أو اشتغال مبادئ قياسية متعارضة في نفس الوقت، أو قدرة بعض المظاهر على الثبات على قياسيتها مقابل تزحزح مظاهر أخرى عن تلك القياسية[79]. إلا أن مختلف صور العدول تنـــزع إلى المقيسة لأنها تمثل عملية تكييف للظواهر اللغوية التطورية مع نظام اللغة.

وللأفراد أثر كبير في تحديد الصيغ القياسية للوحدات المعدولة(الشاذة)، فهم يُجرُون ما يبتدعون من وحدات على النمط الغالب من أفراد (Individus) بابها ويضعونهـــا على قياسهـــا لتناسبهـــا. ويسمـــى هذا القياس القياس الخاطئ (False analogy). وتكتسب تلك الوحدات نظاميتها بهذا القياس.

ولا تعتبر المظاهر اللغوية المعدولة والمندرجة في هذا النوع من القياس شذوذا لأنها لم تخرج في أبنيتها عن أبنية اللغة المجرّدة في حدّ ذاتها وإنما انتقلت من بنية إلى أخرى لتصبح خيارا جديدا في الاستعمال يناظر مظهرها القديم ليمثل بديلا موازيا له.

يجسّم القياس إذن نظامية اللغة والمبدأ الذي يستوعب مظاهر تطوّرها. ولئن تعددت أنواعه ومظاهره، فإن الغاية من ذلك هي إلحاق مختلف وحدات اللغة بالقواعد العامة. فلا سبيل بالتالي إلى الشذوذ مادام العدول يتمّ في إطار تلك القواعد ومن خلال طرق التوليد التي توفرها قوانين اللغة. ويكفي البحث في نظام اللغة المجرد حتى تجد المظاهر المعدولة ما يبرر انضواءها في ذلك النظام. وقد عمل اللغويون العرب القدماء، مثل ابن جني وأستاذه أبي علي الفارسي كما رأينا، بهذا المبدإ. فأحلوا القواعد النظرية محلّ الشواهد النقلية، ولا سيما بعد توقّف السماع وذلك لجعل نظام اللغة المجرد البديل المناسب لاستيعاب ما يجدّ عبر الزمن وتبريره.

على أنّ القصد من القياس في التصوّر اللساني الوظيفي، ليس تأسيس القواعد في حدّ ذاتها، لأن ذلك من شأنه أن يقيّد اللغة بما لا يستجيب لحتمية التطوّر، وإنما هو وصف نظام اللغة ومعرفة قوانينه لتفسير مظاهر الاستعمال على ضوء الواقع اللغوي، وعلى أساس ما يبدو ضروريا لإعادة التقييم. وبناء على هذا التصور يكون القياس مبدأ من مبادئ نموّ اللغة وتطورها بما يقدمه من القواعد التي لا تجيز من المظاهر التطوّرية إلا ما يقبله نظام اللغة. فهو إذن قانون ينظِّم انتقال المظاهر

اللغوية من حالة انتظام معيّن إلى حالة انتظام أخرى كما يذهب إلى ذلك دي سوسير[80]، ومن ثمّ يمثّل قاعدة تستقرّ فيها مظاهر الإبداع والتوليد.

5-2 الخطأ: مقولة الخطإ هي حكم المعياريين بالرفض على ما خالف النقل والقاعدة المعيارية من المولدات بهدف إقصائه من المعجم، وذلك أنهم يعتبرون التبدّل الذي يصيب الوحدات اللغوية أو قواعد ائتلافها فسادا في اللغة وإخلالا بنظامها. وهو موقف انطباعي لا ينزل الخطأ تنزيلا لسانيا دقيقا بل يجعله مرادفا لمعنى مخالفة الأنماط الفصيحة، فيتداخل مع مفهوم الشذوذ.

ونحن نميّز بين المفهومين. فالشذوذ كما بيّنا في الفقرة السابقة، هو مخالفة تندرج في ما يعدّ تباينا لهجيا أو نزوعا من القواعد ومظاهر الاستعمال المرجعية إلى التطوّر. أما الخطأ فهوما يخالف المعيار الاجتماعي، وما لا يطابق وظيفة تواصلية، وبعبارة أخرى هو كل مظهر قصور في وحدات اللغة عن تحقيق الأغراض التواصلية كما يذهب إلى ذلك فروي[81]، فترفض الجماعة اللغوية استعماله وتقصيه.

على أن تنزيل الخطإ تنـــزيلا لسانيا دقيقا وبعيدا عن المواقف الانطباعية والآراء المسبقة يقتضي التعريف به في الدراسات اللغوية العربية والغربية، وذلك للخروج بحوصلة مفيدة يمكن الاعتداد بها. ونحن في هذا السياق نحاول النظر في ذلك في إطار مقاربة تجعل من الاستعمال اللغوي أهمّ مرجع في البحث. فماذا يعني إذن مفهوم "الخطإ" في الدراسات اللغوية العربية والغربية ؟ وما هي مقاييسه؟ وكيف نميّزه عن مفهوم قريب منه في معناه وهو اللحن؟

5-2-1 الخطأ ومقاييسه في الدراسات العربية: يتداخل مفهوم الخطإ مع مفهوم آخر أعم منه في معناه وهو اللحن. ولذلك فإننا نرى أن محاولة تعريفه تكون من خلال مقاربة المفهوم الأخير معتمدين على مذهب ابن فارس لننتهي بذلك

إلى معرفة ضوابطه من خلال تصور ابن جني لمراتب الكلام من حيث الاطراد والشذوذ.

أ) اللحن والخطأ من خلال رأي ابن فارس في اللحن:

ذهب أحمد بن فارس (ت395هـ/1005م) في تعريف اللحن إلى ما يلي: "فأما اللحن بسكون الحاء، فإمالة الكلام عن جهته الصحيحة في العربية. يقال: لَحَنَ لَحْنًا. وهذا عندنا من الكلام المولّد لأنّ اللحن محدث لم يكن في العرب العاربة الذين تكلموا بطباعهم السليمة"[82].

ومما يستفاد من كلام ابن فارس أن اللحن يمكن أن يُنظر إليه من زاويتين مختلفتين: الزاوية الأولى معيارية، تعتبر المنقول من كلام العرب نمطا لا يجوز الخروج عنه، ومن ثمّ فإن العدول عنه يعدّ خروجا عن الصواب، فيفيد اللحن من هذه الزاوية معنى الخطإ، ويصبح الخطأ من هذا المنظور مستوى من اللحن وليس اللحن كله، وهو الذي عبّر عنه ابن فارس بقوله "فأما اللحن، بسكون الحاء، فإمالة الكلام عن جهته الصحيحة في العربية".

والزاوية الثانية لسانية، تربط الظواهر اللغوية بعصورها، وتنظر إلى التوليد اللغوي من وجهة نظر تطوّرية (Evolutive)، وتربطه بالتحوّل الاجتماعي في حياة الجماعة اللغوية، وبالتالي فإن اللحن من هذه الناحية يعني توليدا في اللغة يحدث بدرجات متفاوتة في المعجم والنحو وهو ما عبّر عنه ابن فارس بـ "الكلام المولّد".

ويكتسب اللحن بمعناه الثاني أهمية بالغة لأنه يخرج بنا من النظرة المعيارية المحافظة التي تراه خطأ في اللغة، إلى اعتباره مسألة توليد في اللغة ترتبط بتطوّر اللغة وعوامله. وعلى هذا الأساس، ليست مواد كتب التصويب في نظرنا، أخطاء بالضرورة. فقد يكون كثير منها ممثلا لمظاهر من التطور اللغوي.

ب) ضوابط الخطإ والصواب من خلال رأي ابن جني في مراتب الكلام من حيث الاطراد والشذوذ:

لم يتعرّض ابن جني صراحة لمفهوم اللحن، ولكنه بيّن في كتابه "الخصائص" مراتب الكلام من حيث الاطراد والشذوذ وفقا لمبدأي الاستعمال والقياس لتحديد درجة المقبولية في ألفاظ اللغة. فقد قسّم الكلام إلى أربعة أقسام منطقية هي[83]:

(1) مطرد في القياس والاستعمال جميعا، وذلك نحو: قام زيد، وضربت عمرا ومررت بسعيد.

(2) مطرد في القياس شاذ في الاستعمال، وذلك نحو الماضي من "يَذَرُ" و"يَدَعُ" وهو "وَذَرَ" و"وَدَعَ".

(3) مطرد في الاستعمال، شاذ في القياس، نحو: استحوذ على الشيء، واستنوق الجمل، واستتيست الشاة. فلا يقال: استحاذ واستناق واستتاس، مع أن ذلك هو القياس كما في: استقام واستساغ.

(4) الشاذ في القياس والاستعمال جميعا. وذلك كتتميم مفعول فيما عينه واو نحو: ثوب مصوون، ومسك مدووف، وفرس مقوود، ورجل معوود من مرضه.

وإذا عددنا هذه الأقسام الأربعة مستويات التعبير النظرية المنطقية ثم احتكمنا إلى مبدأي القياس والاستعمال، وجدنا شرط الاستجابة للقياس (القاعدة) ليس معيارا ضروريا لقبول الظاهرة اللغوية أو رفضها خلافا لمبدإ الاستعمال (التداول)، فإنه يبدو المحدد الرئيسي للمقبولية؛ وهو ما يدلّ على أنّ ما تُوهم القاعدة بخطئه ليس خطأ بالضرورة من جهة الاستعمال. فما يجيء به الاستعمال من المظاهر اللغوية لا يمكن إقصاؤه أو نفيه وإن قل[84].

فالمسألة إذن ليست مسألة رفض أو قبول تقدّر بمدى استجابة المظهر اللغوي للقاعدة المعيارية أو عدم استجابته لها بل هي أساسا مسألة بحث عن كيفية انضواء مظهر لغوي مستعمل في نظام اللغة.

ونحن نورد في ما يلي جدولا توضيحيا في ما أورده ابن جني قصد الخروج بما يفيد في تحديد الخطإ عند ابن جني ويدل على أن ما لا يعدّ صوابا من وجهة نظر معيارية هو في جزء منه، مهيأ لأن يكون مادة لغوية مقبولة داخل النظام اللغوي:

جدول القياس والشذوذ في اللغة كما نراه عند ابن جني[85]

	الاطراد						
المستوى اللغوي النظري	**مطرد**		**غير مطّرد**		**المثال**	**حكم القياس على استعمال الظاهرة**	**حكم الاستعمال على الظاهرة**
	في القياس	في الاستعمال	في القياس	في الاستعمال			
مطرد في القياس والاستعمال	+	+	−	−	1) قَامَ زَيْد 2) مَرَرْتُ بِسَعِيد	نعم	نعم
مطرد في القياس شاذ في الاستعمال	+	−	−	+	1) وَذَرَ 2) عَسَى زَيْدٌ قِيَامًا	لا	لا

شاذ في القياس مطرد في الاستعمال	−	+	+	−	1) اسْتَحْوَذَ 2) اسْتَنْوقَ	لا	نعم
شاذ في القياس والاستعمال	−	−	+	+	1) مَصِوُونٌ 2) مَدْوُوف	لا	نعم

يبدو جليا من خلال الجدول أن الخطأ لا يعني عدم اتباع القاعدة بل هو ما لا يجيزه الاستعمال كما هو الحال في المستوى الثاني. فكل ما جرى به الاستعمال وإن كان من النادر والقليل والمخالف للقياس مثل كلمة "مصوون" أو "مدووف" (في المستوى الرابع)، هو صواب ما دام جاريا على نظام اللغة. فكلمة "مَدْوُوف" مثلا لم تخرج عن نظام اللغة العام، فهي تنتمي إلى أحد أبنيته الاشتقاقية وذلك أنها اسم مفعول من الثلاثي المجرد مبنية على زنته النظرية وإن خالفت في ذلك نظيراتها من جهة القياس عند الاستعمال، إذ القياس في ذلك هو أن يقال "مدوف" لا "مدووف" وذلك بمماثلة الواو لحركتها بسبب ورودها بعد صحيح ساكن.

ومرجع الاستعمال عند ابن جني المواضعة الاجتماعية[86]. وإذن فإن مرجع الصواب ليس القواعد في حدّ ذاتها بل المقياس الاجتماعي، أي الاصطلاح. وهذا المذهب نجد صداه في الدراسات اللسانية العربية الحديثة. فممن دعا إليه تمام حسان في كتابه: "اللغة العربية بين المعيارية والوصفية" إذ نراه يحمل على المعياريين لأنهم –على حدّ عبارته– "فكروا في اللغة تفكير من يخضع الصواب والخطأ في استعمالها لا لمقياس اجتماعي بل لمجموعة من القواعد (الموروثة) يفرضها عليها فرضا"[87].

وتصنيف ابن جني المنطقي لمستويات الاستعمال إنما يُرَدّ إلى الاستعمال كما يتجلى ذلك في الخانة المخصصة لحكم الاستعمال في الجدول. أما المقياس القواعدي فليس إلاّ رافدا يُرجِعُ المستعمل من الألفاظ والمفردات إلى قاعدته النظرية داخل النظام اللغوي العام ويبرر استقراره في اللغة. وهذا الاستنتاج كاف وحده لأن يكون دليلا على أن ما يعتبر خطأ عند بعضهم هو في جزء منه مظهر من مظاهر حركية اللغة التي تفرضها الحياة الاجتماعية المتطوّرة استجابة لحاجيات التواصل. وبناء على ذلك لا يجوز أن ننظر إلى اللغة باعتبارها كيانا ثابتا يتصف بالجمود[88] بل ننظر إليها باعتبارها مؤسسة اجتماعية قادرة على التأقلم مع ما تتطلبه حاجاتنا الأساسية للتعبير، وذلك بما تستطيع أن توفره من القواعد والقوانين التي تجسّم حركية نظامها الداخلية.

5-2-2 وجهة نظر الدراسات اللسانية الغربية في قضية الخطإ: نذكر من وجهات النظر هذه وجهة النظر الوظيفية. ونكتفي من ذلك برأي هنري فراي (H.) Frei)) نموذجا. فهذا الباحث يرى أن الخطأ هو ما لا يحقق وظيفة تواصلية أو قل هو ما يمكن أن يسمى عجزا أو قصورا في التعبير، وذلك أن الظاهرة اللغوية في نظره إنّما يتحدد خطؤها أو صوابها بحسب الوظيفة التي تؤديها والحاجة التي تسدّها[89]، وهو يحدد الاختلاف بين الموقف الصفوي المعياري والموقف الوظيفي بمفارقة ذات بعدين، هي التالية[90]:

1) يمكن أن تكون ظاهرة لغوية صحيحة، لكنها غير قادرة على أداء وظيفتها.

2) يمكن لكثير ممّا يعدّ خطأ من وجهة نظر معيارية، أن يسدّ حاجة ماسّة في التعبير تفتقر إليها اللغة.

وتفضي هذه المفارقة إلى القول بأن ما يعدّ خطأ من وجهة نظر صفوية يمكن أن يملأ خانة افتقرت إليها اللغة أو يَسُدَّ عجزا أو قصورا تواصليا في ظاهرة تعدّ صحيحة من زاوية معيارية. ومعنى ذلك أن الأخطاء التي تملأ فراغا تكتسب

شرعية استعمالها بأدائها لهذه الوظيفة وبشيوعها، لأن شيوع أيّ ظاهرة لا يكون إلاّ إذا وافقت حاجة تواصلية جماعية وَوَفَتْ بضرورة تعبيرية ملحة. وعليه فإن البحث في نظر فراي، لا يكون في شرعية وجودها أو مدى استجابتها للقاعدة النمطية الموروثة بل في الكيفية التي انصهرت بها في نظام اللغة حين أصبحت جزءا منه وذلك عنده هو أساس التمييز بين الصواب والخطإ[91].

ويربط فراي في طرحه هذا، الاستعمال اللغوي بالحاجة، ويحدد صوابه بما يحققه من وظيفة تواصلية. وأهم ما يمكن استنتاجه من هذا الطرح ثلاثة أمور هي:

1) أنّ الخطأ مسألة ترتبط بالتطور اللغوي وبجدلية الحاجة والإبداع. فما تدعو إليه الحاجة يتولد بالضرورة وفق قوانين معينة داخل النظام اللغوي، لا يعدّ خطأ. وما لا تدعو إليه الحاجة لا يتولد أو يسقط إن لم تقرّه قواعد اللغة أو وجد ما ينافسه ويغني عنه.

2) أنّ الكثير مما يسمى أخطاء شائعة هو مواضعات محدثة تختلف في درجة قوتها التنافسية من حيث قدرتها التعبيرية عن الأشياء التي وضعت من أجلها ومن حيث اشتمالها على الخصائص التي تمكّنها من الانضواء في قوانين اللغة والاستمرار في الاستعمال.

3) أنّ ما يستقرّ من الظواهر اللغوية في الاستعمال لا يجوز أن يعد خطأ لأن ذلك الاستقرار دليل على أنه توفر فيها من الخصائص ما يسمح بقبولها في الاستعمال وبدخولها في النظام، وهو ما يكفي سببا لدراسة النظام الذي استوعبها لمعرفة وجوه التطوّر فيه، وطبيعة قوانينه العامة التي تسمح له بمواكبة التحوّلات التي تطرأ على حياة الجماعة اللغوية.

وتفضي جدلية العلاقة بين الحاجة والإبداع إلى المعطى التالي: **إنّ حاجات الناس متجددة. وعليه فإنّ ما يطرأ على اللغة من تطوّر هو حالة طبيعية كي**

تؤدي وظيفتها باعتبارها أداة تواصل. وإنّ ذلك هو ما يكسبها خاصيتها الإبداعية. وهذا المعطى يمكن بمقتضاه تبرير التوليد اللغوي العفوي وقبوله و من ثَمَّ يتمّ البحث في الكيفية التي تنصهر بها مظاهره في النظام، ذلك أن الإبداعية لا تكمن في جودة استعمال القاعدة الموروثة كما يذهب إلى ذلك هي لمسلاف[92]، بل في خاصية التطور في اللغة، لأنّ ربط الإبداع بقاعدة موروثة يؤدي إلى نفيه وحصره في طرافة أداء تلك القاعدة.

وإذن، فإن التغييرات التي تطرأ على اللغة في صيرورتها الزمانية هي في أغلبها تغييرات يفرضها مبدأ التطور. وهي في حقيقتها ملاءمة بين النزعة المحافظة في نظام اللغة ومتطلبات الواقع المتغير. وبالتالي فإن مظاهر التوليد العفوي التي يعتبرها أعلام التصحيح أخطاءً لغوية يمكن أن تكون مقبولة عندما تقدر على تأمين وظيفتها التواصلية والمحافظة عليها وعندما تمثل جزءا من اللغة العامة التي تعتبر نقطة التقاطع التي تلتقي فيها وحدات اللغة عند التخاطب، على تباين مستوياتها التعبيرية واختلاف أصنافها ونسب تواترها.

6- خاتمة: إن وضع معجم تاريخي للغة العربية يقتضي استيعاب مختلف ما يستعمل من المفردات، ويمنع كل إقصاء غير مبرر. ويمكن أن يتحقق ذلك باعتماد منهج يستفيد من اللسانيات المعاصرة ويبحث في صلب نظام اللغة عن قوانين التطوّر في العربية وقواعده ويضع تصوّرا أشمل لمفردات العربية.

ولا بد في هذا الصدد من التمييز بين واقع اللغة التاريخي وواقعها الآني عند وضع المعجم التاريخي. فالخلط بين البعد التاريخي والبعد الآني يؤدي إلى دمج الظواهر بعضها في بعض دون تصنيف يربطها بواقعها اللغوي الخاص وبمراحلها التاريخية. فلكي تتحقق المقاربة التاريخية لألفاظ اللغة لا بدّ من تقديم دراسة واضحة تعتبر أحقاب اللغة المتباينة وتكشف عن وجوه التطوّر فيها. فلا يجوز اعتبار مظاهر الاستعمال اللغوي التي لا تنتمي إلى مستوى الفصيح أخطاء شائعة

إذ ليس من الضروري أن يكون الأمر كذلك؛ فكثرة ظهور الألفاظ والأساليب المحدثة التي تبدو لأغلب أعلام التصحيح شذوذا عن منقول اللغة وخروجا عن الصواب يمكن أن تكون دليلا على حركية (Dynamisme) اللغة وعلى علاقة اللغة بالتطوّر، وهو ما يجعل أحكام التخطئة في حاجة إلى المراجعة في إطار تصوّر يتناول اللغة من زاوية نظر تطوّرية لا من جهة معيارية محافظة. فالنظرة الصفوية تجعل البحث اللغوي في ما يطرأ على اللغة من تغيّر بحثا ذاتيا تغلب عليه النزعة المذهبية إذ لا تعالج الاستعمالات المحدثة في هذه الحالة، على أسس موضوعية تراعى فيها المستويات اللغوية بل تعالج من أجل الدفاع عن مواقف شخصية أو اعتبارات مذهبية، وهذا خلاف ما يرومه البحث العلمي. فنحن نرغب في دراسة موضوعية بمنأى الدوافع الذاتية.

واستتباعا لذلك فإنّ المظاهر اللغوية التي يدرجها أصحاب التصحيح اللغوي في كتبهم التي تسمى كتب اللحن، باعتبار أن تلك المظاهر في نظرهم مما يجب إقصاؤه من المعجم، هي في الحقيقة نتاج تفاعل بين مستعمل اللغة وواقعه الاجتماعي يجيزه مبدأ التطور اللغوي، وتقره الدراسات اللسانية الحديثة. وتكتسب كتب التصويب منزلة خاصة في هذا المجال، فهي تعد من أهم مصادر التوثيق لما يطرأ على مفردات اللغة من معان وأبنية جديدة، وهو ما يمثل موضوع المعجم التاريخي لتكون بذلك تلك الكتب من أهم مصادر المدونة القاموسية التي تفيد في وضع المعجم المذكور.

قائمة المراجع:

1- المراجع العربية والمعربة:

1) ابن جني(أبو الفتح عثمان): الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، 19552000/(3أجزاء).

2) ابن درستويه (عبد الله بن جعفر): **تصحيح الفصيح**، تحقيق عبد الله الجبوري، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1975.

3) ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسين): جمهرة اللغة (**الجمهرة**)، دار العلم للملايين، بيروت، 1987.

4) ابن فارس (أحمد): **مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط3 مكتبة الخانجي، القاهرة، 1981(6 أجزاء).

5) ابن مراد(إبراهيم): - الفصاحة والتطوّر اللغوي(**الفصاحة**): درس مخطوط قدّم لطلبة شهادة علوم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس سنتي 1991- 1992 و1992-1993.

- المعجم العلمي العربي المختص(**المعجم العلمي العربي**) حتى منتصف القرن الحادي عشر الهجري؛ دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

6) ابن منظور(جمال الدين محمد بن مكرم): لسان العرب(**اللسان**)، دار صادر بيروت، 2000، (15جزءا).

7) الأسطى(عبد الله محمد): أبو عمرو بن العلاء اللغوي والنحوي (**أبو عمرو بن العلاء**)، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1986.

8) بعلبكي(رمزي منير): معجم المصطلحات اللغوية (انكليزي- عربي) (**معجم**)؛ دار العلم للملايين، بيروت، 1990.

9) حسان(تمام): - **اللغة العربية بين المعيارية والوصفية**، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1980.

– **الأصول**، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1981.

10) الخثران (عبد الله بن حمد): (مراحل تطوّر الدرس النحوي (**الدرس النحوي**)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993.

11) داغر (أسعد خليل): **تذكرة الكاتب**، المطبعة العصرية بالفجالة، مصر 1933.

12) الزيات (أحمد حسن): **الوضع اللغوي وهل للمحدثين حق فيه**، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، عدد8، 1955.

13) السيوطي (جلال الدين): – الاقتراح في علم أصول النحو (**الاقتراح**) تحقيق وتعليق أحمد محمد قاسم، مطبعة السعادة، القاهرة، 1976.

– بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (**البغية**)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار الفكر، 1979.

– المزهر في علوم اللغة وأنواعها (**المزهر**)، شرح وتعليق محمد جاد المولى بك ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت د.ت، (جزآن).

14) الشريف(محمد صلاح الدين): تطابق اللفظ والمعنى بتوجيه النصب إلى ما يدل على المتكلم (**تطابق اللفظ والمعنى**)، حوليات الجامعة التونسية، عدد 1999/43، ص ص7–92.

15) الشلقاني (عبد الحميد): **رواية اللغة**، دار المعارف، مصر، د.ت.

16) العدناني (محمد): معجم الأخطاء الشائعة (**الأخطاء الشائعة**)، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1989.

17) العوامري (أحمد): **بحوث وتحقيقات لغوية متنوّعة**، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المطبعة الأميرية، القاهرة، ج1 (1934) ص ص138–169، ج2

(1935) ص ص256-304، ج3 (1935) ص ص254-276، ج4 (1936) ص ص211-240.

18) الغلاييني (مصطفى): **نظرات في اللغة والأدب**، مطبعة طبارة، بيروت 1927.

19) الفيروزابادي: **القاموس المحيط**، دار الحديث، القاهرة، (4 أجزاء)، د.ت.

20) مجمع اللغة العربية بالقاهرة: - القرارات المجمعية في الألفاظ والأساليب من 1934 إلى 1987 **(الألفاظ والأساليب)**، أعدها وراجعها محمد شوقي أنيس وإبراهيم الترزي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1989.

- **المعجم الوسيط**، ط2، دار الدعوة، اسطنبول، 1989(جزآن).

21) اليازجي (الشيخ إبراهيم): - **لغة الجرائد**، جمعه وقدمه نظير عبود، دار مارون عبود، بيروت، 1984.

- **اللغة والعصر**، مجلة البيان، ج4 (1897)، ص ص145-150.

- **أغلاط العرب**، مجلة الضياء، م3/1900-1901، ص ص(449-454).

2- المراجع الأعجمية:

1) Chomsky (.N):-**Aspects** de la théorie syntaxique; trad: J.C. Milner,ed. Seuil, Paris,1971.

2) Dubois(J) et al**: Dictionnaire de linguistique** et des sciences du langage, Larousse, Paris, 1994 .

3) Frei (E): **La grammaire des fautes**, Geuthner, Paris ,1929.

4) Fromkin(V) et al**: An introduction** to language; 4th ed. Holt Rinehart and winston, London, 1988.

5) Guilbert(L) : **La créativité lexicale**, Larousse, Paris, 1975.

6) Hjelmslev(L): - **Le langague**; trad: Orsen.M, Minuit, Paris 1966.

- Essais linguistiques, Minuit, Paris, 1971.

7) Lerot(J): **Précis** de linguistique générale, Minuit, Paris, 1993.

8) Lyons(J): **Linguistique générale**: introduction à la linguistique théorique; trad:F.Dubois-Charle et D.Robinson, Larousse, Paris, 1970.

Martinet (A): **- Eléments** de linguistique générale ,3eme éd. Armand Colin, Paris, 1991.

- Fonction et dynamique des langues; Armand Colin, Paris, 1989.

9) Saussure (F.de): **Cours** de linguistique générale; Payot, Paris 1972.

الهوامش:

1 – ينظر: ابن مراد: الفصاحة ص ص 74–89، والمعجم العلمي، ص ص 84-103.

2– بدأت ملامح حركة التصحيح اللغوي فيما بدا لنا، منذ القرن الأوّل للهجرة مع أبي الأسود الدؤلي (ت69 هـ/681 م) بتنقيط المصحف خشية اللحن. ثم قوي اتجاهها بداية من القرن الثاني للهجرة. فمن أقدم المؤلفات في ذلك كتاب "ما تلحن فيه العامة" للكسائي (ت 189 هـ/805 م) و"إصلاح المنطق" لابن السكيت (ت 244 هـ/858 م) و"الفصيح" لأبي العباس ثعلب (ت 291 هـ/ 904م). واستمرّ هذا الاتجاه إلى اليوم. وهذا مسلك محمود في البحث اللغوي لأنه يضمن مراقبة ما يستجد في اللغة من مظاهر التطور.

3 – ينظر اليازجي: اللغة والعصر، مجلة البيان (1897–1898)، ص 149.

4 راجع اليازجي: لغة الجرائد، ص 11.

5– اليازجي: أغلاط العرب: مجلة الضياء م3 (1900-1901) ، ص 450

6 – العوامري: بحوث وتحقيقات لغوية متنوّعة، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد 2 1936، ص293.

7– نجد صدى هذا الموقف أيضا في بعض المعاجم القديمة التي تعبّر عناوينها عن ذلك مثل "تاج اللغة وصحاح العربية" للجوهري، وتهذيب اللغة للأزهري.

8 – أصدر مجمع اللغة العربية بالقاهرة كتابا في ذلك سماه: القرارات المجمعية في الألفاظ والأساليب ونشره سنة 1989. وقد ضمنه ما قبله مما شاع استعماله من المظاهر اللغوية المحدثة.

9 – راجع في ذلك مثلا قرارات مجمع اللغة العربية بالقاهرة التي نصّ عليها المعجم الوسيط في:12/1.

10 – الزيات: الوضع اللغوي وهل للمحدثين حق فيه، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد8 1955، ص 116.

11– المرجع نفسه، ص 111.

12 – نجد صدى هذا الاتجاه عند بعض النحاة القدامى كابن جني الذي توسع في القياس فذهب إلى أنّ ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب (الخصائص: 357/1). كما نجد صدى هذا الاتجاه أيضا عند بعض أصحاب المعاجم القديمة كابن منظور الذي ضمن معجمه المسمى "لسان العرب" ما احتوته أهم المعاجم الجامعة التي سبقته دون أن ينزع منزعا صفويا. وكذلك شأن الفيروزابادي في معجمه "القاموس المحيط" والمرتضى الزبيدي في "تاج العروس".

13 – محمد العدناني: الأخطاء اللغوية، ص10 .

14 – يراجع أيضا: بعلبكي: معجم، ص179.

15- Martinet : Elements, p.173

16 – لا يعني ذلك أنها مجرّدة من الجانب اللغوي. إلاّ أنّ هذا الجانب يتجلى من خلال التحديد اللساني لمفهوم الخطأ ذاته كما سنرى ذلك في الفقرة :5–2.

17 – ينظر: Fromkin et al: An introduction, p. 261, 288

18 – راجع: Dubois : Dictionnaire de linguistique, p.124 Martinet: Fonction, p.54 ;

19 – ينظر: De Saussure : Cours.p.106

20- Fromkin et al : An introduction, p.237

21 – من الجمل التي تتبدل فيها الأدوار الوظيفية لوحداتها دون تبل في التركيب، جملة من قبيل: "أنا بقيت مع أسرتي في بلدتي أثناء العطلة بينما سافرت أنت في رحلة إلى بلد أجنبي". فالملاحظ في هذه الجملة أن الوحدة "بينما" تحوّلت من دلالتها التقليدية وهي الظرف، إلى معنى محدث وهو معنى "خلافا".

22- Martinet : Fonction, p.53

23– Lynons : Linguistique générale , p.106,107.

24 – ينظر: De Saussure: Cours, p.107

25 – المرجع نفسه، ص 107.

26– ينظر المرجع نفسه، ص 135.

27 – راجع هذا المفهوم في: Lerot Précis, p. 333

28 - De Saussure: Cours, p. 38، وينظر الترجمة في: القرمادي وآخرون: دروس، ص 46.

29 – ينظر المرجع نفسه، ص 131.

30 – المرجع نفسه، ص 131.

31– ينظر المرجع نفسه، ص 104– 108.

32 – من القائلين بهذا التوقيف إبراهيم اليازجي. فقد ذكر أنّ "مزية العربي على المولد في أنه هو واضع اللغة وأنّ المولد مقلده فيها وأنه (المولد) ما دام منتحلا لهذه اللغة فهو مقيد بمتابعة الواضع. وكل ما خالفه فيه لم يعدّ من اللغة التي انتحلها ولاسيما بعد أن ختم على اللغة بخاتم القرآن والسنة وتعين الجري فيها على ما انتهت إليه زمن التنزيل والنطق بالأحاديث النبوية".(اليازجي: أغلاط العرب، مجلة الضياء: 3(1900–1901) ص450).

33 – ينظر: Chomsky: Aspects, p.12, 13, 23

34 – راجع:.De Saussure : Cours, p105

35 – المرجع نفسه، ص 105.

36 – المرجع نفسه، ص113.

37– ينظر: Guilbert: La créativité ,p.16

38 – ينظر ابن جني: الخصائص 1/97–98.

39 – ينظر: Chomsky : Aspects, p. 23

40 – راجع هذه الأقسام وتفاصيل ما أوردناه فيها في السيوطي: المزهر 1/214، 221، 233 240.

41 – ينظر السيوطي: المزهر 1/209، 224.

42 – ينظر ابن منظور: اللسان 14/223، مادة: ندر.

43 – نفرق هنا بين الشاذ عن القياس وهو ما خالف القاعدة. والشاذ عن الاستعمال وهو بالمعنى الذي حددنا.

44 – السيوطي: المزهر، 1/233.

45 – المرجع نفسه، 1/ 234.

46 – المرجع نفسه، 1/ 233.

47 – المرجع نفسه، 1/233.

48 – المرجع نفسه، 1/214.

49 – المرجع نفسه، 1/221–222.

50 – الحكم على لهجة من اللهجات بأنها لغة رديئة أو مذمومة هو حكم معياري لا نذهب إليه لأن الاختلافات النطقية بين مستعملي اللغة الواحدة لا تعد عيبا إذا كانت طبيعية.

51 – المرجع نفسه، 1/214.

52 – ابن جني: الخصائص، 1/54.

53 – السيوطي: المزهر، 1/240.

54 – ابن دريد: الجمهرة، ص 41.

55 – تمام حسان: الأصول، ص 45.

56 – راجع الخثران: مراحل الدرس، ص 231.

57 – السيوطي: الاقتراح، ص ص 201–202.

58 – المرجع نفسه، ص 201.

59 – ينظر: Guilbert : La créativité, p .49

60- Fromkin et al : An intoduction, p. 236.

61 – الشريف: تطابق اللفظ والمعنى، ص 16.

62 – ينظر: De Saussure : cours, p. 221

63 – السيوطي: بغية الوعاة، 1/497.

64 – الأسطى: أبو عمرو بن العلاء، ص 155.

65 – السيوطي: الاقتراح، ص 201.

66 – ابن درستويه: تصحيح الفصيح، ص111؛ ينظر أيضا: ابن مراد: الفصاحة، ص 42.

67 – ابن درستويه: تصحيح الفصيح، ص110.

68 – نفرق هنا بين نشأة النحو كاتجاه عام في اللغة وبين مراحل تأسيس القواعد اللغوية. فالنحو حسب ما تذكره الروايات، بدأ ظهوره مع أبي الأسود الدؤلي (ت 69 هـ/681م). وكان الاهتمام فيه متجها إلى مقاومة اللحن. أما بناء القواعد فقد بدأ كما ذكرنا مع ابن أبي إسحاق الحضرمي (راجع الخثران: الدرس النحوي، ص ص 71–76).

69 – ينظر ابن جني: الخصائص، 1/111–113

70 – ينظر السيوطي: الاقتراح، ص 101.

71 – ينظر:

Lerot : Précis, pp. 333-334.

72- ينظر ابن جني: الخصائص، 3/ 98

73 - المرجع نفسه، 12/2.

74 - المرجع نفسه، 357/1.

75 - الشلقاني: رواية اللغة، ص 322.

76 - راجع ابن جني: الخصائص، 360/2.

77 - ينظر: Lyons : Linguistique générale, pp. 30-31

78 - ينظر: De Saussure : Cours, pp. 222-224

79 - ينظر: Lyons : Linguistique générale, p. 32

80 - De Saussure: Cours, p. 233.

81 - ينظر: Frei: LA grammaire des fautes, p. 18

82 - ابن فارس: مقاييس اللغة، 239/5.

83 - راجع ابن جني: الخصائص، 97/1-98.

84 - يعد المستوى الرابع وهو الشاذ في القياس والاستعمال جميعا مظهرا لغويا مقبولا لورود شواهد نقلية فيه (راجع ابن جني: الخصائص 89/1-99 و261/1).

85 - اقتبسنا هذا الجدول بتصرف عن تمام حسان: الأصول، ص 182.

86 - يتجلى ذلك في ظاهر مذهبه في كتابه "الخصائص"، 40/1-41.

87 - تمام حسان: المعيارية والوصفية، ص 20.

88 - ثبات اللغة في قواعدها وبناها ومعاني ألفاظها هو مذهب القائلين بالتوقيف الزماني والمكاني والقائلين بأنّ اللغة وحي وإلهام.

89 - راجع: Frei : La grammaire des fautes, p. 18

90 - المرجع نفسه، ص ص 18-19.

91 - المرجع نفسه، راجع: ص 9-18-19.

92 - Hjelmslev: Essais, pp. 88-89.

دراسة في المعاجم المختصة
-معجم الأساطير أنموذجا-

أ.نبيل حويلي
جامعة أمحمد بوقرة – بومرداس-

مقدّمة: إنّ مادة عجم مصطلح مستحدث ظهر بعد الإسلام حين امتدّ ظله، وعمّ نوره مساحات شاسعة من الأرض، وحين أسرع كثير من الأعاجم يدخلون فيه أفواجاً، يلتمسون الهداية، ويبغون الخير وحين أقبلوا – وهم الغرباء عن اللّسان العربي – على دراسة لغة القرآن تعسّر عليهم ذلك وكان لزاماً عليهم الاجتهاد من أجل بلوغ ذلك، لتكون المعاجم سبيلاً إلى ذلك.

إنّ تطوّر العلوم والتّقنيات وزيادة سرعة الاكتشافات والاختراعات أمور أدت إلى تطور المعاجم لتسلك مسارات اختصاصية لسانية منها وأدبية. ومما لا ريب فيه أن المعجم هو ذلك الكتاب أو المؤلف الذي يضم بين طرفيه أو دفتيه مفردات لغة معينة ومعانيها ضف إلى ذلك استعمالاتها في التراكيب المختلفة وكيفية نطقها وكتابتها، وتكون مرتبة وفق نظام معين وضمن تقنيات عديدة، متنوعة، دقيقة ومحكمة. بينما تحاول المعاجم المختصة أن تنفرد بموضوعات خصوصية غير عامة. ويحاول الأدب الشعبي بقيادة مجموعة من الدارسين اللغويين النياسيين أن يضعوا معاجم مختصة في مجالات الفولكلور والتراث والثقافة الشعبية والأساطير،...

وسوف أسعى من خلال هذه الدراسة تبيان خصائص المعاجم المختصة معتمدا في ذلك على معجم الأساطير للمؤلفين: "ماكس شابيرو" و"رودا هندريكس" ترجمة: "حنا عبود" إصـــدار: دار عـــلاء الدين للنشر والتوزيع، الطبعة: 3

دمشق، 2008. ومن خلال هذه الدراسة سأحاول الإجابة عن مجموعة من التساؤلات أهمها: ما هي خصائص المعاجم المختصة في الأدب الشعبي؟ ما الذي يميزها عن غيرها من المعاجم الأخرى؟ ماذا يمكن أن تقدمه للأدب الشعبي؟ ما مدى استفادة الباحث في الأدب الشعبي من المعجم المختص؟

المنظومة الاصطلاحية: يصنّف اللسانيون المحدثون مباحث علم المعجم صنفين كبيرين: الأوّل نظري، ويمكن تسميته "المعجمية النظرية" أو "علم المفردات" لأنّ مبحثه الأساسي هو الألفاظ. والصنف الثاني تطبيقي ويمكن تسميته "المعجمية التطبيقية" ثمّ إنّ للتأليف المعجمي تصنيفا آخر، بحسب التعميم والتخصيص.[1]

1- المعجم المختصّ:

1.1 مادة عجم: إنّ مادة "عجم" في أصل إطلاقها تفيد الإبهام وعدم البيان وفسّرها كتاب العين فقال: «العجم ضدّ العرب، ورجل أعجمي ليس بعربي من قوم عجم، والأعجم الّذي لا يفصح، وامرأة عجماء بيّنة العجمة، والعجماء كل دابة أو بهيمة،...»[2] إنّ الباحث عن معنى لفظ لا بدّ من تجريده من زوائده والبحث عن:(العين، الجيم، الميم) = عجم. والكلمة على هذا الوضع تفيد الإبهام والخفاء ولقد أشار إلى ذلك "ابن جني" في كتابه "سر الصناعة" ومن ذلك قوله: «رجل أعجم، وامرأة عجماء، إذا كانا لا يفصحان، ولا يبينان، والأعجم: الأخرس وهكذا،...».[3] إنّه كلام لا يساير المقصود من المعجم، لأنّ المراد منه إزالة الغموض عن الألفاظ، وكشف الإبهام عن الكلمات ولعلّ هذا المعنى قد استفاد من دخول الهمزة على الفعل، على أن يكون المراد منها الإزالة، نحو: أشكيته أي أزلت شكواه، ومنه: يكون المقصود من أعجمته أزلت عجمته.

2.1 مفهوم المعجم: كتاب يضمّ ألفاظ لغة معيّنة وتكون مرتبة وفق نظام معين وضمن تقنيات عديدة، متنوعة دقيقة، محكمة، مشروحة شرحاً يزيل إبهامها ومضافاً إليها ما يناسبها من المعلومات الّتي تفيد الباحث، وتعين الدّارس على

الوصول إلى مراده.[4] ويضيف عبد السّميع محمد أحمد قائلاً: «إنّ المعجم لون من ألوان الكتب اللّغوية، ترتّب أبجدياً حسب حروف الهجاء أي حسب الحروف المعجمة، ويؤدي وظيفة هامة، إذ يعين الباحث على التّعرف على اللّفظة ويشرح له مدلولها، أو تيسّر له وسيلة العثور على مجموعة من الألفاظ يجمعها موضوع واحد».[5]

3.1 مفهوم المعجم المختص: لقد شاعت المعاجم المختصّة نظراً لحاجة النّاس إليها، ولم تكن معروفة إلا بين جمهور ضيق من المختصين في العلوم والفنون. إنّ المعجم المختص بصورة عامة هو كتاب يتضمّن رصيداً مصطلحياً لموضوع ما مرتّباً ترتيباً معيّناً، ومصحوباً بالتعريفات الدّقيقة الموجزة، وعادة ما يكون مصحوباً أيضاً ببعض الوسائل البيانية المرافقة (كشافات، سياقات، صور، جداول،...) الّتي تساعد على توصيل المفهوم إلى المتلقي بأفضل صورة ممكنة. ويعنى المعجم المختص بمصطلحات موضوع خاص (فيزياء، أدب، طب، فضاء، نبات جيولوجيا،...إلخ).[6]

4.1- المعجم العلمي العربي التّراثي المختص: تضمّنت حركة التأليف المعجمي في التّراث العربي القديم إعداد المعاجم العلمية المختصّة تحت تأثير التطوّر اللّغوي وحركة الترجمة والتأليف في قرون سالفة. إنّ أهمية هذا الضّرب من التأليف المعجمي المختص تعود إلى طريقة تبويب الألفاظ، وإلى طبيعة المعجم الّذي يضمّ مجموعات من المفردات بحسب حقولها الدلالية، ووحدة حقول المفاهيم الّتي يدعو إليها علماء المصطلح المحدّثون. وقد اتّخذت المعاجم مصادر أصيلة في تأليف المعاجم المختصة فيما بعد، مما يستدعي ضرورة التعمّق في هذا النّوع من المعجمات، نظراً لاشتمالها على حقول لفظية وعلى جانب كبير من الدّقة والوعي بفكرة الدّلالة والمفهوم.[7]

2- الفرق بين المعجم العام والمعجم المختصّ: يوجد بين المعجم العام والمعجم المختص بعض الفروق الأساسية، يمكن حصرها كما يلي:

- يُبنى المعجم العام على رصيدٍ لغويٍّ مستقر وهو الّذي دوّنته المعاجم القديمة في الغالب بينما يُبنى المعجم المختص على رصيدٍ مصطلحيٍّ متولد باستمرار لأنّه يواكب ما يتولد في اللّغة من مصطلحات دالة على الجديد من المفاهيم والأشياء.[8]

- ينطلق المعجم العام والمعجم المختص في جمع مادتيهما المعجمية من مصادر، فأمّا المعاجم اللّغوية العامة فإنّ أمر المصادر فيها هين سهل لأنّ بعضها ينقل بعضاً، في حين يبدو أنّ أمر المصادر فيها عسير، فهي –في معظمها– معاجم ثنائية اللّغة أو متعدّدة اللّغات قائمة على ترجمة مصطلحاتٍ علميّةٍ، أدبيّةٍ، فنّيّةٍ، من لغة مرجع.

- تمثيل المعجم العام كلّ فروع المعرفة دون التعمّق في جمع ألفاظها، فيما يعالج المعجم المختص قسماً واحداً منها.

- خدمة المعجم العام معظم القراء والمهتمين، بينما يستهدف المعجم المختص قارئاً بذاته[9] كما في معجم الأساطير ويكون بصيغة أكثر تعمّقاً وأكثر تفصيلاً.

- يقوم كلا المعجمين على أسّين: أولهما هو الترتيب، وثانيهما هو التّعريف. وهذان الأسّان هما اللّذان يحدّدان هوية المعجم الحقيقية. إذ لا يمكن للمعجم أن يشتمل على مداخل غير مرتّبة بأيّ ضرب من التّرتيب المنهجي الّذي يشاء المؤلف، وغير معرفة بحسب ما تقتضيه الوحدات المعجمية من تعريف.[10]

3- القسم الدراسي:

1.3- ملخص معجم الأساطير: إنّ هذا الكتاب رحلة استكشاف في مجاهل الفكر الأسطوري البشري، وبحث عميق في مكنوناته ودلالاته، فيرصد بشكل علمي دقيق أشهر الأساطير لدى معظم الشعوب ويتناول آلهة العرب، المكسيك وأربابها

وأساطير اليونان والرّومان والمصريّين، وميثولوجيا الشرق الأدنى والميثولوجية الهنديّة والأفريقيّة واليابانيّة والأستراليّة والصينيّة، وغيرها،... كما يلقي الضوء على أشهر الشّخصيات الأسطورية، وأبطال الملاحم والسير الشعبية.[11] إنّها خلاصة مضمون هذا المعجم ولا بأس في البداية أن نقدّم تعريفاً وافياً لكلمة الأسطورة:

2.3- تعريف الأسطورة: إنّ الأسطورة هي ذلك النّوع الأدبي الّذي يعود إلى أزمنة سحيقة للتّاريخ، وهي حكاية مقدّسة تقليدية تنتقل من جيلٍ إلى آخر بالرّواية الشفويّة[12]، ويرادف كلمة: أسطورة كلمة "ميثوس" عند الإغريق وتعني حكاية أو قصّة.[13] وهي نظام فكري متكامل، يسعى الإنسان من خلالها تفسير الظواهر الّتي يطرحها محيطه، واستوعاب قلقه الوجودي.[14] والأمر نفسه ذهب إليه "ميرسيا إلياد" عندما أشار إلى الظواهر التفسيرية الّتي تذهب إليها الأسطورة.[15] أمّا نبيلة إبراهيم فتخلص إلى أنّ الأسطورة وسيلة للتعبير عن النوازع والمشاغل الدّاخلية عند الإنسان القديم.[16] يقول "أندري يولس": «إنّ الأسطورة عملية عقلية يقوم بها الذّهن لإدراك المعاني المجرّدة وتكوينها، إنّها محاولة تفسير ظواهر الحياة وترتبط بكلّ ما هو قدسي وديني وتقوم على الخيال، ووصف الآلهة وأنصاف الآلهة».[17] بينما يرى "كلود ليفي ستراوس" بأنّها نزال جرى في الزّمن الغابر لا يمكن أن نتصوّر قدمه بين الآلهة والبشر.[18] فيحين جعلها "جيمس فرايزر": فلسفة الإنسان البدائي لازمت الإنسان في فترة من الفترات[19]، ويضيف "مالينوفسكي" للأسطورة جديّتها وابتعادها عن الهزلية والسّخرية.[20]

3.3- طريقة تفسير الكلمات:

1.3.3- اعتمد المترجم في تفسير الكلمات الأصلية للمعجم على النّقل الحرفي للمعاني، الأمر الّذي خلق نوعاً من الخلل في أكثر من مرّة، فمثلاً: تمّ الخلط بين مصطلحات الأسطورة والسّيرة.

2.3.3- اعتمد أيضاً على التفسير بالترجمة، وهذا النّوع من التفسير يكون بذكر المرادف الذّي يكون كلمة واحدة من اللّغة نفسها. ويشتمل التفسير بالترجمة على نوعين من التفسير: تفسير اللّفظ بلفظ آخر يرادفه.

3.3.3- تفسير اللّفظ بأكثر من لفظٍ.[21]

4.3.3- استعان بمرادفات كثيرة لتحديد معنى الكلمة الواحدة، مثل كلمة "أسطورة" الّتي وُرد مرادفها أكثر من مرّة فتارة: ميثولوجيا وتارة أخرى: ليجندة أو حكاية أو قصّة. إنّ طبيعة المعنى أن يكون متعدداً ومحتملاً، وهاتان الصفتان من صفات المعنى تقوم كل منها على الأخرى، فإذا تعدّد معنى الكلمة المفردة حال انعزالها، تعددت احتمالات القصد ومن ثمّ تعدد احتمالات القصد يعتبر تعدداً في المعنى. والّذي لا يجب ألاّ يغيب عن أذهاننا دائما أنّ الكلمة في المعجم لا تفهم إلا منعزلة عن السّياق، وهذا هو المقصود بوصف الكلمات في المعجم بأنّها مفردات على حين توصف هذا الوصف حينما تتواجد في النّص.

5.3.3- يحتوي المعجم المختص في الأساطير كل أصناف المفردات، مع وضع إشارات تميّز كل صنف منها حتّى لا يضل الناشئ في تمييز أنواع المفردات.

6.3.3- يقوم معجم الأساطير عند وضع أسماء الأساطير أو الشّخصيات، مع مراعاة توضيحها توضيحاً قويّاً يدفع لبسها ويزيل غموضها الأمر الّذي يحقّق الغرض من هذه المعاجم.

7.3.3- استعان صاحبا المعجم "ماكس شابيرو" و"رودا هندريكس" بالترتيب الألفبائي للموضوعات، ويتّخذ الترتيب الألفبائي أكثر طرائق الترتيب المعجمي شيوعاً في العصر الحديث سواء كانت هذه المعاجم أحادية اللّغة أو متعدّدة. وقد يكون الترتيب الألفبائي عربياً إذا كانت مداخل المعجم المختص بالعربية، أو أجنبياً إذا كانت مداخله بلغة أجنبية. ويرجع شيوع هذا النّوع من التّرتيب إلى سهولة استعماله وذلك بمراعاة حروف المصطلح كلّها سواء أكان مفرداً أو مركباً، وإلى اليسر الّذي يمنحه في ترتيب المصطلحات المعرّبة والدّخيلة، جنباً إلى جنب مع المصطلحات العربية الّتي يلاقي ترتيبها بطريقة الجذور مشكلات كثيرة معروفة.

وتوفّر معجم الأساطير على فهرس مفصّل وعلى مصادر الاستشهاد مع إيراد بعض السّياقات الاستعمال والتوظيف، وكلّ هذا يتيح للقارئ العثور بيسرٍ على الشواهد الّتي هو في حاجة إليها. وسأقوم باستعراض نماذج من المعجم معتمدا على هذا الترتيب وسأخصص لكلّ حرف أسطورة مع مراعاة شهرتها العالمية وحيّزها الجغرافي.

Adonis :A/

"أدونيس" ربّ الإنبات والخصب عند الفينيقيين، وانتشرت عبادته في حوض البحر المتوسط وكان يعرف عند البابليين الإله "تموز" وعند المصريين "أوزريس".[22]

B/Bali:

"بالي" ظل ملك السّماء والأرض يسكن قرب النّهر[23] ويعني في اللّغة العربية الشّيطان.

C/ Callisto :

"كاليستو" أم "أرغاس" من "زيوس" الذّي حوّلها إلى كوكبة الدّب الكبر ليحميها من غضب "هيرا".[24] وتدخل التحولات ضمن الأساطير ولقد جمع أساطير التحوّل الأديب اللاتيني "أفيد" في كتابه الّذي يحمل العنوان نفسه.[25]

D/ Devi :

"ديفي" أم آلهة الهند تظهر على أشكال مختلفة[26] ولقد ورد ذكرها في "الفيدا" كتاب الهند المقدّس، زوجة شيفا كانت تستحم في بركة من الحليب لتحافظ على جمالها.[27]

E/ Ea :

"إيا" ربّ أكادي للأنهار والينابيع وسائر المياه. ابن "أنشار" من "كيشار" كان يسميه السومريون "أنكي"، كان الإله الأكبر للحدادين والنجارين، ربّ الحكمة الّذي انبثق من "أبسو" وكان يمتلك سلطان النبوءة والوحي.[28]

F/ Feng-tu :

"فنغ تو" المدينة الأساسية للجحيم، تمتلك ثلاثة معابر تؤدي إلى ثلاثة أبوابٍ الأوّل منها من ذهب والثاني من الفضّة والثالث من البرونز، إنّها أبواب الأرواح الطّاهرة.[29]

G/ Gilgamesh[30]:

ملحمة تروي أعمال البطل "جلجامش"[31] وهو نصف إله حكم بلاد سومر وجدت ملحمته في اثني عشر لوحاً في مدينة النينوى ببابل، بحث عن الخلود ولم يجده وأدرك أنّها صفة الآلهة.

H/ Hercules :

"هرقل" أشهر أبطال الميثولوجيا الإغريقية عرف بشجاعته وبسالته، كانت أمه أجمل النّساء على الإطلاق وأبوه ربّ الأرباب "زيوس"، وكانت زوجة أبيه "هيرا" تكنّ له الكره والحقد وكانت تلاحقه من أجل القضاء عليه. حقّق "هرقل" انتصارات ساحقة الأمر الّذي جعل الآلهة تنوّه بانتصاراته.[32]

I/ Isis :

"إزيس" ابنة "جيب من نوت" وأم "حورس" وأخت الإله "أوزيريس" وزوجته الّتي جمعت أعضاءه وأعادته إلى الحياة بقوّتها المحيية، وهذا بعد أن قتله "سيت".[33]

J/ Jupiter:

"جوبتر"ملك آلهة روما إنّه ربّ النّور والسّماء والبرق والعواصف ويسمّى أيضا "جوف"[34]

K/ Khonvum:

"خونفوم" الإله الأكبر لشعب البغمي وحاكم الغابات والحيوانات البريّة ويعتمد في ذلك على قوس قزح، وتتلقى الشّمس نوره كلّ صباحٍ عندما يرميها بشذرات النّجوم.[35]

L/ Lancelot :

"لنسلوت" أشهر فرسان الملك "آرثر"، حبّه للملكة "جنيفر" دفعه إلى عدّة أعمال بطولية عظيمة، لكن علاقته المحرّمة بها أدّت إلى فشله في الحصول على الكأس المقدّسة.[36]

M/ Machu-Picchu :

"ماتشو–بيتشو" إحدى المدن الكبرى في الأنكا القديمة، تقع خرائبها في أعلى قمّة جبال الأنديز في البيرو. بُنيت لتكون قلعة بأسوار حجرية دفاعية، وتحوي على معابد وقصور ومنازل.[37]

N/ Niflheim :

"نيفلهيم" في المعتقدات الأوروبية هو العالم السفلي حيث تذهب نفوس الموتى يقع شمال دير الفضاء، وهو إقليم جليدي ضبابي ينبع منه اثني عشر نهراً.[38]

O/ Odin :

"أودن" كبير آلهة اسكندنافيا، ربّ الحرب والسّحر والشّعر، جعل الشّمس والقمر في مدارهما وخلق الرّجل الأول والمرأة الأولى ووهب لهما الحياة.[39]

P/ Poseidon :

"بوسيدون" ربّ البحر وأحد الاثني عشر آلهة الألمب، يسكن قاع البحر مع ملكته "امفرتيت" وابنهما "تريتون".[40]

Q/ Qat :

"كات" بطل أسطوري في جزر البانك، قيل أنّه خلق من الطوفان الإنسان الأوّل والمرأة الأولى، وقد بثّ فيهما الرّوح والحياة عن طريق الرّقص وقرع الطبول.[41]

R/ Ra :

"رع" ربّ الشّمس وإله كبير في المعتقدات المصرية. مركز في هليوبوليس كان يُطلق عليه فيما مضى "أتوم" سيّد العالم وخالقه.[42]

S/ Supay :

"سوباي" ربّ الموتى في الميثولوجيا الإنكية، يحكم على الأرواح وجعل القرابين الّتي تُقدّم له من الأطفال الصّغار ليجعل مملكته آهلة بالسّكان.[43]

T/ Thunderbird :

"طائر الرّعد" وهو طائر أسطوري هائل يشبه النّسر، ويعتقد هنود أمريكا الشمالية أنّه الرّوح الّتي تسبّب البرق والرّعد وهو الّذي يجلب المطر لمحاصيلهم.[44]

U/Upangas :

"أوبنجاس" إحدى مجموعات الفيدية الهندية المقدّسة، وهي مصدر للأساطير والملاحم.[45]

V/ Vritra :

"فريترا" غول ضخم وذو قوّة وبسالة، متعطّش للغيوم الماطرة والمياه العذبة.[46]

W/ Wen Cang:

"ون تشانغ" ربّ الأدب في إمبراطورية الصّين القديمة، وغالبا ما كان يجلس وفي يدّه كتاب.[47]

X/ Xiuhtecutli :

"هيتوتيكوتلي" ربّ النّار وحاكم شمس الكون، يقبل الضحايا الحيّة الّذين يُلقون في النّار.[48]

Y/ Yang-ku :

"يانغ كو" في المعتقدات الكورية، واد يقع في الشرق حيث تعيش عشر شموس مع أمهنّ.[49]

Z/ Zeus :

"زيوس" ملك آلهة اليونان والحاكم الأعلى للسموات والبشرية، يقرّ بكلّ الأمور والقضايا.[50]

4- الاحتكاك اللّغوي:

يُعرف بقانون التأثر والتأثير بين اللّغات، وعرّفه عبده الراجحي قائلاً: «إنّه التّطور الّذي ينشأ عن التقاء لهجات مختلفة فيحدث بينهما ما يحدث دائماً من تأثر وتأثير، وقد ينشأ بينها ظواهر لغوية جديدة لم تكن موجودة في هذه اللّهجة أو تلك»[51]ونظراً للالتقاء الكثيف للّهجات العالمية داخل معجم الأساطير كان لزاماً على صاحبي المؤلف توحيد نمط الدّراسة، الأمر الّذي أحدث نوعاً من التأثر والتأثير بين مفردات من لغات مختلفة: الإنجليزيّة، اللاّتينية، الاسكوندنافية السّومريّة الأكاديّة، الأشوريّة، العربيّة، العبريّة، المصريّة، اليابانيّة، الصّينيّة، الكوريّة الهنديّة، المكسيكيّة، وغيرها من اللّهجات الأمريكيّة والأفريقيّة والأوروبيّة والأسيويّة والأسترالية.

مستخلصات البحث: من مستخلصات العرض ما يلي:

- لقد كان هدفنا من خلال هذه الدراسة المتواضعة، أن نبيّن خصائص المعجم المختص الّذي ما يزال في حاجة إلى التطوير حتّى يستجيب لحاجات العصر، وتحقيق ذلك رهين بالانفتاح على تجارب الأمم المتقدّمة في ميدان المعاجم المختصّة، واستثمار كل المعطيات من أجل المساهمة في تحقيق هذا الهدف.

– إنّه ليس من السّهل وصف مقدار الصّعوبة الّتي يعانيها الجامع، بسبب سعيه الدؤوب للحفر والغور في دهاليز الكتب والمراجع وتشتت المصادر، لذا نرى أنّه من اللاّئق إقامة معجم موحد في التّراث الشّعبي أو الفولكلور عموما، لأنّ أغلب المصادر والمعاجم تنتمي إلى الدّراسة الغربية.

– ضرورة توسيع فئة المهتمين بالمعجم المختصّ والتنبيه إلى أهميته في تنمية المجهود العلمي العربي، التّراثي، الفولكلوري.

– يتيح المعجم المختص لمستعمليه استحضار واستذكار الدرر التّاريخية والجغرافية، والثقافية والاجتماعية، بالإضافة إلى العادات والتقاليد والطقوس الّتي يزخر بها تراثنا.

– ضرورة إقامة معاجم مختصة تضمّ في طرفيها أو دفتيها أشكال التّعبير في الأدب الشّعبي (الأساطير، الألغاز، الحكايات العجيبة، الأمثال، السّير، النّكت الملاحم) كما أدعو اللّغويين والأنياسيين معاً إقامة معجم يضمّ أسماء الأولياء الصّالحين، الّذين تتواجد أضرحتهم بصفة كبيرة في شمال أفريقيا، وهي إن كانت مجرّد توصية إلاّ أنّها تستحقّ المحاولة.

الإحالات:

1– إبراهيم بن مراد، المعجم العلمي العربي المختص، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت 1993، ص 5.

2– عبد السّميع محمد أحمد، المعاجم العربية (دراسة تحليلية)، دار الفكر العربي، ط2، القاهرة 1974، ص 16.

3– ينظر: المرجع نفسه، ص 5.

4 – نفسه، ص 5.

5– ينظر: عبد السّميع محمد أحمد، المعاجم العربية (دراسة تحليلية)، ص ص17–18.

6- جواد حسني سماعنه، المعجم العلمي المختصّ (المنهج والمصطلح)، مجلة اللّسان العربي العدد: 48، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم\مكتب تنسيق التعريب، الرباط، كانون الأوّل 1999، ص36.

7- المرجع نفسه، ص ص 36-37.

8- إبراهيم بن مراد، أسس المعجم المختص اللّسانية، المجلة السابقة، ص 202.

9- جواد حسني سماعنه، المعجم العلمي المختصّ(المنهج والمصطلح)، ص 36.

10 - المرجع نفسه، ص 41.

11- ماكس شابيرو ورودا هندريكس، معجم الأساطير، تر: حنا عبود، دار علاء الدّين، ط3 دمشق، 2008.

12- ينظر: سلسلة عندما نطق السراة، الأسطورة توثيق حضاري، كيوان، ط1، دمشق، 2009 ص 20.

13 - ينظر: وديع بشور، الميثولوجية السورية وأساطير أرام، بالمير، ط3، اللاذقية، سوريا د ت، ص ص3 -12.

14- ينظر: فراس السواح، مغامرة العقل الأولى (دراسة في الأسطورة سوريا وبلاد الرافدين) دار الكلمة للنشر، ط1، بيروت، 1980، ص ص15-16.

15- Voir : Mercea Eliade, la nostalgie des origines (Méthodologie et histoire des religions), Gallimard, Paris, 1971, p 22.

16 - نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب، د ط، القاهرة، د ت، ص 25.

17- Voir : André Jolles : Formes simples, traduction : Antoine Marie Buguet, Seuil paris, 1972, p 77.

18- Voir : Claude Levi Strauss : Anthropologie structurale deux, Plon, Paris, 1973, P 301.

19- Voir : James George Frazer : Mythes sur l'origine du feu, traduction : Michel Drucker, Payot, paris, 1967, p 6.

20- Voir : Bronislaw Malinowski, La vie sexuelle des sauvages (Nord-Ouest de la Mélanésie), traduction : S. Jankélévitch, Payot, 2000, p 283.

21- مجدي إبراهيم محمّد إبراهيم، بحوث ودراسات في علم اللّغة، مكتبة النّهضة المصرية، د ط القاهرة، د ت، ص 146.

22- ماكس شابيرو ورودا هندريكس، معجم الأساطير، ص 26.

23- المعجم نفسه، ص 27.

24- نفسه، ص 68.

25- Ovide, Les métamorphoses, Castor Poche, Paris, 2003.

26- المعجم نفسه، ص 85.

27- Le Véda, premier livre sacré de l'Inde, Tome 1, Marabout, Verviers, Bélgique 1967, p 171.

28 – المعجم نفسه، ص 89.

29– المعجم نفسه، ص 99.

30 – نفسه، ص 107.

31– سندارس، ملحمة جلجاميش، تر: محمد نبيل نوفل وفاروق حافظ القاضي، دار المعارف القاهرة، 1960، ص ص 79– 87 .

32 – المعجم نفسه، ص 119.

33 – نفسه، ص 136.

34 – نفسه، ص 141.

35 – نفسه، ص 146.

36 – نفسه، ص 155.

37 – نفسه، ص 163.

38 – نفسه، ص 184.

39 – نفسه، ص 189.

40 – نفسه، ص 213.

41 – نفسه، ص 219.

42 – نفسه، ص 221.

43 – نفسه، ص 240.

44 – نفسه، ص 252.

45 – نفسه، ص 265.

46 – نفسه، ص 271.

47 – نفسه، ص 273.

48 – نفسه، ص 275.

49 – نفسه، ص 277.

50 – نفسه، ص 281.

51 – ينظر: مشتاق عبّاس معيــن، المعجــم المفصل في فقه اللّغة، دار الكتب العلمية، بيروت ط 1، 2001، ص 35.

دراسة في الرّصيد اللّغوي لكتب اللّغة العربية للمرحلة الابتدائية*
مفردات المدرسة والتّعليم أنموذجا

أ. الجوهر مودر
جامعة مولود معمري، تيزي–وزو

الموضوع وإشكاليته: تندرج هذه الدّراسة ضمن مشروع دراسة الأرصدة اللّغوية الخاصّة بمختلف أطوار التّعليم، وما يطرحه مشكل اختيار المادّة اللّغوية والعلمية التي يحتاج إليها المتعلّم، والتي ينبغي أن تستجيب لمتطلبات حياته من جهة، وللأهداف التي سطّرتها السّياسة التّربوية في بلادنا من جهة ثانية[1]، كما إنّها امتداد للعديد من الدّراسات التي تناولت بالتّقييم الكتب المدرسية، ووقفت عند رصيدها اللّغوي، وأخصّ بالذّكر دراسة تناولنا فيها المفردات التي تشكّل مفهوم المواطنة، وموضوع المواطنة أدرج في المناهج المدرسية، والهدف منه هو إعداد الطّفل «إعدادا يؤهّله للعيش كمواطن صالح يشعر بانتمائه الوطني، ويعي التزاماته كفرد يساهم في بناء مجتمعه، وعضو يمارس ما له من حقوق ويؤدّي ما عليه من واجبات، ويتشبّع بالقيم الوطنية، ويتفتّح على القيم العالمية، ويتكيّف مع الوضعيات ومواجهة المشاكل التي تعترضه»[2] وبما أنّ المدرسة هي المؤسّسة التي يتعيّن عليها إكساب النّاشئة هذه القيم إلى جانب إكسابهم العلوم، أردت معرفة:

- كيف يمثّل الرّصيد اللّغوي الذي يشكّل محتوى الكتب المدرسية معنى المدرسة؟

- وكيف يتمّ تعريف طفل المرحلة الأولى من التّعليم على هذا المحيط الجديد؟ وكيف يتمّ تقريبه منه؟
- وما هي الصّورة التي تعكسها المفردات عن المدرسة الجزائرية الحديثة؟
- وهل تتوفّر على استراتيجيات ملائمة لتحقيق تكوين عصري لأبنائنا يجعل منهم أجيالا قادرة على رفع التّحديات؟

وإذا كان الهدف من كلّ دراسة تتناول المادّة التعليمية هو السّعي للوقوف على مواقع الخلل لإصلاحها، فإنّني أروم هنا معرفة الأسباب التي أدّت إلى هشاشة علاقة التّلميذ بالمدرسة، وكي أبرّر هذا الوصف؛ يكفي أن أستحضر صورة مؤسّساتنا في آخر السّنة الدّراسيّة، إذ كيف نفسّر سبب تمزيق أغلب التّلاميذ لكراريسهم عقب الامتحانات؟ وإذا فسّر بعضهم هذه الظاهرة (أو هذا السّلوك) مجرد تقليد التّلاميذ بعضهم البعض، فذلك عندي غيرُ كافٍ، إذ لو كان الأمر كذلك لشاع؛ أيضا؛ سلوك القلّة منهم (وهم من النّجباء) الذين يحترمون كلّ ما له علاقة بالعلم، وعليه أردت البحث في طبيعة المفردات التي تشكّل متن الكتب المدرسية لعلي أقف على الخِلل التي يمكن أن تعزى إليها بعض السّلوكات السّلبية لدى التّلاميذ.

مقدّمة: يعتبر دخول الطّفل المدرسة أهمّ حدث في حياته، بل هو ميلاد جديد يلج من خلاله إلى أسرة ثانية، ليندمج مع أفرادها الذين يشكّلون ــ أساسا ــ أعضاء هذه المؤسّسة، أين يفترض أن يُكوّن الطّفل (التّلميذ) مع أقرانه روابطَ الحبّ والمودّة والصّداقة، وهي امتدادٌ لتلك التي تجمعه مع أفراد أسرته، بل تتعدّى المدرسةُ الأسرةً من حيث الأهميّةُ، لأنّ دورها لا يقتصر في نسج هذه الرّوابط أو في تعلّم القراءة والكتابة والعلوم فحسب؛ بل تعلّمه كذلك كلّ مستلزمات الحياة الاجتماعيّة، والثّقافية، وذلك بترسيخ القيم الإنسانيّة والأخلاق الكريمة[3]، وتنمية المهارات التي تجعل منه فردا سويّا، وكلّ هذا يجعل من المدرسة مؤسسة تربويّة

متكاملة يستلزم التّفاعل الإيجابي بينها وبين المجتمع. ومن هذا المنطلق سأحاول دراسة الرّصيد الخاص بالكتب المدرسيّة باعتبارها أهم الوسائل التّعليمية التي يتعامل معها الطّفل منذ المراحل الأولى من التّعليم، مقتصرة على مفردات المدرسة والتّعليم لمعرفة الصّورة التي يعكسها الرّصيد اللّغوي عن المدرسة أيلخّصها في مجموعة من الهياكل الماديّة والبشرية، أم يمثّلها في الوظائف والأدوار التي وجدت لأجلها. وقد ارتأيت قبل تناول مفردات الرّصيد الوقوف أوّلا عند محاور كتب اللغة لنعرف مدى حضور هذه المؤسّسة.

حضور موضوع المدرسة والتّعليم في كتب اللّغة: نلخص مدى حضور هذا الحقل المفهومي ضمن محاور كتب اللّغة العربية للسّنوات الثّلاث من التّعليم الابتدائي من خلال هذا الجدول.

الكتاب الأوّل[4]			
رقم المجال	عنوانه	الوحدات التعلّمية	وظيفة النّص
الثّاني	المدرسة	رضا يدخل المدرسة	التعريف بهياكل المدرسة
		أدواتي المدرسية	التعريف بالوسائل
		في ساحة المدرسة	العلاقات الاجتماعية
		رضا يراجع دروسه	المواظبة
الثّالث	الريّاضة والتّسلية	رضا في الملعب	وظيفة تربوية
		في حديقة الحيوانات	ترفيهية
الخامس	المحافظة على المحيط	رضا لن يبذر الكهرباء	التّوعية
السّادس		زكريا المتسامح	وظيفة أخلاقية

	التضامن والمواطنة	زكريا يفوز	وظيفة تربوية
		تزيين القسم	وظيفة تربوية جمالية
		سلمى تساعد المحتاجين	سلوكية أخلاقية
		رضا يحب وطنه	حب الوطن
الثّامن	الحفلات والأعياد	حفل آخر السنة	سلوكية ترفيهية
الكتاب الثّاني[5]			
المحور	عنوان المحور	الوحدات التّعلّمية	وظيفة النّص
الأوّل	المدرسة	غدا نعود إلى المدرسة	تعليمية تربوية
		تحيّة العلم	تربوية حب الوطن
		لتظل مدرستنا نظيفة	سلوكية أخلاقية
		تزيين القسم	تربوية جمالية
الثّالث	الحيات الاجتماعية	بنت عطوفة	أخلاقية
		زيارة مريض	سلوكية أخلاقية
		رفع الأذى عن الطريق	سلوكية أخلاقية
السّادس	اللّعب والتسلية	لعبة نحبها	تربوية ترفيهية
الثّاني عشر	والمهن والنشاط	من المدرسة إلى المهنة	تربوية توعوية
الرّابع عشر	الإعلام والاتّصال	حفل رائع	تعليمي تربوي

الكتاب الثّالث[6]			
رقم المحور	عنوان المحور	النّصوص	وظيفة النّص
الأوّل	المدرسة	التلميذة الجديدة	اجتماعية
		زيارة المكتبة الوطنية	تربوية تثقيفية
		في ورشة الرسم	ترفيهية جمالية
الثّاني	العائلة	التعاون في الأسرة	تربوية سلوكية
الرّابع	الصّحة وجسم الإنسان	مرض أمين	أخلاقية
		سليمان والدّواء الضّار	توعوية

من خلال الجدول نجد أنّ موضوع المدرسة ورد محورا من المحاور التي تشكل كتب اللغة العربية للسنوات الثلاث ممّا يدلّ على الأهمية التي أحيطت بها المدرسة. وقد جاء في كتاب السنة الأولى بعد محور الأسرة، وتكرّر ضمن أربعة محاور أخرى، ويتوزع على تسع وحدات تعلمية، تضمنت الوحدات الأولى تعريف الطفل بالجانب المادي الذي يميز المدرسة عن المحيط الأسري (الهياكل والأدوات)، ثم انتقلت إلى مختلف الوظائف التي تؤديها المدرسة، بدءا بالعلاقات التي يُنشِئها الأطفال عند انتقالهم من الأسرة الأولى ممثلة بالبيت، وأفراده، إلى الأسرة الثانية، ممثلة بالمدرسة وأفرادها، وما ينبغي أن يتحلّى به كلّ فرد من أخلاق وسلوك، وما يتعلّمونه من معارف وعلوم.

أمّا في السّنتين الثّانية والثّالثة، فتنطلق الوحدات مباشرة من المدرسة، مع ملاحظة قلّة عدد النّصوص التي تتضمّن موضوع المدرسة في كتاب السنة الثالثة ولعلّ ما يبرّر ذلك هو أنّ الطفل في هذا المستوى قد أصبح واعيا بطبيعة هذه المؤسسة ووظائفها، وعليه فقد استهدفت الوحدات التّعليمية المبادئ التي تسعى

المدرسة إلى غرسها في النّاشئة، كالتعاون، وحب الوطن، والاجتهاد، وغرس القيم الأخلاقية والثقة بالنفس، ممّا يجعلهم قادرين على التّأثير الإيجابي في المجتمع.

ويمكن التّعبير عن هذه النّتائج بالنسب التّالية:

	كتاب السّنة الأولى	كتاب السّنة الثّانية	كتاب السّنة الثّالثة
عدد المحاور	**8/5**	**14/5**	**10/3**
النسبة المؤوية	**%62.5**	**%35.71**	**%30**
عدد الوحدات	**30/13**	**56/10**	**30/6**
النسبة المؤوية	**%43.33**	**%17.85**	**%20**

وهنا يُظهر الجدول بوضوح نسبة المحاور والوحدات التي ورد فيها موضوع المدرسة، وهي أكثر في كتاب السنة الأولى، وتتناقص النسبة في كتاب السنة الثانية، وترِد بنسبة قليلة في كتاب السنة الثالثة، وقد فسرنا ذلك أعلاه.

طبيعة المفردات وكيفية توزيعها: إنّ المفردات المستهدفة هنا هي تلك التي تشكّل الحقل المفهومي للمدرسة والتّعليم، وقد تضمّن الرّصيد اللّغوي المستقصى من الكتب المدرسية♦ قائمة من ألفاظ تتفاوت من حيث دلالتُها، منها ما يحيل إلى أشياءَ مادية يدركها الطّفل بحاسة من حواسه، ومنها ما يدلّ على مفاهيمَ مجردةٍ يدركها بعقله، وتوضّحها السّياقات التي وردت فيها. وقد بيّن لنا التّصنيف أنّ أغلب المفردات الخاصّة بكتب السنة الأولى هي مفردات تدلّ على المحسوسات، وتمثّل اللّوازم المدرسيّة، والتي هي وسائل يستعين بها الطّفل لولوج عالم المعرفة سواء ما يقتنيه بنفسه؛ مثل: (قَلَم، مِمْحَاة، لَوْحَة، قُرَيْصَا، خُشَيْبَات، ومِسْطَرْة، وكُرَاس وكِتَاب، ومِحْفَظَة، وطَبَاشِير، قلم تلوين، قلم جاف، قلم حبر، قلم رصاص...) أو ما يكتشفه في المدرسة من هياكل مادية، مثل: (قِسْم، وسَبُورَة، ومِنْضَدَة ومِصْطَبَة...)، كما يتضمّن مفردات تدلّ على هيأة أعضاء التّدريس، منها:

(الْمُعَلِّم(ة)، الْمُدِير(ة)، الْمُرَاقِب(ة)، المفتش(ة)، التلميذ(ة) ...). ولا ينحصر الرّصيد اللغوي لهذا المستوى في الموجودات فقط، بل يتضمّن كذلك المفردات الدّالة على مفاهيم مجرّدة، كتلك التي تحيل إلى الوحدات التّعليمية؛ مثل: (قِرَاءَة، ومُحَادَثَة وتَرْبِيَة إِسْلاَمِيَة، وتَرْبِيَة مَدَنِيَة ورِيَاضِيَات...) ويضاف إليها مفردات يكتسبها تدريجيا، ويدرك معانيها في سياقاتها؛ مثل: (امْتِحَان، وعُطْلَة، فَرْض، واجِب ...) ومن المفردات ما يشير إلى وظيفة المدرسة، والوظائف التي يؤديها الطفل، مثل: (تَعَلّم، ودَرْس...)، والسلوك الذي ينبغي أن يتزوّد به، مثل: (احْتِرَام، وتَنَافُس) وما ينتظر تحقيقه، مثل: (تفوّق، نجاح)، وما ينبغي أن يتجنبه من سلوك أو أفعال مثل: (كسل، تشاجر، كسر، أفسد).

وتزداد الحصيلة الإفرادية لكتب السّنتين الثّانية والسّنة الثّالثة، لإثراء رصيد الطّفل بالمفردات من النّمط الأوّل (أي الدّالة على المحسوسات) فنجد في السّنة الثّانية مفردات (حَاسِبَة، وقَلَم لُبَاد، ومَجَلَّة، ومُجَلَّد، ومِدْوَر، وقَامُوس، ومِنْقَلَة...) وفي السّنة الثّالثة (أُسْتَاذ، ودَفْتَر مَدْرَسِي، وكُوس، ومِحْبَرة، ومُسْتَشَار...). وكما يبدو واضحا، فبعض من هذه المفردات تحيل إلى ما هو مألوف في الغالب لدى تلميذ السّنة الأولى، كما أشبع الرّصيد أيضا بالمفردات الخاصّة بالحياة المدرسيّة والنّظام العام الذي يستلزمه هذا المحيط التّربوي، بل إن هناك كثيرا من المفردات التي تشير إلى خصائص المدرسة العصرية، التي تروم المنظومة التربوية تحقيقها منها: (مَجَلّة، ومَجَلّة حَائِطِيَّة، وانْتِرْنِيت، وكُمِبْيُوتَر، ومُجَلَّد، ومُسْتَشَار التَّرْبِية ومَعْرَض الكِتَاب، ومَكْتَبَة الْمَدْرَسَة، وبَحْث، وظُرُوف التَّعْلِيم، ونِظَام تَرْبَوِي وجَمْعِية أَوْلِيَاء التّلاَمِيذ، وشُؤُون الْمَدْرَسة، ونِظَام دَاخِلِي...) وغيرها من المفردات التي تحيل إلى الوسائل والأنظمة الحديثة يتطلّبها التحصيل العلمي الهادف. ومع ما لبعض المفاهيم من صعوبة بالنّسبة لطفل المراحل الأولى من التّعليم، تبقى ضرورة توعيّته بأهميّة هذه المؤسّسة، وتنشئته على حبّها واحترام نظامها والعمل بالقوانين

التي تنصّ عليها من الأولويات التي ينبغي أن يتأسّس عليه التّعليم الأولي لكلّ جيل يرجى منه رفع تحديات عصر العولمة.

أمّا المفردات المتعلقة بالمفاهيم فورد منها في السّنة الثّانية: (ثَقَافَة، ونِظَام تَرْبَوِي، ونَادِي الْمُطَالَعَة، فريق، جماعة...) وفي السّنة الثّالثة وجدنا: (شُؤُون مَدْرَسية، وظُرُوف التَّعْلِيم، ومَوْسِم دِرَاسِي، وهَيأة التَّعْلَيم، ورشة، ويَوْم الْعَلْم، ويَوْم المُعَلِّم، ويَوْم الطَّالِب) وهي مفاهيم تتعلّق بالتّربية وعلاقة المتعلّم بالمؤسّسة التّعليمية ونظامها العام.

صورة المدرسة من خلال المفردات: أشرنا أعلاه إلى أنّ رصيد حقل المدرسة والتّعليم الذي تضمنته الكتب المدرسية جاء محاطا بأغلب المفردات التي تغطّي احتياجات متعلّم السّنوات الثّلاث الأولى من التّعليم الابتدائي، سواء منها المفردات الدّالة على اللّوازم المدرسيّة، أم الدّالة منها على أعضاء هيأة التدريس، وأيضا المفاهيم التي لها علاقة بالحياة المدرسيّة والنّظام العام الذي يستلزمه هذا المحيط التّربوي، وذكرنا أنّ الرّصيد يتضمّن مفردات تحيل إلى ما تتميّز به المدرسة العصريّة من وسائل وأنظمة حديثة، والتي تتطلّب الدّعم المستمر حتى تقوم بالوظيفة التي أوجدت من أجلها، لكن هل هذه هي صورة الحقيقية لمدارسنا؟ وهل يحتاج الطفل إلى هذه المفاهيم كي يندمج فيها ويستوعب أدوارها ويتعلق بها؟

إنّ ما ورد في الرّصيد اللّغوي من مفاهيمَ وأنظمة حديثة تبقى أمورا منقطعة عن واقع مدارسنا، كما أنّ الوسائل المذكورة غير متاحة فيها، وغير مرتبطة بالاستعمال الإجرائي[7]، وإذا سطّرت وزارة التّربية الوطنيّة مجموعة من غايات ينبغي على المدرسة تحقيقها، فإنّ الرّصيد اللّغوي لا يوضّح الاستراتيجيات الملائمة لتحقيقها، وعلاوة على ذلك، فإنّ الظّروف التي هي عليها مؤسساتنا التّربوية لا

تتوافق مع مستلزمات ضمان معنى إجابيا لها، فمن حيث تشييدها، نجد معظمها في أماكن غير ملائمة، منها ما يتوصّل إليها عبر طرق متآكلة مليئة بالحفر، مع تراكم النفايات على أطرافها، وبعضها تطل على شوارع مزدحمة، ولا تخصّص لها ممرات لعبور التّلاميذ، ناهيك عن الضّوضاء والاكتظاظ، كما أن أغلبها تنعدم فيها الضّروريات؛ بل منها ما تفتقر حتى إلى الماء والكهرباء، فكيف نتحدّث عن الحواسيب والإنترنيت، وغيرها من الأجهزة الإلكترونية، والمخابر المجهزة، بل يكفي أن نرى من بعيد إلى هندستها لنعرف سبب نفور الصّغار منها، وعدم رغبتهم فيها، فهي أشبه بالمصّحات والمستشفيات، فأغلبها تقابل الأطفال بأبواب حديدية ضخمة، وداكنة، ومحاطة بأسوار عالية وكأنها سجون منعزلة عن العالم الخارجي وتضفي عليها نوعا من الملل والإرباك، وتغلق على فناءات أشبه بالصّحارى تفتقر أغلبها إلى الأشجار، والإخضرار الذي يستهوي الأطفال، ومن المناظر المنفّرة في مدارسنا؛ كذلك؛ اللّون الدّاكن الذي تطلى به جدران الحجرات، وهو يعطي انطباعا مشؤوما، أمّا المقاعد والطّاولات، فلا تختار حسب أحجام الأطفال كما لا يراعي ارتفاع السّبورة أطوالهم، مما يحرم بعضهم من استعمالها، وإذا حرص المعلم على منح هذا الحق للطّفل، فيضطر هذا الأخير للمساعدة أو الصّعود على كرسي، ويظهر في كلا الحالتين بمنظر يدفع زملاءه للسخرية، وذلك أمر يوقع فيه (أي في الطفل) الإحباط والأذى النّفسي، ويؤدي به إلى النّفور من المدرسة، وعدم الرّغبة فيها.

ومن كلّما سبق، فإنّ معنى المدرسة لا تتحدّد بوظيفتها فحسب؛ بل بالعلاقة التي تربطها بالتّلميذ، وعلى حدّ رأي ميشال دوفلاي (Michel Develay)؛ فإنّ لكلّ

تلميذ نصيبه في فهم هذه العلاقة، ويبقى تثمينها (أي العلاقة) أمرا ضروريا وإحدى مهام كلّ من المحيط الأسري والمجتمع المدني بصفة عامّة، إذ ينبغي أن تلعب كلّ الأطراف دورها في تقريب المدرسة من الطفل وتحبيبه فيها، أمّا على مستوى المناهج، فلا بدّ من إعادة النّظر فيها، وبنائها على أسس بيداغوجية، تأخذ في الحسبان مستوى الطّفل العمري والعقلي، وتراعي واقعه، ومستواه الاجتماعي والثّقافي، وتقدّم له رصيدا لغويّا حسبما يحتاجه للتّعبير عن حاجياته في كلّ مستوى من مستوياته التّعليمية[8]، وأن لا نغرقه بمفاهيم تفوق كثيرا مستواه، إذ لا يعقل أبدا أن ترد كلمة (ثقافة) في كتاب السّنة الثّانية الموجه لطفل لا يتجاوز سنه ستّا أو سبع سنين، ثمّ إنّ الكلمة تدلّ على حقل معقد[9]، يستعصي فهمها حتّى على الطّلبة الجامعيين، فكيف تدرج في كتاب من كتب المراحل الأولى من التّعليم؟

ونخلص من دراستنا إلى أنّ الرّصيد المخصّص للطّفل في بداية التحاقه بالمدرسة، يقدّم له مفردات توري له هذه المؤسسة باعتبارها مجموعة من هياكل ووسائل وأدوات، ومفردات أخرى تحيل إلى الأنشطة المتعلقّة بهذه المؤسّسة، وإذا وجدنا الوحدات التّعلمية التي تشمل موضوع المدرسة من خلال كتب اللّغة هي نصوص تهدف إلى غرس القيم الأخلاقية لدى الطّفل وتهذب سلوكه، فإنّ ما ورد من مفردات من قبيل (الاجتهاد، النجاح، التّعاون، التّنافس، وفريق ورشة) وهي تدلّ على التعاون والتّشاور والعمل الجماعي) ونجد أيضا (تسابق، شجع...) التي تدفع إلى مزيد من العمل وتحقيق نجاح مستمر، وخلق جو من المنافسة بين المتمدرسين، نجدها قليلة مقارنة بالمفاهيم الغامضة التي أتخم به الرّصيد، وقد وردت حسب ما تستلزمه الوحدات التّعليميّة. لكن أغلبها تفوق بكثير مستوى

الطفل، وهذا الغموض يخلق صعوبة الاستيعاب لدى المتعلم ويدفعه إلى النفور، بل قد يكون سببا لينتفض أمام كل ما يربطه بالمدرسة، فإذا استعصى التكيّف على بعض الأطفال في بداية انتقالهم من محيطهم العائلي الصغير إلى هذا المحيط الأكبر، فيبدو من خلال مفردات الرصيد أنّ كثير مما تتضمنه المادة التّعليمية لا تتناسب مع مستوى المتعلم الذي وجهت إليه، ولا تراعي حاجاته، وأغلبها تحاور عقله وتحتاج إلى التّركيز في حين أن الطفل في هذا السّن يميل إلى الفعل والحركة، وعليه يفضل في هذه المراحل الاعتماد على الأنشطة الجماعية التي تتسم بالنشاط والحيوية، ممّا يجعل الطفل يتفاعل بشكل تلقائي، ويغرس لديه روح المنافسة، فيدفعه ذلك إلى الإقبال على المدرسة حبّا لا كرها.

الهوامش:

*- نخصّ بالدّراسة السنوات الثلاث الأولى من مرحلة التّعليم الابتدائي.

1- ينظر: وزارة التربية الوطنية، القانون التوجيهي للتربية الوطنية رقم 08-04 المؤرخ في 23 جانفي 2008، الجزائر: فيفري 2008.

2- زعتوت عبد الرحمن وآخرون، دليل كتاب التّربية المدنية للسنة الأولى ابتدائي، وزارة التربية الوطنية، ص 33.

3 - ينظر: خوني وريدة "دور المدرسة في تنمية قيم الانتماء الوطني" مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد خاص بالملتقى الدولي حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التّحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري، ص 73، مقال منزل من الموقع الإلكتروني: http://dspace.univ-ouargla.dz/jspui/bitstream

4- بو بكر خيشان وآخرون، اللّغة العربية كتاب التلميذ، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية منشورات الشّهاب الجزائر: 2007.

5- سيدي محمد دبّاغ بوعيّاد وحفيظة تازروتي، كتابي في اللغة العربية، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية وزارة التربية الوطنية الجزائر:2007/ 2008.

6- شريفة غطاس وآخرون، رياض النّصوص كتابي في اللغة العربية، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية الجزائر: 2008/2007.

♦- قمت باستقصاء الرّصيد اللغوي للكتب المدرسية في دراسة سابقة أنجزتها حول علاقة مفردات هذه الكتب بعينة من معاجم مدرسيّة.

7- ينظر: ميشال دوفلاي "إعطاء معنى للمدرسة" تر: عز الدين الخطابي، ضمن "التربية على القيم" عالم التربية، المغرب، العدد 12/ 2012، منشورات عالم التربية، ص 219.

8- ينظر:جاكريتشاردز (Jack C.Richards) تطوير مناهج تعليما للغة، تر: ناصر بن عبد الله بن غالي وصالح بن ناصر الشّويرخ، الفصل الثالث والرابع. (نسخة إلكترونية).

9- ينظر مفهومه في: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، ط4. بيروت- لبنان: 1984، و(دار الفكر، دمشق- سورية).

مصطلح النَّبر في الدَّرس اللّساني العربي
ــ بين الموجود والمفقود ــ

د. سعاد بسناسي
جامعة وهران – السَّانية

تمهيد: تنقسم الدِّراسة الصَّوتيَّة لعدَّة أقسام، تختلف باختلاف طبيعة تناول الصَّوت اللّغوي وفهمه من جهة، والمنهجيَّة المتَّبعة في التَّحليل والتَّعليل من جهة أخرى، فقد يُدرَس الصَّوت كما هو في مكان معيَّن وزمان معيَّن، وفترة زمنيَّة محدَّدة، دون تقصِّي تطوّرها التَّاريخي"[1]" وهذا يُعرف بعلم الأصوات الوصفي (*Descriptive phonetics*) أو يُدرَس دراسة معياريَّة"[2]" أي كما ينبغي أن يُنطق وهذه تُعدُّ صورةً مثاليَّة لنطق الصَّوت اللّغوي، وهي موضوع علم الأصوات المعياري (*NORMATIVE PHONETICS*).

ويدرس علم الأصوات النُّطقي إرسال الصَّوت اللّغوي، وعلم الأصوات السَّمعي مراحل استقباله بعد التَّحويلات التي تطرأ على الذَّبذبات الصَّوتيَّة، وتحليلها لفهمها. وعلم الأصوات الفيزيائي انتقال الصَّوت وسرعته ومجموع الصِّفات والتَّلوينات التي يكتسبها من خلال الوسط الذي ينتقل فيه. وهناك دراسة صوتيَّة تُعنى بالصَّوامت والصَّوائت، وهي موضوع علم الأصوات القطعيَّة (*SEGMENTAL PHONETICS*) ودراسة التَّلوينات الصَّوتيَّة كالنَّبر والتَّنغيم تكون ضمن علم الأصوات الفوقطعيَّة (*SUPER-SEGMENTAL PHONETICS*)"[3]" والنَّبر من الموضوعات التي اختلفت فيها الآراء، وتعدَّدت طرق تحديده ومواضعه في المفردات والتَّراكيب.

إنَّ مصطلح النَّبر (*ACCENT*) في المفهوم العامّ يدلُّ على الإبراز، وفي الدِّراسة اللِّسانيَّة بعامَّة، والصَّوتيَّة بخاصَّة يعني إبراز أحد مقاطع الكلمة عند النُّطق بها، مع وجود تداخل بينه وبين مصطلح الهمز من حيث المفهوم والنُّطق والكميَّة الصَّوتيَّة. فهناك من يعتبر الهمز نبرًا، وهناك من فرَّق بين المصطلحين من وجهة نظر صوتيَّة؛ وذلك بمراعاة كميَّات النَّطق.

لقد اختلف القدامى والمحدثون في تحديد مفهوم النَّبر، كما تباينت آراؤهم حول أقسامه، وطريقة نطق المباني المنبورة، ورموزها التي لم تكن موجودة عند القدامى، واجتهد في وضعها المحدثون، كما سيأتي توضيحه لاحقًا.

بين القدامى والمحدثين: النَّبر هو أحد التَّلوينات الصَّوتيَّة التَّركيبيَّة، يوحي عموم مفهومه بالظُّهور، وأثبت الاستقراء أنَّ كلَّ صيغةٍ مبدوءةٍ (بنون بعدها باء) تدلُّ على عموم الظُّهور في مثل: (نبر، ونبغ، ونبت) وفي مجال الدِّراسة اللغويَّة (النَّبر بالكلام المهموز، وكلُّ شيء رفع شيئا فقد نبره، ونبر الحرف ينبره نبرا همزه)"[4]" ويفهم من هذا النَّص، أنَّ النَّبر رفع وهمز، والهمز في مفهومه العام غمز وإثارة. وهو في مجال الدِّراسة الصَّوتيَّة، وقفة حنجريَّة ينتج عنها صوت مجهور شديد عند القدماء.

ووصف ابن سيناء طريقة نطق الهمز بقوله: (حفز قويٌّ من الحجاب وعضل الصَّدر لهواء كثير)"[5]" وإن كان النَّص يتحدَّث عن الهمز، فهو يقصد به النَّبر باعتبار أنَّ الدَّارسين القدامى لم يفرِّقوا بينهما، وهناك من ذكر المصطلحين للدَّلالة على مفهوم واحد، وهناك من سمَّاه نبر الهمز (*L'ACCENT GLOTTAL*)"[6]" وهو نوع من أنواع النَّبر عند المحدثين. وفي العربيَّة أصوات ثقيلة بذاتها أو بتركيبها والهمزة منها؛ فهي صوت أقصى حلقي شديد، وفي جهره وهمسه اختلاف بين علماء الأصوات، تعرَّض له الدَّارسون من قدامى ومحدثين، ولا يزالون لم يقولوا كلمتهم الأخيرة فيه؛ وتوقَّفوا عند اتِّصافه بالعسر والغموض"[7]" ودليل غموض هذا

الصَّوت وصعوبته، كثرة المؤلَّفات التي تناولته، وتعدُّد أحواله وأشكاله وتشكيلاته النُّطقيَّة.

لقد تحدَّث الخليل بن أحمد الفراهيدي عن الهمزة، واعتبرها صائتًا هوائيًّا مخرجه الجوف؛ فلا تقع في مدرج من مدارج اللِّسان أو الحلق أو اللّهاة بقوله: (والهمزة في الهواء لم يكن لها حيِّز تُنسَب إليه)"[8]" وممَّن تعرَّض للهمزة ومشكلاتها وأحوالها من القدماء؛ بحيث ذكر آراء وأقوال العرب والقرَّاء والشُّعراء حول الهمزة، وطريقة تعاملهم معها من حيث نطقُها بالوصف والتَّمثيل.

كما أقرَّ جلال الدِّين السيوطي، بأنَّ الهمزة لا يكفيها مجلَّد واحد، بقوله: (لمَّا كان الهمز أثقل الحروف نطقًا، وأبعدها مخرجًا، تنوَّع العرب في تحقيقه بأنواع التَّخفيف وكانت قريش وأهل الحجاز أكثرهم تخفيفًا. وأحكام الهمزة كثيرة لا يحصيها أقلّ من مجلَّد)"[9]" وفي النَّص مفردتان تستوجبان الوقوف عندهما: (أثقل الحروف نطقًا، وأبعدها مخرجًا) ومن هنا كانت علَّة الثِّقل كامنة في موقع الصَّوت وأدائه. ويرى السّيوطي أنَّ تخفيف الهمز أربعة أنواع هي: (النَّقل والإبدال والتَّسهيل والإسقاط).

وعملت العربيَّة على التَّخلُّص من ثقل الهمزة بعدَّة تقنيات أشهرها التَّخفيف، أو الحذف أحيانًا إن تعذَّر العمل بالتَّخفيف واستعصى أمرها. وطريقة نطق الهمزة تحقيق وحذف وتخفيف، وهذه الأمور ينبغي معرفتها لتوظيف ما يُسهِّل النُّطق بها وما يُسهِّل وصول المعنى إلى المستقبل في العمليَّة التَّواصليَّة"[10]" ونشير إلى أنَّ النَّبر يُعدُّ تقنية هامَّة في العمليَّة التَّواصليَّة، إلى جانب تقنيات أخرى كالتَّنغيم"[11]" والإيقاع وغيرها من التَّلوينات التَّركيبيَّة.

ويصف المحدثون النَّبر بأنَّه وضوح نسبيّ لصوت أو مقطع، إذا قورن ببقيَّة الأصوات والمقاطع في الكلام. والمقطع المنبور بقوَّة ينطقه المتكلِّم بجهد أعظم من المقاطع المجاورة له"[12]" ويفهم من هذا، أنَّ في النَّبر كلفة وجهدًا، والدَّرس اللِّساني

يسعى إلى التَّغلُّب على ذلك. ويضيف آخر أنَّ الهمز يعني الضَّغط، والنَّبر والضَّغط والارتكاز معًا"[13]" وهذا يشير إلى وجود فرق بين الهمز والنَّبر، بإضافة الارتكاز للنَّبر واتِّفاقهما في صفة الضَّغط.

يرى مهدي المخزومي أنَّ تحقيق الهمز يكون عند القبائل البدويَّة، وتسهيله يكون عند الحضر"[14]" وهناك من يرى أنَّ كلَّ اللّغات الإنسانيَّة نبريَّة، مع اختلاف خصائص النّطق ودرجات النَّبر بقوله: (لا تكاد تخلو منه أيّ لغة)"[15]" ومهما كان الاختلاف بين القدامى والمحدثين، فإنَّ مفهوم النَّبر موجود في الدِّراسات اللِّسانيَّة العربيَّة، والمصطلح موجود كذلك، مع أنَّ القدماء استخدموا مصطلح الهمز وهو عندهم نبر وخروج شديد بإجهاد الصَّوت، والمحدثين وظَّفوا مصطلح النَّبر واعتبروا الهمز جزءًا منه، ويكون في غيره مع تفاوت درجة الضَّغط بحسب موقعيَّة النَّبر.

ويرى بعض المحدثين، أنَّ النَّبر يكون في الصَّوائت لا في الصَّوامت؛ لأنَّه (قوَّة تلفظ نسبيَّة تعطى للصَّائت في كلِّ مقطع من مقاطع الكلمة أو الجملة، ويجب التَّنبيه إلى حقيقة هامَّة، وهي أنَّ النَّبر لا يقع على الصَّوت الصَّامت أبدًا إذ هو مقصور على الصَّوت الصَّائت)"[16]" وهذا النَّص ينبغي إعادة النَّظر فيه، باعتبار أنَّ الصَّامت لا يمكن نطقه من دون صائت، كما لا يمكننا نطق الصَّوائت من غير صوامت وسيأتي التَّمثيل لكلِّ هذا وتحليله في موضعه، وذلك بعد الحديث عن وظائف النَّبر النُّطقيَّة والدَّلاليَّة والعروضيَّة.

وظائف النَّبر: النَّبر هو إشباع مقطع من المقاطع نطقًا بالضَّغط والارتكاز عليه بحيث يكون أوضح مقارنةً بالمقاطع الأخرى في الصِّيغة الواحدة أو التَّركيب الواحد، وتحدث قوَّة الارتكاز أينما كان موقعه، وتتوقَّف دلالة النَّبر على الدَّلالة التَّمييزيَّة، وبذلك يعتبر النَّبر سمة صوتيَّة وظيفيَّة لها قيمة دلاليَّة في التَّوجيه، كما يعتبر أحد الملامح التَّمييزيَّة، أو التَّنوُّعات الصَّوتيَّة التي تُنوِّع الدَّلالة ويعتمد عليها

السِّياق"[17]" فالدّلالة التَّمييزيَّة وظيفة هامَّة من وظائف وظائف الدَّرس اللِّساني بعامَّة، والنَّبر بخاصَّة.

ويخدم النَّبر علم العروض؛ باعتباره يؤدِّي وظيفة شعريَّة عروضيَّة، تتمثَّل في ضبط المتحرِّك والسَّاكن، وفكرة المقطع العربي وطريقة نبره المعتمدة على النّطق الصَّحيح، كما يبيِّن النَّبر المقاصد الكلاميَّة للنَّاطق، وتحديد أغراضه الكلاميَّة"[18]" ولذلك يوجد ما يُعرف بالنَّبر العروضيّ (*L'accent rythmique*) الآتي حديثه في أقسام النَّبر، وهو نطق من نوعٍ خاص؛ لأنَّه يراعي تحقيق الكمّيات الصَّوتيَّة في نطق المقاطع اللّغويَّة، وتمييزها عن بعضها.

وإنَّ أعضاء النّطق كالرِّئتين تنشط أثناء نطق المقطع المنبور (*SYLLABE ACCENTUE*) بشكل متميِّز لدفع الهواء بنشاط أكبر، وتقوى حركة الوترين وتتَّسع الذَّبذبات، فيزداد نشاط الشَّفتين إذا كان لهما دور في النُّطق وتصبح حركة اللِّسان دقيقة لضمان وضوح مخارج الأصوات، وعدم التباسها مع غيرها.

فالنَّبر يُعدُّ فونيمًا، باعتبار أنَّ أيَّ خطأ في النُّطق بتغيير موقع النَّبر، يؤدِّي إلى تغيير المعنى، وحول عمليَّة الإرسال الصَّوتيّ، والأخطاء المحتملة فيها، والنَّتائج المترتّبة عن ذلك، نجد تحليلاً صوتيًّا في مبحث الصَّوت التَّكوينيّ التَّوليديّ"[19]" ومثال الخطأ في نطق المقاطع المنبورة الفعل (كانَ) الذي يكون مقطعه الأوَّل منبورا، ولو نبرنا المقطع الثَّاني لأصبحت (كانَا) ويتغيَّر المعنى. ومن أمثلة"[20]" المقاطع المنبورة الصِّيغ الآتية في جدول تلخيصيّ، مع تحديد المقطع المنبور بعد تقطيعه الصَّوتي:

جدول تلخيصيّ لمواقع النَّبر

الصِّيغة	مقاطعها الصَّوتيَّة	المقطع المنبور
سَالِمْ	ص ع ع/ص ع ص/	المقطع الأوَّل (سَا)
يَدْرُسُ	ص ع ص/ص ع/ ص ع/	المقطع الأوَّل (يَدْ)
دَارِسٌ	ص ع ع/ص ع/ ص ع ص/	المقطع الأوَّل (دَا)
دَارِسُونْ	ص ع ع/ ص ع/ ص ع ع ص/	المقطع الأخير (سُونْ)
دِرَاسَةٌ	ص ع/ص ع ع/ ص ع/ ص ع ص/	المقطع الثَّاني (رَا)
دِرَاسَاتٌ	ص ع/ ص ع ع/ ص ع ع/ص ع ص/	المقطع الثَّالث (سَا)

<u>تعليق:</u>

الملاحظ من خلال هذه الأمثلة، أنَّ النَّبر يغلب في الصِّيغ الديَّة، ذات المقاطع المتوسِّطة مزدوجة الانفتاح؛ لأنَّ طبيعة نطقها تتطلَّب مدَّة زمنيَّة أطول، وكميَّة صوتيَّة مضاعفة؛ ممَّا يجعلها تبدو أكثر وضوحًا، وأكثر ارتكازًا مقارنةً بمقاطع أخرى معها في الصِّيغة الواحدة.

وإذا توالى مقطعان مدِّيان، يكون التَّركيز على الثَّاني، ويكون النَّبر في المقاطع المتوسِّطة المغلقة نحو (يَدْ) المساوية للمقطع (ص ع ص) من صيغة (يَدْرُس) باعتباره مقطعا متوسِّطا مغلقًا، وهذا الصَّامت السَّاكن يتطلَّب وقفةً وتركيزًا في النُّطق إذا وقع وسط الصِّيغة أكثر منه في آخرها.

كما يقع النَّبر على أوَّل مقطع من الكلمة ابتداءً من آخرها، وإذا خلت الكلمة من المقاطع الطَّويلة وقعت النَّبرة على المقطع الأوَّل منها، ولا تقع على المقطع الطَّويل في آخرها، نحو: (يقاتلُوا، قَاتَلَ، لم يُقَاتِلُوا)"[21]" فالنَّبر يكون فيها جميعها على المقطع (قَا: ص ع ع).

درجات النَّبر: لقد اختلف الدَّارسون في تحديد درجات النَّبر وتسمياتها؛ فهناك من يراها درجتين: رئيسيَّة وضعيفة، وهناك من أضاف إليهما النَّبرة الثَّانويَّة وهناك من أضاف النَّبرة الثَّالثيَّة"[22]" وتسمَّى عند البعض بالخفيفة أو الضَّعيفة"[23]" وهناك من جعلها ثلاث درجات مع اختلاف في التَّسمية، وهي كالآتي: النَّبر القويّ والوسيط، والضَّعيف"[24]". ونشير إلى أنَّ هذا الاختلاف يتطلَّب وقفة من قبل المختصِّين للتَّوفيق بين الآراء، واستنتاج قواعد موحَّدة، بدءًا من مفهوم النَّبر ومواقعه، ودرجاته، ورموزه، وتقسيماته، هذا إذا كان الاتِّفاق على أنَّه كائن في غير الهمز.

رموز النَّبر: النَّبرة الرَّئيسيَّة ورمزها: / ــ/ فوق المقطع المنبور، ويسمِّيها البعض بالنَّبر الأقوى أو النَّبرة القويَّة.

النَّبرة الثَّانويّة ورمزها: /ʌ/ وهي أضعف من النَّبرة الرَّئيسيَّة، وأقوى من الثَّالثيَّة، ورمزها كأنَّه ثمانية عربيَّة صغيرة توضع فوق نواة المقطع.

النَّبرة الضَّعيفة ورمزها: /∩/ قوس صغير مقعَّر من أعلى يوضع فوق نواة المقطع.

تعليق: إنَّ الاجتهاد في إيجاد رموز كتابيَّة، للدَّلالة على الكثير من التَّلوينات الصَّوتيَّة، والأداءات النّطقيَّة في العربيَّة أمر هامّ ومنتظر في كثير من الموضوعات، مع ضرورة الاتِّفاق عليها، وتوحيدها، لتسهيل العمل بها. والملاحظ من وضع رموز للنَّبر، أنَّ الإشكاليَّة تتمثَّل في تحديد مواقعه في الصِّيغ من جهة ووضع الرَّمز المناسب لكلّ نطق، بحسب هذه المواقع من جهة أخرى، ومع كلِّ هذا فإنَّ النَّبر يحتاج إلى توحيد الآراء فيه، وحول رموزه، ومعطياته، وقواعده.

موقعيَّات النَّبر: لقد تمَّ تحديد موقع النَّبر في الصِّيغ الإفراديَّة، بحسب درجة الضَّغط المسموعة، التي تركِّز على مقطع معيَّن، ولوحظ للنَّبر فيها ثلاث موقعيَّات في البداية ويسمَّى النَّبر الاستهلالي الواقع على المقطع الأوَّل نحو صيغة (جَاءَ) (ص ع ع/ص ع) أو يكون النَّبر في وسطها مثل: (مَسَاجِدْ) (ص ع/ص ع ع/ص ع ص) أو في نهايتها ويسمَّى النَّبر الختامي نحو: (رَحِيمْ) (ص ع/ص ع ع ص) ومع هذا فإنَّ النَّبر لا تختصُّ به الصِّيغ الإفراديَّة لوحدها، بل يكون في التَّراكيب والسِّياقات الدَّلاليَّة.

تقسيمات النَّبر: يكون النَّبر في المفردات والجمل باختلاف أقسامها وأغراضها فنبر الكلمة (*L`ACCENT DU MOT*) أنواعه كثيرة ويقع على مقطع من مقاطعها، ويختلف موضعه باختلاف اللّغات، وباختلاف نوع المقاطع، وكمِّيَّاتها الصَّوتيَّة في اللّغة الواحدة.

يقابل نبر الكلمة ما يسمَّى بنبر الجملة (*ACCENT DE PHRASES*) ويراد به تضعيف النَّبر الموجود في كلمة من كلمات الجملة. وهناك من أضاف نبرًا ثالثًا وهو النَّبر التَّقابلي"[25]" ويُعدُّ نبرةً رئيسيَّةً قد تأخذها أيَّة كلمة في الجملة من أجل هدف معيَّن، وتسمَّى نبرة توكيديَّة؛ لأنَّ المتكلِّم يوظِّفها إذا أراد نفي معنى أو توكيده، في مثل قولنا: (هل سافر أخوك أمس؟) يختلف الغرض باختلاف الكلمة التي يزيد نبرها أو يضعف، فقد يتحقَّق النَّبر في المقطع الأوَّل المزدوج الانفتاح المتوسِّط من الصِّيغة الحدثيَّة (سافر: ص ع ع/ ص ع/ ص ع) للتَّشكيك في حدوث السَّفر، وإذا وقع على الصِّيغة الذَّاتيَّة (أخوك: ص ع/ ص ع ع/ ص ع) في المقطع الثَّاني مزدوج الانفتاح المتوسِّط، فيكون من أجل زيادة النَّبر في هذا المقطع لا غير، حتَّى يصبح أكثر وضوحًا عند السَّامع.

ومن التَّقسيمات الفرعيَّة الأخرى، نجد نبر السِّياق، والإطالة، والقصير والثَّابت، والمنتقل، والعروضيّ والعوض، ونبر الهمز"[26]" أمَّا نبر السِّياق (*ACCENT CONTEXTYEL*) فيسمَّى كذلك بالنَّبر الدَّلالي (*ACCENT SEMANTIQUE*) والغرض من هذا النَّوع، التَّأكيد أو التَّقرير والفرق بينهما أنَّ دفعة الهواء في النَّبر التَّأكيديّ أقوى منها في التَّقريريّ، والصَّوت يكون أعلى في التَّأكيديّ، ويُحتمل أن يكون هذا النَّبر في أيّ مقطع من مقاطع السّلسلة الكلاميَّة. ويخصّ نبر الإطالة (Accent grave) والقصير (Accent aigu) اللّغة الفرنسيَّة وله رموز بصريَّة يُعرف من خلالها للتَّمييز بين كلمتين مثماثلتين كتابة ومختلفتين معنى، مثل (la) بمعنى (ال) وتكون بمعنى هناك (là)؛ بينما يتمثَّل في العربيَّة في إمالة الصَّوائت، ويضاف إليهما نبر العوض (Accent circonflexe) الذي يختصّ بحروف اللّين وعلامتها الخطيَّة مشتقَّة من شكل حرف (V) مقلوبا توضع فوق بعض حروف اللّين؛ لتدلّ على استطالتها نطقًا عوضًا عن محذوف في مثل (Pâte) ويفرِّق الدَّرس اللِّسانيّ العربيّ بين أصوات المدّ واللّين، بحسب حركتها وحركة ما قبلها؛ فالمدّ في الألف، والواو، والياء، شرط أن تُسبق كلّ حركة بحركة من جنسها، فالألف تسبقها فتحة، والياء تسبقها كسرة والواو ضمَّة. أمَّا اللّين فيختصّ بالواو والياء السَّاكنتين، شرط أن يكون ما قبلهما مفتوحا. ويوجد تنوين العوض، كما في الأسماء المنقوصة.

ويلتزم النَّبر الثَّابت (Accent fixe) موقعًا واحدًا في التَّركيب، ويقابله النَّبر المنتقل (Accent libre) لأنَّه ينتقل من موضع إلى آخر في الصِّيغ داخل التَّركيب وذلك بحسب انتقال الصِّيغة من موضع لآخر، وحسب تصريفها.

النَّبر العروضيّ (Accent rythmique) ولمعرفة هذا النَّوع من النَّبر ينبغي الرّجوع إلى موسيقى الشِّعر، والإيقاع النَّاتج أثناء إنشاد الشِّعر؛ لأنَّ المنشد يحتكم إلى أوزان عروضيَّة، وإلى ما يعرف بطريقة النَّقر، والتَّغنّي والإنشاد، ويُحتمل التَّركيز على أكثر من مقطع في البيت الواحد، حتَّى يتحقَّق التَّأثّر والتَّأثير المنتظر من دراسة علم العروض، وتطبيق تقنياته ومقاييسه، ونجد أنَّه يختلف من لغة إلى أخرى؛ لاختلاف قواعد العروض، بل حتَّى في اللّغة الواحدة لاختلاف البحور وتفعيلاتها، وما يصيبها من زحافات وعلل.

ويتبقَّى نبر الهمز (Accent glottal) وهو أهمّ تقسيم كنَّا ننتظر له أمثلة وتحليلاً، وتعريفًا واضحًا عند المحدثين؛ لكن وجدنا فيه خلطًا بدليل التَّعريف الآتي: (نبر الهمز هو توتّر حنجري عند النّطق بصوت اللّين يُسمع كأنَّه همز. وقد رويت هذه الظَّاهرة عند البدو قديمًا، كما تسمع الآن لدى بعض البدو، ومن أمثلتها المروية القديمة نطق "العألم" في العالم، و"لا الظألين" بدل "ولا الضَّالين")"[27]" يلاحظ من خلال هذا النَّص، الخلط بين الهمز واللّين والمدّ، والأمثلة المذكورة تقتضي مراجعة وتحليلاً علميًّا مقنعًا؛ ممَّا يجرّنا إلى إعادة النَّظر حول مفهوم النَّبر، وتقديم تعاريف دقيقة، وبخاصَّة تقسيماته في العربيَّة.

ونستلخص أخيرًا أنَّ الدَّرس اللِّسانيّ، قد شهد تطوّرا ملحوظًا في مختلف المستويات، والمجالات، والموضوعات، وتُعدُّ التَّلوينات الصَّوتيَّة من المواضيع الهامَّة في الأداء الكلاميّ، والنَّبر أحدها مع أنَّ معالمه لم تتحدَّد بدقَّة في الدَّراسات الحديثة، باعتبار أنَّ أغلب الدَّارسين المحدثين لا يستحضرون مفهم النَّبر عند القدامى ويخلطون بين النَّبر والارتكاز، وعلميَّة البحث اللّغويّ تتطلَّب فصلا بين المصطلحين، وما جاؤوا به في أغلب تقسيمات النَّبر غير موجودة في العربيَّة؛ إلاَّ

في بعض الحالات النّطقيَّة ممَّا يتطلّب تظافر الجهود، وتكاتفها لأجل توضيح الارتكاز الحاصل أثناء نطق الصِّيغ الإفراديَّة أو المباني التَّركيبيَّة، مع توحيد المنطلقات الفكريّة والقواعد النّطقيّة وكذلك الرّموز الكتابيَّة.

ترتيب قائمة المصادر والمراجع

- أحمد محمّد قدور، مبادئ اللّسانيات، مط، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان ط1، 1999.
- أحمد مختار عمر، دراسة الصَّوت اللّغوي، 1991.
- ابن سينا، رسالة في أسباب حدوث الحروف، تح، محمّد حسن الطّيان ويحي المير، مراجعة وتقديم، شاكر الفحّام، وأحمد راتب النّفاخ، ط، 1982م.
- مال الدّين بن منظور الإفريقيّ، لسان العرب، دار صادر، بيروت.
- جلال الدّين السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، عالم الكتب، بيروت.
- حسام البهنساوي، علم الأصوات اللّغويّة، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، القاهرة، ط1 2004م.
- مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنيَّة، دار الفكر اللّبناني.
- مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللّغة والنّحو وأولاده ط2، 1958م.
- محمّد عل الخولي، الأصوات اللّغويّة، دار الفلاح للنّشر والتّوزيع، ط2 1992.
- محمَّد علي الخولي، معجم علم اللّغة النَّظري، مكتبة لبنان، ط1، 1982.
- محمّد رشاد الحمزاوي، المصطلحات اللّغويَّة الحديثة في اللّغة العربيَّة المؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب، الجزائر، 1987.

– صبري المتولي، دراسات في علم الأصوات، الأصول النَّظريَّة، والدِّراسات التَّطبيقيَّة لعلم التَّجويد القرآن، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2006.

– عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللّغويّة، دار صفاء للنّشر والتّوزيع الأردن، 1998.

– عبد الغفّار حامد هلال، أصوات اللّغة العربيَّة، مكتبة وهبة، مصر، ط3 1996.

– سعاد بسناسي، التَّحوُّلات المورفولوجيَّة والتَّركيبيَّة في ضوء الدّراسات الصَّوتيَّة، رسالة دكتوراه مخطوط، جامعة وهران السَّانية، 2006/2005.

– سعاد بسناسي، التّنغيم صوت ودلالة، مجلّة القلم، جامعة وهران السَّانية، العدد الثَّالث، 2006.

– الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح، عبد الحميد هنداوي منشورات حمد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، ط1، 2003.

الهوامش:

1– محمَّد علي الخولي، معجم علم اللّغة النَّظري، ص 277، مكتبة لبنان، ط1، 1982.

2– صبري المتولي، دراسات في علم الأصوات، الأصول النَّظريَّة، والدِّراسات التَّطبيقيَّة لعلم التَّجويد القرآن، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2006.

3– ينظر هذه الموضوعات عند، محمّد علي الخولي، الأصوات اللغوية، دار الفلاح للنَّشر والتَّوزيع، ط2، 1992.

4– جمال الدّين بن منظور الإفريقيّ، لسان العرب، ج5، ص189، ع1، س3، باختصار.، دار صادر، بيروت.

5– ابن سينا، رسالة في أسباب حدوث الحروف، ص72. تح، حسن الطّيان

6- رشاد الحمزاوي، المصطلحات اللّغويَّة الحديثة في اللّغة العربيَّة، ص184، المؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب، الجزائر، 1987م.

7- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ج1، ص3، تح، عبد الحميد هنداوي، منشورات حمد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، ط1، 2003.

8- جلال الدّين السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص91، عالم الكتب، بيروت، ولأبي زيد الأنصاري كتابا في الهمز.

9- سعاد بسناسي، التَّحوُّلات المورفولوجيَّة والتَّركيبيَّة في ضوء الدّراسات الصَّوتيَّة، رسالة دكتوراه مخطوط، جامعة وهران السَّانية، 2006/2005.

10- أفردنا للتَّنغيم مقالا، ينظر، سعاد بسناسي، التّنغيم صوت ودلالة، ص40/35، مجلّة القلم جامعة وهران السَّانية، العدد الثَّالث، 2006.

14- أحمد محمّد قدور، مبادئ اللّسانيات، ص116، مط، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان، ط1 1999. وينظر، عبد الغفّار حامد هلال، أصوات اللّغة العربيَّة، ص217/216. مكتبة وهبة مصر، ط3، 1996.

15- مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة، ص181/180.

16- أحمد مختار عمر، دراسة الصَّوت اللّغوي، ص357، القاهرة، 1991. لأنَّ هناك من المستشرقين من أنكر وجود النَّبر في العربيَّة، ومنهم (هنري فليش) .

17- ينظر ذلك عند، محمّد علي الخولي، الأصوات اللّغويَّة، ص158، بتصرّف واختصار.

18- نفسه، ص243.

19- نفسه، ص244 وما بعدها، بتصرّف واختصار.

20- محمّد علي الخولي، الأصوات اللّغويَّة، ص161، بتصرّف واختصار. والصِّيَغ لم ترد عنده في جدول، ولم ترد مقطَّعة، ولكن حدَّد موقع النَّبر في كلِّ صيغة.

21- ينظر، محمد رشاد الحمزاوي، المصطلحات اللّغويَّة الحديثة في اللّغة العربيَّة ص181/180.

22- ينظر، محمّد علي الخولي، ص 136، ومبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنيَّة، دار الفكر اللبناني. وهناك من يسمِّي النَّبرة الثَّانوية بالوسيطة، كمال بشر، علم اللّغة العامّ، الأصوات.

23- ينظر، حسام البهنساوي، الأصوات اللّغويّة، ص154، وما بعدها.
24- مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنيَّة.
25- ينظر، محمّد علي الخولي، ص67. وقد مثَّل لهذا النَّوع أمثلة كثيرة، ونرى أنَّ هذا النَّوع زائد باعتباره لا يخرج عن نبر الكلمة أو الجملة، وما ذكره من تأكيد النَّبر على الكلمات باختلاف أغراض الجمل وقصد المتكلِّم يرجع لتوظيف التَّنغيم أثناء النطق.
26- ينظر، محمد رشاد الحمزاوي، المصطلحات اللّغويَّة الحديثة في اللّغة العربيَّة، ص 182 وما بعدها.
27- محمّد رشاد الحمزاوي، المصطلحات اللّغويَّة الحديثة في اللّغة العربيَّة، ص184.

جهود العرب الصوتية ما بين القرنين الرابع والسابع الهجريين

حورية زلاقي
جامعة المسيلة

ملخص: شهد الدرس الصوتي العربي تطورا غير مسبوق منذ بداية القرن الرابع الهجري وحتى القرن السابع، حيث توسعت الدراسة في جانبها المادي لتشمل الحديث عن الطبيعة الفيزيائية للصوت، ابتداء من كيفية حدوثه وانتقاله والوسط الناقل له، ووصولا إلى العملية السمعية، هذا فضلا عن الدراسة التفصيلية لعلم الأصوات النطقي من مختلف جوانبه.

أما الجانب الوظيفي للأصوات، فمما لا شك فيه أن علماء العربية مع بداية هذا التحول قد أولوه عناية خاصة، لأنه عندهم غاية التحليل الصوتي ومنتهاه، ذلك أن علماء الأصوات- شأنهم في ذلك شأن زملائهم في العلوم الأخرى- لا يقنعون بالنظر في المادة، وتحليل جزئياتها وعناصرها التركيبية، وإنما يعمدون بعد ذلك إلى مرحلة أعلى مستوى وأقرب إلى روح العلم، تلك المرحلة هي مرحلة التقعيد والتقنين.

لأجل ذلك، يسعى هذا البحث وهو غيض من فيض، إلى النظر فيما قدمه علماء العربية في هذه الفترة من تاريخ الدرس الصوتي، لإبراز بعض جهودهم البحثية وإحلالها موضعها المناسب، اعترافا بفضلهم وتأكيد سبقهم في بناء صرح الدراسة الصوتية العالمية.

الكلمات المفتاحية: فزيائية الصوت اللغوي، صفات الأصوات، فكرة الفونيم، ظواهر التقريب الصوتي...

تمهيد: من الحقائق المقررة لدى عدد من الدارسين المحدثين[1]، أن الدرس الصوتي عند العرب القدماء من الجوانب الأصيلة في التحليل اللساني بالمفهوم الحديث، ومن أقربها إلى المنهج العلمي؛ ذلك أن أساس هذا الدرس- في المقام الأول[2] – هو اعتماده في تحديد مدونة البحث على النظر العلمي في لغة القرآن الكريم، بالاستناد إلى القراءات القرآنية، ووجوهها الصوتية.

لذلك حظي باهتمام خاص، لعلاقته الوطيدة والقوية بقراءة النص الكريم، رغبة في الحفاظ على تجويده، وتلاوته غضا نديا، كما أقرأه أمين الوحي -جبريل عليه السلام- للرسول الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم.

ونظير ذلك عند غيرهم من الأمم، ما فعله علماء الهنود قديما؛ إذ أقاموا صرح دراستهم الصوتية خدمة لكتابهم المقدس "الفيدا"، فأنتجوا في وقت مبكّر جدا دراسة لأصوات السنسكريتية، على درجة عالية من الإتقان، شهد لهم بها مؤرخو اللغة كما شهدوا بذلك للدراسة الصوتية العربية، وهو ما ذكره عدد من المستشرقين منهم المستشرق الألماني "براجستراسر" في قوله: "ولم يسبق الغربيين في هذا العلم إلا قومان من أقوام الشرق، وهما: أهل الهند، يعني البراهمة، والعرب"[3].

وقد أخذ البحث الصوتي عند العرب منحى جديدا، خاصة منذ مطلع القرن الرابع الهجري، مع كوكبة من العلماء، أولوه عناية خاصة؛ حيث بذلوا فيه جهودا محمودة، جعلته في مصاف الدرس الصوتي الحديث، إذ جاءت دراساتهم على نحو من الدقة والجودة والشمول، قلّ نظيرها فيما عرفته البحوث اللسانية في تاريخ الأمم الأخرى.

كما أن المتتبع للمسار التاريخي للدرس الصوتي العربي، يقف على ذلك التحول الملموس الذي شهده مع بداية القرن الرابع الهجري، إذ توجه البحث فيه نحو

الإلمام بمختلف جوانب الدراسة، كما توجه نحو التدقيق في جزئيات مسائله المختلفة والمتعددة.

فبالرغم من ظهور الدراسة الصوتية في فترة مبكرة من تاريخ البحث الصوتي العربي، ورغم كثرة علمائها ووفرة مادتها، إلا أنها جاءت متناثرة متفرقة في ثنايا مؤلفاتهم الكثيرة، ولم تعرف جمع شتاتها والتدقيق في بحث مسائلها إلا في هذه الفترة المتأخرة. فقد أفرد لها العلماء –على اختلاف توجهاتهم– مؤلفات مستقلة على نحو ما فعله علماء التجويد، وإن جاء عملهم متأخرا من حيث الوضع النظري، فإنه كان أسبق من حيث الواقع العملي. وكذا ما قام به بعض فلاسفة المسلمين، أمثال "ابن سينا"، الذي أفرد للدراسة الصوتية كتابه الموسوم بـــ"أسباب حدوث الحروف". وما قدمه اللغويون خاصة، ومن أبرزهم في هذا الميدان "أبو الفتح عثمان بن جني"، الذي خصص للبحث الصوتي عملا كاملا من أعماله في مؤلفه: "سر صناعة الإعراب"، والذي يعتبره هو كتابا شاملا لمختلف المباحث الصوتية، حيث يرى بأنه: "يشتمل على جميع أحكام حروف المعجم، وأحوال كل حرف منها، وكيف مواقعه من كلام العرب"، ويذكر فيه "أحوال هذه الحروف في مخارجها ومدارجها، وانقسام أصنافها، وأحكام مجهورها ومهموسها، وشديدها ورخوها..، ومستويها ومكررها، ومستعليها ومنخفضها، إلى غير ذلك من أجناسها"[4].

وإنه لمن الجدير بالملاحظة أن يعدّ هذا الميدان من البحث في تلك الفترة علما مستقلا، قائما بذاته، وهو ما يقرره ابن جني، إذ يسميه "علم الأصوات والحروف"[5].

ومما لاشك فيه أن فرسان هذه المرحلة كثيرون كثرة فائقة، على اختلاف توجهاتهم وانتماءاتهم، واختلاف الأغراض التي بحثوا في المادة الصوتية لأجلها هذا فضلا عن كونهم موسوعـــات، عزّ نظيرها في تاريخ العلم والعلماء. من هؤلاء: النحويون والبلاغيون، من أمثال: ابن السراج (ت: 316 هـــ)، والزجاج

(ت: 311 هـ)، والزجاجي (ت:337هـ)، وابن سنان الخفاجي (ت:466هـ) والسكاكي (ت626هـ) وغيرهم. ومنهم علماء التجويد والقراءات القرآنية فجهودهم في هذا الميدان لا تنكر، فهي- كما شهد لها بعض المحدثين - تعدّ لبنة أساسية من لبنات الهيكل العام لتراثنا اللساني، ببعده الصوتي على نحو الخصوص[6]. من هؤلاء: مكي بن أبي طالب (ت: 437 هـ)، وعبد الوهاب القرطبي (ت: 461هـ)، وأبو عمرو الداني (ت: 444 هـ)، وابن مجاهد (ت:324هـ). ومنهم الفلاسفة أيضا، من أمثال: الفارابي(ت: 339هـ)، وابن سينا(ت: 428هـ)، وابن رشد (ت:595هـ)،..

كما أن المتتبع للمباحث الصوتية العربية منذ بداية هذا التحول، يدرك لا محالة أن علماء العربية كانوا على دراية بمختلف الظواهر التي تُعالج في المستوى الصوتي، على نحو يقترب مما يقرره الدرس الصوتي الحديث. يتبدى ذلك من خلال المباحث التي طرقوها، إذ يتصل بعضها بالجانب المادي للأصوات، والبعض الآخر بالجانب الوظيفي لها.

وبالرغم من كونهم لم يضعوا حدودا فاصلة بين هذين النوعين من الدراسة، إلا أن مباحثهم كانت تتصل في جانبها المادي بخصائص الأصوات النطقية والفيزيائية والسمعية، مع تركيزهم على الجانب النطقي الذي نال الحظ الأوفى من التحليل لسهولة معاينة الظاهرة الصوتية نطقيا، وإمكانية إخضاعها للتجربة والتحليل والاستنتاج.

أما الجانب الوظيفي للأصوات، فمما لا شك فيه أن علماء العربية قد أشبعوه دراسة، لأنه غاية التحليل الصوتي ومنتهاه، كما هو شأنه من منظور حديث؛ "ذلك أن رجال الأصوات- شأنهم في ذلك شأن زملائهم في العلوم الأخرى- لا يقنعون بالنظر في المادة، وتحليل جزئياتها وعناصرها التركيبية، وإنما يعمدون بعد ذلك إلى مرحلة أعلى مستوى وأقرب إلى روح العلم، تلك المرحلة هي مرحلة التقعيد

والتقنين"[7]، وهذا ما ميّز التحليل الصوتي عند علماء العربية، وإن لم يتجسّد بالمفهوم الحديث لتوزيع الدراسة على فروع متخصصة، ينتظمها جانبان من الدراسة هما: الدراسة المادية للأصوات، والدراسة الوظيفية لها.

لأجل ذلك عمدت إلى حصر المادة الصوتية عند علمائنا، وتوزيعها في إطار المباحث الصوتية الموافقة للتقسيم الحديث، لصعوبة معالجتها تحت عناوين متفرقة لا تحكمها منهجية مضبوطة، من شأنها أن تبيّن حدود هذا العلم ومجالاته، لأن البحث الصوتي عند العرب، رغم توجهه نحو التأليف المستقل، فإن مسائله لم توزّع على فروع متخصصة تنتظمه، كما أن جوانبه المتعددة، لم تُعرف مجتمعة في مؤلف واحد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن كثيرا من مسائله المتنوعة والمتباينة، جاءت مبثوثة في ثنايا مؤلفات عديدة، لا تختص بالدراسة الصوتية وحدها، على نحو ما قدمه ابن جنّي في مؤلفه "الخصائص". وأمر آخر غاية في الأهمية هو أن الدارسين للأصوات قد تعددت اختصاصاتهم وأهدافهم، فلم يكن الدرس الصوتي حكرا على علماء اللغة، بل تناوله علماء التجويد والفلاسفة والموسيقيون وغيرهم.

أولا- <u>الدراسة المادية للأصوات:</u>

1- الصوت وخصائصه الفيزيائية والسمعية: شهد الدرس الصوتي العربي تطورا غير مسبوق منذ القرن الرابع الهجري، حيث توسعت الدراسة لتشمل الحديث عن الطبيعة الفيزيائية للصوت، ابتداء من كيفية حدوثه وانتقاله والوسط الناقل له، ووصولا إلى العملية السمعية، هذا فضلا عن الدراسة التفصيلية لعلم الأصوات النطقي من مختلف جوانبه. وقد تناوله كل من الفيلسوف والموسيقي والبلاغي والناقد والنحوي وعالم التجويد...، إلا أن الذي فصّل فيه القول من كل هؤلاء هو الفيلسوف ابن سينا.

فابن سينا طرح مسألة حدوث الصوت طرحا دقيقا، يقترب كثيرا مما يقرره المحدثون في دراساتهم؛ فقد ذهب إلى القول بأن السبب الأساس في حدوث الصوت، هو عملية قرع جسم لجسم، أو قلع جسم وفصله عن آخر، وذلك بشروط تتعلق بهذا الجسم منها: الصلابة والملامسة وقوة القرع، بالإضافة إلى وجود الوسط الناقل، إذ يقرر أن: "...الصّوت بيّن واضح من أمره أنه يحدث، وأنّه ليس يحدث إلا عن قلع أو قرع. وأما القرع فمثل قرع صخرة أو خشبة فيحدث صوت. وأما القلع فمثل ما يقلع أحد شقي مشقوق عن الآخر، كخشبة ينحى عليها بأن يبين أحد شقيها عن الآخر طولا)[8]. ويرى أن مع كل قرع أو قلع حركة للهواء، أو ما يجري مجراه، إما قليلاً قليلاً أو برفق، وإما دفعه على سبيل تموج أو انجذاب بقوة[9]. وإذن فلكي يحدث الصوت لابد من حركة قوية من الهواء[10].

هذا التحديد يجعل ابن سينا يعتبر القرعَ والقلعَ سببي الصوت، والتموج فاعلاً للصوت[11]، ويخلص من ذلك إلى اعتبار الصوت "عارضاً يعرضُ من هذه الحركة الموصوفة يتبعها ويكون معها، فإذا انتهى التموج من الهواء...إلى الصماخ... أُحسَّ بالصوت"[12].

والجدير بالملاحظة في هذا النص، أن ابن سينا قد وضع شروطا للأجسام المادية المحدثة للصوت، وهي الصلابة والملامسة وقوة القرع. وهذه الشروط في اعتقادي ترتبط بمجال السمع عند الإنسان؛ أي أن هذه الشروط تُحدث الصوت الذي من خصائصه الأساسية وقوعه في مجال الإدراك، "ذلك أن حاسة السمع عند الإنسان قادرة على إدراك أصوات بمعدلات معينة للتردد، لها حد أدنى وحد أعلى. فمجال التردد للأصوات الممكن سماعها بوضوح، قد يبدأ من حوالي 20 دورة في الثانية، إلى20000 دورة في الثانية للشخص العادي"[13].

ولكن الدراسات الفيزيائية الحديثة للصوت، أثبتت أن الاهتزازات الحاصلة في الطبيعة ليست كلها قابلة قبولا فعليا لأن يدركها الجهاز السمعي للإنسان، لأن

الخصائص الفيزيائية لهذه الاهتزازات تعدّ سببا رئيسا في وقوع بعضها خارج حدود الإدراك السمعي البشري، سواء من حيث الشدة أو التواتر. لذلك فإن الشروط التي ذكرها ابن سينا، ليست ضرورية دائما لحدوث الصوت، "إن ورقة واحدة من أوراق الشجر مثلا، تسبب حين تتحرك اهتزازا في الهواء، ومن ثم فهي بحكم ماهيتها صوت، غير أن هذا الصوت ليس على درجة كافية من العلو، كما أن تردده ليس مناسبا بحال لكي تدركه الأذن. كذلك لا يستطيع أحد أن يسمع صوت العشب وهو ينمو، على الرغم من أن هذه الحركة تُصْدِرُ لا محالة نوعا من الضجة"[14].

ولعل ابن سينا قد قصد بذكر تلك الشروط، إلى ربط حدوث الصوت بمجال الإدراك السمعي لدى الإنسان. وهذا ما ذهب إليه أيضا إخوان الصفاء، فقد كان لهم رأي في الموضوع يماثل ما قرّره ابن سينا؛ إذ يعتبرون أن "كل جسمين تصادما برفق ولين لا تسمع لهما صوتاً، لأن الهواء ينسل من بينهما قليلاً قليلاً، فلا يُحدث صوتاً، وإنما يحدث الصوت من تصادم الأجسام، متى كان صدمُها بشدة وسرعة لأن الهواء عند ذلك يندفع مفاجأة...، فيَحدُث الصوت"[15].

ويقولون أيضاً في الجزء الثالث من رسائلهم: "والصوت قرع يحدث من الهواء إذا صدمت الأجسام بعضها بعضاً، فتحدث بين ذينك الجسمين حركة عرضية تسمى صوتاً"[16].

إنهم يقررون بأن حدوث الصوت يستلزم تصادم الأجسام بشدة وسرعة ويؤكدون نفي حدوثه عند تصادم الأجسام برفق ولين، مبررين ذلك بانسلال الهواء قليلا قليلا، دون أن يخلف وراءه أثرا لما ينعت بالصوت. وهذا ما تخالفه الدراسة الأكوستيكية الحديثة، التي أكدت حدوث مثل تلك الأصوات، إلا أنها أصوات واقعة خارج حدود الإدراك لدى الجهاز السمعي للإنسان.

ولأن الأصواتيين المحدثين وسّعوا من مجال الدراسة، لتشمل الحديث عن كيفية حدوث الأصوات بعامة، سواء منها ما يقع في مجال السمع أو ما يقع خارجه فإنهم وجدوا أن تعريف الصوت بوصفه اهتزازا أفضل من تعريفه تبعا للإدراك.

وللفارابي أيضا مساهمة في بيان جانب من الخصائص الفيزيائية للصوت وتحديدا جانب انتقاله، حيث يقول: "وأما كيف يتأدى (الصوت) إلى السمع، فإن الهواء الذي ينبو من المقروع، هو الذي يحمل الصوت، فيحرك بمثل حركته الجزء الذي يليه، فَيَقْبَلُ الصوتُ الذي كان قَبَلَهُ الأوَّلَ، ويحرك الثاني ثالثا يليه فَيَقْبَلُ ما قَبِلَهُ الثاني، فلا يزال هذا التداول ... حتى يكون آخرُ ما يتأدى إليه من أجزاء الهواء، هو الهواء الموجود في الصماخين (بالأذن) "[17].

هذا النص يكشف عن إدراك هذا العالم للجانب الفيزيائي للصوت؛ إذ يبين أن انتقال الصوت هو مرحلة وسطى ما بين مصدر الصوت – وقد أشار إليه بالمقروع (الآلة مثلا أو جهاز التصويت)– ومنتهاه، في إشارة منه إلى جهاز الاستقبال، وهو الأذن.

كما يبيّن النص بوضوح أن الهواء هو الحامل المادي للصوت، حيث ينتقل بالصوت وفقا لحركة جزيئاته خطوة خطوة إلى نهايته، وهو ما عبر عنه بعض اللغويين بقوله: "تنتقل الأصوات بسرعة من مصدرها إلى أذن السامع...، ولنفهم هذه الظاهرة، من المناسب أن نتصور الهواء بين آذاننا ومصدر الصوت، كما لو كان مقسما إلى عدد من الأجزاء. يسبب مصدر الصوت تحركات لأجزاء الهواء المجاورة له، وهذه التحركات تسبب اضطرابات في الهواء لمسافة أبعد من المصدر، وهذه الأجزاء بدورها تؤثر على ما جاورها... وهكذا يمتد التأثير بعيدا عن مصدر الصوت وينتشر خارجا، إلى أن يصل إلى أذن السامع"[18].

والنص بهذا المعنى، يقترب من المفهوم الدقيق لانتقال الصوت كما وضحه اللساني "أرنست بولجرام"، حيث يقول: "إن الجسم الذي هو مصدر الصوت، حين

يهتز لا يحدث إلا دفعا لجزيئات من الهواء الحامل للصوت، هو تلك الجزيئات الملامسة مباشرة لهذا الجسم المهتز، وحين يندفع كل جزيء منها بهذه الطريقة يضغط أمامه على الجزيئات المجاورة له مباشرة، صانعا بذلك أمامه ضغطا Compression، ومخلفا وراءه تخلخلا Raréfaction"[19].

هذا ما قدمه عدد من العلماء من غير اللغويين. أما أهل اللغة فلم يتوجه اهتمامهم نحو هذا الجانب من الدراسة الفيزيائية، باستثناء بعض الإشارات المتناثرة في مباحثهم ذات الصلة بالجانب النطقي، على نحو ما ورد على لسان ابن جنّي في معرض حديثه عن ميكانيكية الجهاز النطقي، حيث يقول: "...فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة، وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات، وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه...، ونظير ذلك أيضا وتر العود، فإن الضارب إذا ضربه وهو مرسل سمعت له صوتا، فإن حصر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه، أدى صوتا آخر..، ثم كذلك كلما أدنى أصبعه من أول الوتر تشكلت لك **أصداء** مختلفة، إلا أن الصوت الذي يؤديه الوتر غفلا غير محصور، تجده بالإضافة إلى ما أداه وهو مضغوط محصور، أملس مهتزا، ويختلف ذلك بقدر قوة الوتر وصلابته، وضعفه ورخاوته، فالوتر في هذا التمثيل كالحلق..."[20].

فابن جني يذكر مصطلح **أصداء**، وهو يعني رجع الصوت يرده جسم ما[21]. وهذا الصدى يحدث نتيجة الضغط والحصر الناتجين من الصنعة، وهو شبيه بما يحدث في الحلق والفم. والدرس الفيزيائي الحديث يؤكد على هذه الخاصية، التي ترتبط أساسا بالموجات الصوتية عند صدورها عن الحنجرة؛ فهذه الموجات لا تخرج خارج الجهاز الصوتي كما تكون عند توليدها، "إذ يعترضها الهواء الموجود داخل التجويف الحلقي والتجويف الفموي، والتجويف الأنفي، هذه التجاويف تؤثر على التردد الأساس. وهذا يعني أن التجاويف المذكورة تضفي على التردد الأساس سمات لم تكن موجودة فيه أصلا...، أما التجاويف التي تعلو الحنجرة فتقوم بعملية

الرنين Résonance وينتج عن الرنين ما يعرف بالنطق الرنينية Formants. إذ إن التجاويف التي تعلو الحنجرة تقوم برفع شدة ترددات معينة، وخفض شدة ترددات أخرى، فالترددات ذات الشدة العالية هي النطق الرنينية"[22] .

2 – **الصوت اللغوي والآلة المصوتة:** لقد اهتم علماء العربية ببيان طبيعة الصوت اللغوي، وذلك من خلال تمييزهم بين النَّفَس والصوت والحرف. فالأصوات حسب إخوان الصفاء، صنفان: حيوانية وغير حيوانية. وغير الحيوانية أيضاً نوعان: طبيعية وآلية، فالطبيعية هي كصوت الحجر والحديد...، والآلية كصوت الطبل والبوق والأوتار. والحيوانية نوعان: منطقية وغير منطقية، فغير المنطقية هي أصوات سائر الحيوانات غير الناطقة، وأما المنطقية فهي أصوات الناس، وهذه نوعان أيضا: دالة وغير دالة. فغير الدالة كالضحك والبكاء والصياح وبالجملة كل صوت لا هجاء له. وأما الدالة فهي الكلام والأقاويل التي لها هجاء[23].

وبناء على هذا التصنيف، فإن الصوت كما يقول ابن سنان الخفاجي: "عام ولا يختص"[24]. وإذا كان عاماً ولا يختص، فالحرف هو الصوت اللغوي، نستشف ذلك من تعريف ابن سينا للحرف باعتباره هيئة تعرض للصوت[25]، فهو يرى أن الصوت عبارة عن سلسلة من الذبذبات الهوائية مترابطة الحلقات، والحرف إيقاف لهذا الصوت وقطع له. إنه عارض للصوت عروض الآن للزمان، والنقطة للخط[26].

وهذا ما ذهب إليه ابن جني، إذ يقول: "اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفَس مستطيلاً متصلاً، حتى يعرض له في الحلق والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً"[27]. ويقول أيضاً: "وذلك أن الحرف حدّ منقطع الصوت وغايته وطرفه، كحرف الجبل ونحوه"[28].

فالحرف إذاً هو ما يعرض للصوت، فينقطع استمراره واتصاله وامتداده واستطالته. وما يعرض للصوت هو اتصال عضو بعضو آخر من أعضاء النطق

كاتصال الحلق واللسان والشفة بما يقابلها من أعضاء، فتشكّل حواجز وعوارض توقف زمن الهواء وتقطعه.

وإذا فالقطْع لا يحدث إلا بحركة ما من أعضاء النطق، في موضع ما من الآلة المصوتة. لذلك عرّف القراء الحرف باعتباره صوتاً معتمداً على مقطع محقق وهو أن يكون اعتماده على جزء معين من أجزاء الحلق واللسان والشفة[29].

والمقصود بالمقطع في المواضع السابقة هو المخرج، وهو عبارة عن الحيّز المولّد للحرف، أو موضع ظهور الحرف وتمييزه عن غيره[30]. إن المخرج – كما ذكره ابن يعيش (ت643هـ)– هو المقطع الذي ينتهي الصوت عنده[31]. إذ حيث ينقطع صوت الحرف يكون ذاك هو مخرجه.

ويمكننا أن نقف على تحديد دقيق لكيفية حدوث الصوت في الآلة المصوتة، من خلال ما قدمه ابن جني، إذ يستوقفنا فصل في كتابه سرّ الصناعة سماه "ذوق أصوات الحروف"، يقول فيه: "وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحرف أن تأتيبه ساكناً لا متحركاً، لأن الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقره، وتجتذبه إلى جهة الحرف التي هي بعضه، ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله، لأن الساكن لا يمكن الابتداء به، فتقول: الكْ، اقْ، اجْ، وكذلك سائر الحروف. إلا أن بعض الحروف أشد حصراً للصوت من بعضها، ألا تراك تقول في الدال والطاء واللام: ادْ، اطْ، الْ، ولا تجد للصوت منفذاً هناك..)[32].

نتبين من قول ابن جني إدراكه الواضح لأهم ما يميز الحروف الصامتة من الصائتة؛ فالأولى قد يقف هواؤها وقوفاً تاما، فلا تجد للصوت منفذاً هناك، والثانية (حروف المد) يمتد فيها الهواء في مجراه ويستمر في الامتداد، لا يمنعه شيء حتى ينتهي بانتهاء نطق الصوت نفسه، يتابع فيقول: "فإن اتسع مخرج الحرف حتى لا يقتطع الصوت عن امتداده واستطالته، استمر الصوت ممتداً حتى ينفد.. فيفضي

حسيراً إلى مخرج الهمزة، فينقطع بالضرورة عندها إذ لم يجد منقطعاً فيما فوقها والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة: الألف ثم الياء ثم الواو)[33].

أ- وصف أعضاء النطق: حرص علماء العربية على كتابة مقدمة في وصف أعضاء الجهاز النطقي، حيث عرفوا تلك الأعضاء، وأدركوا دورها في تكوين الأصوات، ... "ولم يغب عن إدراكهم منها شيء، سوى ما لا يقع تحت النظر والملاحظة الذاتية، وإن كانوا قد أحسّوا بأثره الصوتي وميزوه عن غيره"[34].

والجدير بالذكر أن علماء هذه الفترة من تاريخ البحث الصوتي، قد أفادوا كثيرا من المادة الصوتية التي تركها أسلافهم، إلا أن دراستهم كانت أعمق وأدق وأشمل في مختلف مباحثها، ومنها تناولهم لأعضاء الجهاز النطقي، وآلية إحداثه للأصوات؛ فهم لم يكتفوا بذكر تلك الأعضاء، بل قدموا وصفا دقيقا لها، وتحديدا لوظائفها.

نجد هذا عند عدد من العلماء، منهم عبد الوهاب القرطبي، الذي استخدم عبارة (آلة النطق)، فقد ذكرها في مواضع عدة، منها قوله: "فأما وجوب إظهار النون عند حروف الحلق، فلأن حروف الحلق تباعدت عن مخرج النون، وهي محتاجة إلى تمكّن آلة النطق بها"[35]. وتحدث مكّي بن أبي طالب عن الآلة المصوتة حين استخدم كلمة عضو وجمعها أعضاء، حيث يقول: "ولا يعتمد اللسان عند خروجها على عضو من أعضاء الفم"[36].

لقد تأكد لدى علمائنا القدماء الاهتمام بالأعضاء المحدثة للنطق، وهي في مجملها أقسام ثلاثة: تتمثل في أعضاء ما تحت الحنجرة، والحنجرة، وتجاويف ما فوق الحنجرة.

أما أعضاء ما تحت الحنجرة فتتمثل في: القفص الصدري، والحجاب الحاجز والرئة والقصبة الهوائية. وأهم هذه الأعضاء هو الرئة، كونها الدافع الأساسي لتيار هواء الزفير، المولّد للصوت، وقد تحدّث عنها الفارابي في قوله: "الهواء الذي

يجذبه الإنسان إلى رئتيه وداخل صدره ...، ثم يدفعه منها إذا سخن إلى الخارج فإذا دفع الإنسان هواء التنفس إلى الخارج جملة واحدة وتوقف، لم يحدث صوت محسوس. وإذا حصر الإنسان هذا الهواء في **رئتيه** وما حواليها من أسفل الحلق وسرّب أجزاءه إلى الخارج ... حدث حينئذ نغم، بمنزلة ما يحدث لسلوك الهواء في المزامير"[37].

وأما القصبة الهوائية، فقد ذكرت بمسميات عديدة، خاصة لدى علماء التجويد منهم ابن البناء (ت 471 هـ) الذي سماها قصبة الحلق، حيث ذكرها في معرض حديثه عن عيوب الأصوات، يقول: "وأما عيوب الأصوات التي يجب أن يتجنبها القارئ، الجهر الصاعق...، وإخراج الصوت من **قصبة الحلق** مختلسا إلى الشفة"[38].

وأما الحنجرة فهي صندوق التصويت، وقد ذكرها ابن البناء أيضا في نصه السابق، لدى حديثه عن عيوب نطق الأصوات، وتحديدا ما سماه "الترعيد"، إذ يقول: "وصفته تعليق الصوت بترديد **الحنجرة**، كأنه يروم منزلة التطريب، والحدر في إفساد الحروف، ومنع لمدرج الكلام من إمضائها على سواء"[39].

وأما تجاويف ما فوق الحنجرة، فتبدأ بالحلق، وهو عند الحدثين: الفراغ الواقع بين الحنجرة والفم. وقد تردد ذكره عند عدد من علماء العربية، بوصفه عضوا أوليا في إصدار أعمق الأصوات، خاصة لدى علماء التجويد والقراءات القرآنية ومنهم الإمام الداني، إذ يقسمونه على نهج سابقيهم إلى: أقصى الحلق، ووسط الحلق، وأدنى الحلق[40].

ويلي الحلق التجويف الفموي، وهو فراغ يمتد من الشفتين إلى أقصى اللسان يعلوه ما يسمى بالحنك الأعلى، وهو ما تحدّث عنه قدماء العربية، لاعتبارهم إياه عضوا أساسيا في إحداث العديد من الأصوات الفموية، في مقابل الحنك الأسفل الذي لا يكاد يسهم بشيء في آلية التصويت الإنساني. وقد ذُكر لدى المحدثين بعدة

تسميات منها: سقف الفم، والحنك الأعلى وغيرها[41]. وسماه بعض علماء التجويد "الحنك الأعلى"، سيرا على خطى أسلافهم. ومنهم الإمام مكي بن أبي طالب، حيث أشار إليه في بعض نصوصه باسم: "نطع الغار الأعلى وسقفه"[42].

ويميز علماء العربية في التجويف الفموي، عددا من الأعضاء الهامة في إحداث الأصوات، منها اللهاة التي تتموضع في أقصى الحنك، أي في الجزء اللين منه. هذا العضو يوصف لدى المحدثين بكونه عضلة صغيرة "تسهم في فتح ممر التجويف الأنفي أو غلقه. فبعد أن يعبر الهواء تجويف الحلق، قد يَسُدُ غشاءُ الحنك أمامه مجرى التجويف الأنفي، فيخرج الهواء من الممر الفموي، ويكتسب سمة مميزة هي الفموية (Oralité). وقد ينخفض الغشاء فينفتح التجويف الأنفي أمام الهواء انفتاحا كبيرا، فيكتسب الصوت سمة الأنفية (Nasalité)"[43].

وقد تحدث عن هذا العضو عدد من علماء العربية، منهم مكي بن أبي طالب (ت 437هـ) وأبو العلاء الهمذاني العطار (ت569هـ). حيث حدد مكي موضعها بأنها "بين الفم والحلق"[44]، وذكرها أبو العلاء في معرض حديثه عن الأصوات اللهوية، يقول: "واللهوية حرفان: القاف والكاف، سميا بذلك لأنهما من **اللهاة**، وهي اللحمة المسترخية كالزّنمة في أقصى الحلق..."[45].

ولا تقل أهمية الشفتين عن غيرهما من أعضاء الآلة المصوتة، لذلك تحدث علماء العربية عن دورهما في النطق، خاصة في موضع درس ظاهرة الإشمام يقول القرطبي: "أما الإشمام فهو يشارك الرّوم في أنه إبقاء جزء من الحركة لكن بعد قطع الصوت قبل الإتيان بهذا الجزء، ... واختص به المرفوع والمضموم دون المكسور والمجرور، والمفتوح والمنصوب، لأن الضم من **الشفتين**. وإذا أومأ **بشفتيه** نحوه أمكن الإيماء وأدركه الرائي، وإن انقطع الصوت. لأن الرائي يدرك مخرج هذه الحركة وهو الشفتان"[46].

وللأسنان أيضا دورها في إحداث الأصوات اللغوية، وقد أحصاها علماء العربية وصنفوها، وبينوا أهميتها في إحداث النطق الصحيح لتلك الأصوات في حالة سلامتها من العيوب. يقول العطار: (ت569هـ): "ولا سبيل إلى ما سقناه عن حمزة وأبي بكر بن مجاهد-رحمهما الله- إلا بالمواظبة على القراءة، ورياضة اللسان ...وإن انضاف إلى ذلك حسن الصوت وجودة الفكّ، ... وصحة الأسنان كان الكمال"[47].

أما التجويف الأنفي، فقد أشار إليه علماؤنا قديما بمصطلح "الخياشيم"، إذ ورد ذكره في مصنفاتهم لدى حديثهم عن الصوتين الأنفيين: (النون بنوعيها: الأصلية والخفيفة، والميم).

والجدير بالذكر أن عددا من فلاسفة المسلمين، قد ساهموا بجهد لا ينكر في وصف جهاز التصويت الإنساني، حيث حددوا أعضاءه بدقة، وبينوا آلية عمل كل منها، وهم بذلك مهّدوا لاستقرار المصطلح الصوتي ودلالته عبر العصور. من هؤلاء الطبيب الفيلسوف "ابن سينا" الذي قدّم بحثا مفصلا في هذا الموضوع لصلته بميدان تخصصه، الذي يتقاطع مع علم التشريح، وعلم وظائف الأعضاء لذلك استطاع تحديد الأعضاء المكونة للجهاز الصوتي بدقة، كما بيّن وظيفة كل عضو، بشرح شكله، وبيان موضعه، وكيفية مرور الهواء من خلاله، حيث أفرد للحديث عنها فصلا كاملا في رسالته "أسباب حدوث الحروف". كما ذكرها في مؤلفات أخرى له، إذ تحدث عن الحجاب الحاجز، والرئتين، وقصبة الرئة والحنجرة، ولسان المزمار، والعظم اللامي، واللهاة، والأنف، والحنك، واللسان والأسنان، والشفتين[48].

أما اللغويون، فيعدّ ابن جني عند كثير من الدارسين[49]، الرائد في هذا الميدان فهو أول من عرض لجهاز النطق فشبهه بالناي وبوتر العود، ليقدم صورة عن العملية الطبيعية لإنتاج الكلام، وليوضح تقسيم الأصوات حسب المخارج ...، وهذه

الصورة التي قدمها أبو الفتح تعتبر خطوة متقدمة جدا في الدرس اللغوي[50]، يقول ابن جني : "وقد شبه بعضهم الحلق والفم بالناي، فإن الصوت يخرج فيه مستطيلاً أملس ساذجاً،... فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة وراوح بين أنامله، اختلفت الأصوات، وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم،... كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة"[51].

ثم يبيّن ابن جني في وضوح سرّ اختلاف الأصوات الخارجة من آلة التصويت حيث يصف ميكانيكية النطق بقوله: "ونظير ذلك أيضاً وتر العود، فإن الضارب إذا ضربه وهو مرسل سمعت له صوتاً، فإن حصر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه أدى صوتاً آخر، ... ثم كذلك كلما أدنى إصبعه من أول الوتر تشكلت لك أصداء مختلفة، ... ويختلف ذلك بقدر قوة الوتر وصلابته وضغطه ورخاوته، فالوتر في هذا التمثيل كالحلق،.. وجريان الصوت فيه غفلاً غير محصور كجريان الصوت في الألف الساكنة، وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع كالذي يعرض للصوت في مخارج الحروف من المقاطع،..)[52].

ولم يقف علماء العربية في هذه الفترة عند حدود الإشارة إلى أعضاء النطق بل إن الاهتمام بآلة التصويت وآلية إحداثها للأصوات، دفعت بأحد هؤلاء العلماء وهو "السكاكي" إلى وضع رسم تخطيطي لجهاز النطق، بدءا من الحلق وانتهاء بالشفتين.

هذا الرسم التخطيطي يشتمل على أغلب الأعضاء التي تشترك في إحداث العملية النطقية، قدمه "**السكاكي**" في فاتحة كتابه الموسوم بـــ"**مفتاح العلوم**" لدى تصنيفه للأصوات العربية.

وقد قام بتوزيع هذه الأصوات على أعضاء النطق المكونة لآلة التصويت حيث نسبها لمخارجها وأحيازها وفقا لتصوره، واعتمادا على ذوقه وملاحظاته الذاتية.

ب – مخارج الحروف وصفاتها: يعود الفضل في تحديد مخارج الحروف وصفاتها، للعالم اللغوي الخليل بن أحمد الفراهيدي، ثم لتلميذه العلامة سيبويه، فقد كان لهما الأثر الكبير في فكر من جاء بعدهما من اللغويين.

لذلك فإن اللغويين التابعين على مذهبين؛ مذهب أخذ بعضَ آرائه من المعجميين ممن سار على خطى الخليل وهم قلّة، ومذهب سار على خطى النحاة من أتباع سيبويه وهم الجمهور.

ومحور الخلاف هو مخرج الحروف الجوفية، والتي تسمى حروف المدّ واللين (الألف المفتوح ما قبلها، والياء المكسور ما قبلها، والواو المضموم ما قبلها) فالخليل ومن تبعه يرون أن لها مخرجا مستقلا بها، وبذلك يكون عدد المخارج عندهم سبعة عشر مخرجا، يقول الخليل في تحديد مخارج الحروف: "في العربية تسعة وعشرون حرفا: منها خمسة وعشرون حرفا صحاحا، لها أحياز ومدارج وأربعة أحرف جُوَف، وهي الواو، والياء، والألف اللينة، والهمزة. وسميت جُوَفًا لأنها تخرج من الجوف، فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان، ولا من مدارج الحلق، ولا من مدرج اللهاة، إنما هي هاوية في الهواء، فلم يكن لها حيّز تنسب إليه إلا الجوف"[53].

وأما سيبويه ومن سار على نهجه، فيرون أن مخارج الحروف ستة عشر مخرجا، وذلك بإسقاط مخرج الحروف الجوفية وهي حروف المدّ واللين، إذ جعلوا مخرج (الألف اللينة) من أقصى الحلق، وجعلوا (الواو المدية) من مخرج الواو المتحركة من الشفتين، وجعلوا (الياء المدية) من مخرج الياء المتحركة من وسط اللسان. وقد قال بهذا الرأي[54]: ابن جنّي، وابن السراج، والزجاجي... وغيرهم.

واعتمادا على مواضع النطق في الآلة المصوتة وكيفية مرور الهواء، يقسم العلماء الحروف إلى قسمين: صامتة ومصوتة "فالمصوتة حروف المد واللين، أي

حروف العلة الساكنة التي حركةُ ما قبلها مجانسة لها. والصامتة ما سواها، سواء كانت متحركة أو ساكنة، ولكن ليس حركة ما قبلها من جنسها"[55].

يتضح لنا من خلال هذا التصنيف أيضا أن علماءنا يفرقون بين صنفين من الأصوات وهما: الصوامت (consonnes)، والصوائت (voyelles)، حسب مجرى الهواء عند النطق؛ فالصوائت هي التي لا يحدث اعتراض للهواء عند النطق بها فمخرجهما يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرها، أي الصوامت.

والدرس الصوتي الحديث يقسم الأصوات على هذا الأساس، إذ يحدد "الصوت الصائت بأنه الصوت المجهور الذي يحدث في تكوينه أن يندفع الهواء في مجرى مستمر خلال الحلق والفـم، وخلال الأنف معهما أحيانا، دون أن يكون ثمة عائق (يعترض مجرى الهواء اعتراضا تاما)، أو تضييق لمجرى الهواء من شأنه أن يحدث احتكاكا مسموعا. وأيُّ صوت لا يصدق عليه هذا التعريف يعد صوتا صامتا.."[56].

وفي بيان ذلك وتدقيقه يقول ابن سينا بأن الحروف الصامتة ناتجة عن "حبسات تامة للصوت، أو الهواء الفاعل للصوت يتبعها إطلاق دفعة...لأن زمان الحبس التام لا يمكن أن يَحدث فيه صوت حادث عن الهواء وهو مسكّن بالحبس"[57]، لذلك سماها ابن سينا بـــ "التي لا تمتدّ البتة"[58]. أما المصوتات فهي من "الهيئات العارضة للصوت"[59]، وتتميز بقابلية التمديد[60].

والفكرة عند ابن جني أوضح وأدق؛ فقد عقد في مؤلفه (سرّ صناعة الإعراب) فصلا خاصا تحت عنوان: (ذوق أصوات الحروف)، يبيّن فيه كيف نتذوق الحروف عند النطق بها، حيث يأتي بأهم خواص الحروف المختلفة، اعتمادا على كيفية مرور الهواء حال النطق بها، فيقرر أن الهواء قد يقف وقوفا تاما كما في الدال والطاء، وهي من الأصوات الشديدة، وقد يمر ولكن بإحداث حفيف مسموع أو ما سماه (صويتا)، كما في السين والذال وغيرها من الأصوات المعروفة

بالاحتكاكية، غير أن مجرى الحروف قد يتسع، فيمرّ الهواء دون عائق وذلك في حالة الألف والواو والياء[61].

وهذا الوصف الدقيق في التمييز بين صنفي الأصوات لدى أبي الفتح، قد أثار إعجاب كثير من اللغويين المحدثين، حيث عبّر أحدهم عن ذلك بقوله: "ليس هناك تعبير أوضح ولا أبرع من الذي جاء به هذا العبقري، من بيان الفروق الأساسية بين الأصوات الصامتة وحروف المدّ"[62].

وينبغي أن نشير كذلك إلى أن علماء العربية لم يكتفوا بالتمييز بين الصوامت والمصوتات (حروف المدّ)، بل إنهم ميزوا بين صنفي المصوتات (القصيرة والطويلة). والفرق الأساسي بينهما – رغم اتفاقهما في كلّ الخصائص– يكمن في المدة الزمنية لحدوث كل صنف منهما؛ فالقصيرة عند فخر الدين الرازي (أبعاض المصوتات)[63]، ذلك أن الألف الممدودة المصوتة، تقع في ضعف أو أضعاف زمان الفتحة، وأن الفتحة تقع في أصغر الأزمنة التي يصح فيها الانتقال من حرف إلى حرف. وكذلك نسبة الواو المصوتة إلى الضمة، والياء المصوتة إلى الكسرة كما يقول ابن سينا[64]. والذي توصل إليه الدرس الصوتي الحديث لا يختلف كثيرا عمّا قرره هؤلاء الأفذاذ منذ قرون خلت.

وقد كانت هذه الدراسة الأبرز عند علماء العربية؛ ذلك أن دراسة صفات الأصوات قد اتخذت معيارا للتمييز بينها، فمعيار المخرج وحده لا يمكن أن يعطي مميزات تفرّد كل صوت عن غيره، لأن كثيرا من الأصوات تشترك مع غيرها في المخرج، ولولا صفاتها لما تميزت من بعضها البعض. وأهم هذه الصفات يتمثل في الآتي:

– **الشدة والرخاوة والتوسط:** الأصوات الشديدة هي التي لا يجري فيها الصوت، وقد حددها القدماء بثمانية أصوات هي: (الهمزة، القاف، الكاف، الجيم

الطاء، الدال، التاء، والباء)، وهي أصوات لا يمكن مد الصوت معها، وقد مثّلوا لها بكلمة (الحجّ)، إذ لا يمكن مدّ الصوت في حال النطق بالجيم[65].

أما الرخوة فهي على العكس من الأصوات الشديدة، إذ إن الصوت يجري فيها سهلا، وقد حدّدت بثلاثة عشر صوتا: (الهاء، الحاء، الغين، الخاء، الشين، الصاد الضاد، الزاي، السين، الظاء، الثاء، الذال، والفاء). فإن أردت مد الصوت معها فإنه يجري بسهولة، وقد مثل العلماء لها بالكلمين: (الطس) و(انقض)، إذ إن النطق بها لا يمنع من أن يجري الصوت معها[66].

أما صفة التوسط، فقد أطلقها علماء العربية على الأصوات التي جمعت بين الشّدة والرخاوة، ولذلك سميت بالأصوات البينية. وتتمثل في: (اللام، النون، العين الميم، والراء)، وقد أضاف إليها ابن جني الحروف المدية: (الألف والواو والياء)[67].

ولا يكاد يختلف ما قدمه الدرس الصوتي الحديث عن هذا الذي قدمه علماء العربية في تقسيم الأصوات إلا في التسمية؛ إذ سموا الشديد بالانفجاري، والرخو بالاحتكاكي، والمتوسط بالمائع[68]. غير أن هناك اختلافا بين الفريقين في وصف بعض الحروف بإحدى هذه الصفات؛ فالجيم في المفهوم القديم شديدة وعند المحدثين مركبة (dj)، والضاد عند القدماء رخو وعند المحدثين انفجاري، والعين صوت متوسط عند القدماء، في حين وصفه المحدثون بالاحتكاكي، والسبب في هذا الاختلاف قد يعود إلى التطور الصوتي الذي تعرضت له هذه الأصوات.

– **الجهر والهمس:** الحروف المجهورة عند القدماء، هي الحروف التي أشبع الاعتماد في مواضعها، ومنع النّفَس أن يجري معها، حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت، وتتمثل في: (العين، الغين، القاف الجيم، الباء، الظاء، اللام، الزاي الراء، النون، الذال، الدال، الضاد، الميم، الواو، الطاء، الهمزة والألف)[69]. وأما المهموسة فهي حروف ضعف الاعتماد عليها في مواضعها حتى جرى معها

النفس، وهي عشرة أحرف: (الهاء والحاء والخاء والكاف والسين والشين والثاء والصاد والتاء والفاء) ويجمعها لفظ (سكت فحثه شخص)[70].

وهذا المعيار في الفصل بين الجهر والهمس عند القدماء، يختلف عن معيار المحدثين، اللذين فرقوا بين الاثنين اعتمادا على حركة الوترين الصوتيين من عدمها؛ فالجهر يحدث باهتزاز الوترين الصوتيين، أما الهمس فيحدث بانفراجهما ومرور الهواء دون اعتراض.

والواقع أن تعريفات القدماء لصفتي الجهر والهمس تتسم بالتعقيد، إلى درجة يصعب معها التعرف على ما يقصدونه. وقد يعود ذلك إلى عدم اكتشافهم لطبيعة الوترين الصوتيين وآلية عملهما، باستثناء ما قدمه ابن سيناء عن مكونات الحنجرة اعتمادا على معطيات علم التشريح.

– **الاستعلاء والاستفال:** تحدث حروف الاستعلاء "بأن يتصعّد الصوت بالحرف في الحنك الأعلى، وهي سبعة حروف.. الخاء والغين والقاف والضاد والطاء والظاء والصاد"[71]. وأما المستفلة فالنطق بها خلاف النطق بالمستعلية، وتحدث بأن لا يتصعد الصوت بالحرف، وهي باقي الأصوات عدا المستعلية[72] .

وتحديد الاستعلاء والاستفال على هذا النحو، مفهوم يقترب مما قدمه المحدثون لهاتين الصفتين؛ فالحروف المستعلية، هي التي يستعلي اللسان عند تلفظها، ويرفع نحو الحنك..، والمستفلة أي التي يستفل اللسان عند تلفظها[73].

– **الإطباق والانفتاح:** تحدث الأصوات المطبقة – كما وصفها القدماء – بوضع اللسان في مواضع النطق بهذه الأصوات، ثم انطباقه إلى محاذاة الحنك الأعلى من اللسان. فإذا وُضع اللسان في هذا الموضع كان الصوت محصورا فيما بينه وبين الحنك، مما يجعل الحرف متصفا بالإطباق، ويصدق هذا الوصف على الأصوات الأربعة: (الصاد والضاد والطاء والظاء).

أما المنفتحة، فإن اللسان عند النطق بها لا يطبق على الحنك، ويتمثل هذا الصنف في الأصوات الباقية باستثناء المفخمة. وهذا المفهوم درج عليه القدماء منذ سيبويه، وقد عبّر عنه بعضهم بقوله: "الإطباق أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقا له، فينحصر الصوت فيما بين اللسان والحنك إلى مواضعهن، وهي أربعة أحرف الصاد والضاد والطاء والظاء...، والانفتاح أن لا تطبق ظهر لسانك برفعه إلى الحنك، فلا ينحصر الصوت، والأصوات المنفتحة هي ما سوى أصوات الإطباق"[74].

– **الاستطالة:** المراد بهذه الصفة، أن يستطيل مخرج الصوت فيتصل بمخرج صوت آخر، وقد أطلق علماء العربية هذه الصفة على صوتي الضاد والشين، وهذا ما اتفق عليه علماء العربية، اقتداء بما قرّره سيبويه؛ حيث يقول عن الضاد إنها "استطالت لرخاوتها حتى اتصلت بمخرج اللام"[75]، ويقول في وصف الشين بأنها "استطالت حتى اتصلت بمخرج غيرها"[76].

ولم تطلق هذه الصفة عند المحدثين إلا على صوت الضاد القديمة، لأن التطور الصوتي للضاد أبعدها عن هذه الصفة، هذا فضلا عن ابتعاد صوت الشين أصلا عنها[77].

– **التفشي:** هذه صفة تخص صوت الشين، لأنه يحدث في النطق بها انتشار الهواء دون غيرها من الأصوات؛ فعند اتصال اللسان بالحنك الأعلى لا يسمح بمرور الهواء إلا بكمية معينة منه، إذ يتوزع هذا الهواء على جانبي الفم، مما يدل على أن التفشي هو انتشار في هواء الصوت حتى يتصل بالمخارج الأخرى. وهذا مذهب القدماء منذ الخليل، غير أن الخليل لم يوضح معنى التفشي، وإنما اكتفى بالقول أنها صفة للشين[78]. بينما يسميها بعض علماء التجويد المخالطة، لأنها "تخالط ما يتصل بها في طرف اللسان كالشين والضاد، وذلك أن الشين تتفشى في

الفم حتى تتصل بمخرج الضاد... ومعنى التفشي انتشار الصوت بها عند النطق"[79].

وقد قال بهذا اللغويون المحدثون، مع محاولتهم شرح معنى التفشي، إذ وصفوه بأنه إشغال الصوت مساحة أعرض في اللسان، مما يؤدي إلى هذا الانتشار[80].

– **الصفير:** هو الحدة في الصوت كخروج الهواء من منفذ ضيق، وهي صفة أطلقها علماء العربية على أصوات ثلاثة: (الصاد والسين والزاي). وقد أوضح المبرد معنى هذه الصفة بدقة؛ حيث يقول: "ومن طرف اللسان وملتقى حروف الثنايا حروف الصفير، وهي حروف تنسل انسلالا، وهي السين والصاد والزاي"[81].

– **الغنة:** وهي صفة للنون والميم، ويراد بها الصوت الصادر عن الخيشوم[82]. والمحدثون يتفقون مع القدماء في ذلك؛ إذ يذهبون إلى أن الهواء أثناء حدوث هذه الأصوات لا يمر بسبب حبسه في موضع الفم، غير أنه يتمكن من النفاذ عن طريق الأنف عند انخفاض الحنك اللين[83].

– **القلقلة:** يراد بها الأصوات التي "تحفز في الوقف وتضغط من مواضعها وهي: القاف والجيم والطاء والدال والباء"[84]. ويرى بعض المحدثين أن السمات المشتركة التي سوَّغت جمع هذه الأصوات، وضم بعضها إلى بعض في فئة واحدة هو كونها –عند القدماء– شديدة مجهورة[85]. وسميت بأصوات القلقلة لأنه تجب قلقلتها، أي تحريكها تحريكا خفيفا إذا جاءت ساكنة.

– **اللين:** هذه الصفة تختص بها الحروف (الواو والياء والألف)، لأن مخرجها يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرها، يقول ابن جنّي: "والحروف الممطولة هي الحروف الثلاثة اللينة المصوتة وهي: الألف والياء والواو". وقد شرح لفظ (المصوتة) بقوله: "فإن الصوت مصدر صات الشيء يصوّت صوتا فهو صائت .. ويقال رجل صات أي شديد الصوت"[86].

ولا يبتعد المحدثون عن هذا الوصف، فهذه الأصوات عندهم تحمل درجة انفتاح واسعة عند النطق بها، حيث تمتلك قوة الوضوح السمعي sonority[87].

– **التكرار:** صفة تميز صوتا واحدا هو الراء، إذ يوصف بأنه: "حرف شديد جرى فيه الصوت لتكريره وانحرافه إلى اللام... ولو لم يكرر، لم يجر الصوت فيه وهو الراء"[88]. وهذا الوصف يتفق حوله غالبية العلماء منذ سيبويه، ويذهب بعضهم إلى إعطاء تعليل لحدوث هذه الصفة، فيقول: "ذلك أنك إذا وقفت عليه رأيت طرف اللسان يتعثر بما فيه من التكرار، ويرتعد لما هناك منه"[89].

– **الانحراف:** صفة تميز صوت اللام، لأنه عندهم "حرف شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت، ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة وهو اللام، وإن شئت مددت فيها الصوت وليس كالرخوة، لأن طرف اللسان لا يتجافى عن موضعه"[90].

إن التصنيف السابق لخصائص الأصوات عند علماء العربية القدماء، لا يخرج في مجمله عن الإطار العام للدرس الصوتي الحديث، غير أنه يركز على الجانب النطقي دون بحث الخواص الفيزيائية والسمعية كما هو الحال عند المحدثين، "وإنما جاء اهتمامهم الأكبر بالجانب النطقي للأصوات، تساوقا مع مبادئهم وتوجهاتهم المتمثلة في رسم الحدود والضوابط الدقيقة لأداء القرآن الكريم صوتيا، بصورة تحفظ أصوله، وتحميه من الخلط أو التباين في الأداء"[91].

ثانيا– الدراسة الوظيفية للأصوات:

1– ملامح فكرة الفونيم في التراث العربي: إن أول إجراء تحليلي يمكن أن يكشف عن الأسس المنهجية للتحليل اللغوي بعامة والصوتي بخاصة، أن علماء العربية منذ بداية نشأة الدراسة الصوتية – وهو ما درج عليه الأصواتيون فيما بعد – قد تمكنوا –على غرار ما فعله اللغويون من الأمم الأخرى– من تمييز أصغر الوحدات في اللسان العربي، وهي تلك الوحدات التي تشكل الألفباء العربية. وهذا

العمل ينبئ عن إدراك حقيقي لتلك الخاصية الجوهرية التي يتصف بها اللسان البشري، وهي "تشكله من مستويين من التحليل: مستوى العناصر الدالة ومستوى العناصر غير الدالة، وأن العناصر الدالة تتركب من هذه التي لا تدل. وهذا الإدراك أدى بهم إلى إحصاء كل العناصر الأولية غير الدالة، وتشخيصها بصفاتها الذاتية، والتمييز بينها بمقابلة بعضها ببعض، فعرفوا بذلك الوحدات الأدائية المجردة، فاتخذوا لها رموزا، واختصوها بذلك دون الأصوات الجزئية. معنى هذا أنهم نظروا إلى الحروف على أنها أمور كلية تستحق هي وحدها أن يرمز إليها ولم يلتفتوا إلى جزئيات الأصوات، بل جمعوها في مسمى واحد هو الباء، أو العين أو الجيم، أسماء يندرج تحتها أنواع من الباءات، والعينات، والجيمات ...الخ. فهي وحدات فونولوجية لا صوتية" [92].

هذا يعني أن الألفباء العربية قد راعت مبدأ الأخذ بفكرة الفونيم، وعبرت عنه بمصطلح الحرف تمييزا له عن تنوعاته، التي تقابل ما يسمى بالألفونات، وهي أوصاف تعتري الأصوات عند التركيب، كالإدغام والإبدال والإمالة وغيرها.

وهذا التصور يجعلنا نؤيد ما ذهب إليه "أنطوان ماييه" بقوله: "إن اللذين اخترعوا الكتابة وحسنوها هم في الحقيقة من أكبر اللغويين، بل هم الذين ابتدعوا علم اللسان"[93]. مع الإقرار بأن هذا التصور لم يتبلور منهجيا في صورة نظرية صالحة للتطبيق والتحليل الصوتي، على نحو ما نعرفه عند علماء الأصوات المحدثين.

ولا يقتصر الأمر في إدراك ماهية الفونيم على تمييز الوحدات المجردة التي تؤلف الأبجدية العربية، بل يتعداه إلى إدراك تلك العناصر الصوتية التي تظهر في السياق الصوتي للسلسة الكلامية المنطوقة، والتي لم تصنف على أنها حروف تدرج ضمن قائمة الحروف الأبجدية، أي فونيمات في اصطلاح المحدثين، إنما هي–في نظرهم– أوصاف تعتري الحروف في السياقات المختلفة، يظهر ذلك من خلال

الإشارة إلى أن الصوت اللغوي يختلف باختلاف السياق الذي يرد فيه، فتتعدد صوره النطقية بتعدد تلك السياقات، وهذا الإدراك يقترب من التصور الحديث لمعنى "العائلة من الأصوات". نلتمس ذلك في عدد من نصوص القدماء خاصة في تراث ابن جني، منها قوله:" الحرف الساكن **ليست حاله إذا أدرجته إلى ما بعده كحاله لو وقفت عليه**، وذلك لأن من الحروف حروفا إذا وقفت عليها لحقها صويت ما من بعدها، فإذا أدرجتها إلى ما بعدها ضعف ذلك الصويت،.. نحو قولك: اح اص، اث،.. فإذا قلت يحرد ويصبر ويثرد.. خفي ذلك الصويت، وقلّ وخفّ ما كان له من الجرس عند الوقوف عليه..، وسبب ذلك عندي أنك إذا وقفت عليه ولم تتطاول إلى النطق بحرف آخر من بعده تلبثت عليه...، فقدرت بتلك اللبثة على إتباع ذلك الصوت إياه، فأما إذا تأهبت للنطق بما بعده،.. فقد حال ذلك بينك وبين الوقفة التي يتمكن فيها من إشباع ذلك الصوت، فيستهلك إدراجك إياه طرفا من الصوت الذي كان الوقف يقره عليه..، فإذا ثبت بذلك أن الحرف الساكن حاله في إدراجه، مخالفة لحاله في الوقوف عليه، ضارع ذلك الساكن المحشو به المتحرك لما ذكرناه من إدراجه، لأن أصل الإدراج للمتحرك...؛ ألا ترى أن حركته تنتقصه ما يتبعه من ذلك الصويت، نحو قولك صَبَر، سَلم. فحركة الحرف تسلبه الصوت الذي يسعفه الوقف به، كما أن تأهبك للنطق بما بعده يستهلك بعضه. فأقوى أحوال ذلك الصويت عندك أن تقف عليه، فتقول: اصْ. فإن أنت أدرجته انتقصته بعضه فقلت: اصْبر، فإن أنت حركته اخترمت الصوت البتة، وذلك قولك صَبر. فحركة ذلك الحرف تسلبه ذلك الصوت البتة، والوقوف عليه يمكنه فيه، وإدراج الساكن يبقي عليه بعضه. فعلمت بذلك مفارقة حال الساكن المحشو به، لحال أول الحرف وآخره، فصار الساكن المتوسط لما ذكرنا كأنه لا ساكن ولا متحرك، وتلك حال تخالف حالي ما قبله وما بعده،... **فتلك إذا ثلاث أحوال متعادية لثلاثة أحرف متتالية**"[94].

فصورة الحرف عند ابن جني تتغير خصائصها في كل موقع من تلك المواقع أو السياقات التي تظهر فيها، وقد مثل لذلك بمجموعة من الأحرف، أغلبها احتكاكية كما يصفها المحدثون.

فهذه الحروف تختلف حالها بين الإدراج إلى ما بعدها، وبين الوقوف عليها ذلك أن الوقوف على الحرف –حالة كونه لاما للكلمة– يُلحقه صويتا من بعده، يتسم بقوة جرسه، مما يجعله أقوى الحروف. وسبب وجود هذا الصويت هو التلبث في النطق بهذا الحرف، وعدم التأهب للنطق بغيره. أما الإدراج أو وصل الحرف بغيره، فإنه يحول بين الناطق وفرصة إلحاق ذلك الصويت، فإما أن يقل ويخف ما كان له من الجرس، وإما أن يختفي تماما، لأن الإدراج يقتضي أن تتهيأ أعضاء الجهاز التصويتي للنطق بما بعد هذا الحرف، وهذه العملية تستهلك بعض الحرف إن كان ساكنا، أو تخترمه البتة إن كان متحركا. ومثال ذلك حرف **الصاد** حين يرد لاما للكلمة، إذ يحدث له إشباع بفعل ذلك الصويت الذي يلحقه في الوقف، فيكون في أقوى أحواله، كما في قولنا: فحصْ، نقصْ، حرصْ..، أما حين يرد عينا للكلمة فإن تهيؤ الأعضاء المصوتة للنطق بما يليه، يجعل ذلك الصويت خافتا ضعيفا، قد اختفى بعض ما كان له من قوة الجرس، لأن الإدراج يستهلك بعض الحرف حين يكون ساكنا، كما في كلمة يصْبر. وإذًا فحرف الصاد الساكن له صورتان نطقيتان متمايزتان لوجوده في سياقين مختلفين، أحدهما: وسط الكلمة، والثاني: نهايتها. وأما عند وروده فاء للكلمة، فإنه لا يكون إلا متحركا، لأن النظام الصوتي للعربية لا يسمح بالابتداء بالساكن، وفي هذه الحال ينطق حرف الصاد متلوا بالحركة، مما يتيح للحركة أن تستهلك بعضه، بأخذ ذلك الصويت منه وسلبه إياه، وهذه صورة ثالثة للصاد تختلف عن الأولى والثانية.

والنتيجة المستخلصة من قول ابن جني يمكن إيجازها في الآتي:

* إن أقوى حالات الحرف في السياق الصوتي المتصل، هي وجوده متطرفا ساكنا، لأن الارتخاء التدريجي للأعضاء المصوتة، وعدم تأهبها للنطق بحرف آخر، ينشئ بعد هذا الحرف صويتا يتميز بقوة جرسه، فيحدث بإلحاقه إشباع لهذا الحرف.

* وأما إدراج الحرف إلى ما بعده، فيفسَّر من الناحية النطقية باستعداد الأعضاء المصوتة للنطق بالحرف الذي يليه إن كان ساكنا، أو بالحركة التي تعقبه إن كان متحركا؛ ففي الأولى يفقده الإدراج بعضا من ذلك الصويت الذي يلحقه، فيخف ما كان له من الجرس. وفي الثانية تستهلك الحركة ذلك الصويت بتمامه، لأن النطق بها لا يترك المجال لإشباع الصوت. فهنا إذا –كما يقول ابن جني– ثلاثة أحوال متعادية لثلاثة أحرف متوالية، أي ثلاثة أنواع من الصادات مثلا، أو السينات، أو الفاءات..، وكل منها تحققات نطقية لفونيمات ثلاثة هي: الصاد والسين والفاء.

وبتعبير موجز نقول: إن كل مجموعة من هذه المجموعات تشكل عائلة من الأصوات، لاحتوائها على أكثر من عضو واحد، بحيث يبدو أحدها أكثر وضوحا من غيره، كونه يتجسد بكل سماته النطقية في بعض السياقات، كوقوعه لاما للكلمة حال سكونه. وهو ما جعل ابن جني يصفه بأنه أقوى حالات الصوت. وهذا التحديد يوافق بتعبير حديث الوصف القائل: إن ما يسمى بالفونيم هو ذلك الصوت الذي نتصور أننا ننطقه، وأقرب صورة إليه هو النطق بالصوت منعزلا عن سياقه. وهو ما ألمح إليه ابن جني عن طريق التمثيل بقوله: "فأقوى حالات ذلك الصويت عندك أن تقف عليه فتقول: اصْ"، وكذلك: احْ، افْ، اخْ،...

أي أن هذا المفهوم في تصوري، قريب جدا مما خلص إليه الدرس الصوتي حديثا في تحديد معنى العائلة من الأصوات، التي توصف بكونها مجموعة أعضاء لفونيم واحد، هو أبرز هذه الأعضاء. يتبدى ذلك فيما يقرره قول دانيال جونز

حيث يقول: "حين يملك الفونيم أكثر من عضو، فهناك واحد من الأصوات يبدو أكثر أهمية من الأخرى، ربما لأنه أكثر شيوعا، أو لأنه يستعمل في حالة الانفصال، أو لأنه وسط بين الأعضاء المتطرفة، هذا العضو يسمى: العضور الأساسي principal member، أو معيار الفونيم norm of the phoneme"[95].

والنص السابق لأبي الفتح هو أحد النصوص التي تحث فيها عن أحوال الحروف، وما يعتريها من تغيرات تتنوع بتنوع السياق الذي تظهر فيه، وهذه التغيرات تُردُّ إلى شيء واحد، أو وحدة مجردة واحدة، هي تلك الوحدة التي تتقابل مع مثيلاتها من الوحدات تقابلا وظيفيا، أو تقابلا تحصل به الفائدة في توجيه المعنى.

والأمثلة التي ساقها ابن جني وحللها في مباحثه المتنوعة كثيرة، تصب جميعها في مضمار واحد، هو البحث في طبيعة العلاقة بين وحدات النظام الصوتي التمايزية وظيفيا، وتلك الوحدات التي تشير إليها بصور متنوعة، تتعدد بتعدد المواقع التي تظهر فيها، وهي الفونيمات والألفونات عند المحدثين، في مقابل الحروف الأصول والحروف الفروع عند علمائنا قديما.

2- الوحدة الصوتية (الفونيم) والعلاقات: لم يتوقف علماء العربية في هذه الفترة المبكرة من دراستهم للأصوات عند حد تناولها بالتحليل في جانبها المادي أي باعتبارها وحدات صوتية مستقلة، لها مخارجها في الجهاز النطقي، وصفاتها المميزة، ولكنهم أكملوا هذه الدراسة بتناول الأصوات حالة التركيب، أي ما يعرف الآن "بالصوت في الكلام"، وذلك بالنظر إلى ما يؤديه الصوت من وظائف في العملية النطقية؛ إذ أن الأصوات في الكلام المتصل لا تحتفظ بخصائصها التي تعرف بها حين تكون أصواتا مستقلة. بل تكتسب خصائص جديدة، ذلك "أن علاقاتها تحكمها قواعد وأصول معينة، فنجد أن هذا الصوت ينقلب صوتا جديدا إذا وقع في سياق صوت يمعين، ونجد أن صوتا ثالثا يحذف إذا توفر فيه وفيما يجاوره

من أصوات شروط معينة..."[96]. فالأصوات عند التركيب تخضع لقوانين صوتية تقوم بتفسير التغيرات التي تطرأ على بنية الكلمة كما يحدث ذلك في الإدغام والإبدال والإعلال والإمالة وغيرها، وهو ما يمكن وصفه بظواهر التقريب الصوتي.

* **ظواهر التقريب الصوتي عند علماء العربية:** لقد عمد علماء العربية إلى توظيف تلك المعارف المتعلقة بخواص الأصوات حالة الإفراد في جانب الأداء اللغوي، الذي لا يتحقق إلا باستعمالها مؤتلفة في سياق التركيب، ذلك أن دراسة الوحدات الصوتية حال التركيب يعدّ عند علمائنا– منذ القديم – الهدف الأهم، لأنه على علاقة وطيدة بالمستويين اللغويين: الصرفي والتركيبي، اللذين يخضعان للقوانين الصوتية الناتجة عن التأليف، والتي تقدم تفسيرا للتغيرات الصوتية التي تطرأ على بنية الكلمة على نحو ما نعرفه من ظواهر: الإدغام والإعلال والإبدال وغيرها.

والجدير بالذكر أن علماء التجويد والقراءات القرآنية، قد أولوا هذا الجانب أهمية بالغة، لما له من علاقة متينة بتجويد النص الكريم على الوجه الذي ينبغي وهي غاية الغايات عندهم.

حقيقة قد أفاد هؤلاء كثيرا مما قدمه علماء اللغة، لكن إسهاماتهم في تعميق البحث في مختلف جوانب التأليف الصوتي لا يمكن إغفالها، بل هي من العمق والشمول بحيث تحتاج إلى أن يفرد لها بحث مستقل يتتبع أدق تفاصيلها.

لقد كان واضحا لدى هؤلاء، أن الأصوات إذا تجاورت في السياق اللغوي المتصل تعرضت صفاتها للتغير، سواء أكان هذا التغير جزئيا أم كليا، نستشف ذلك من خلال تحليلاتهم المفصلة فيبيان أوجه التأثير بحسب خصائص الأصوات قوة وضعفا، كما في قول الداني: "الحروف المهموسة إذا لقيت الحروف المجهورة والحروف المجهورة إذا لقيت الحروف المهموسة، فيلزم تعمُّل تلخيصها وبيانها

لئلا ينقلب المهموس إلى لفظ المجهور، والمجهور إلى لفظ المهموس، فتختل بذلك ألفاظ التلاوة وتتغير معانيها"[97]. وقول مكي (ت 437 هـ): "والقوي من الحروف إذا تقدمه الضعيف مجاورا له، جذبه إلى نفسه إذا كان من مخرجه، ليعمل اللسان عملا واحدا في القوة من جهة واحدة"[98].

وهذا الذي قاله العلماء منذ القرن الرابع الهجري هو ما يعرف الآن بقانون "جرامونت" وهو قانون صاغه اللغوي الفرنسي: Maurice Grammont، وسماه (قانون الأقوى)، ويتلخص في أنه: "حينما يؤثر صوت في آخر فإن الأضعف هو الذي يكون عرضة للتأثر بالآخر"[99].

غير أن هذا القانون عند بعض اللغويين[100] ليس مطلقا، لوجود حالات يخضع فيها الصوت القوي إلى الضعيف، فيؤدي مثلا إلى همس المجهور أو ترقيق المفخّم. وهذا الاعتراض الذي يبدو اختراقا لقانون "Grammont"، لا يُعتدّ به عند علماء التجويد خاصة[101]، وعلى رأسهم مكي بن أبي طالب، رائد نظرية القوة والضعف في الأصوات؛ إذ يردُّ على هذا الاستثناء قائلا: "وإنما ينقل أبدا الأضعف إلى الأقوى، إذا تقاربت المخارج ليقوى الكلام، فهذا هو الأكثر في الأصل، وربما خالف اليسير ذلك لعلة توجبه. وإذا نقل الأقوى إلى الأضعف ضعف الكلام"[102].

إن هذا الاهتمام بدراسة الأصوات حالة التركيب، قد توجهت فيه عناية العلماء إلى ما يؤديه الصوت من وظائف في العملية النطقية، وما يحدثه أثر التجاور الصوتي من تغيير في بنية الكلمة، والذي من أهم مظاهرهما يلي:

أ- الإدغام: وهو من الظواهر الصوتية التي شغلت حيزا كبيرا في تناول علماء العربية لها، حيث جعلوا منه مدخلا لدراسة التأثير والتأثر بين الأصوات.

ومفهوم الإدغام عند علماء هذه الفترة، أُخذ عن سيبويه في جملته، ومفاده: "أن يلتقي صوتان من جنس واحد، فيسكن الأول منهما، ويدخل في الثاني، فيصير صوتا واحدا مشددا، ينبو عنه اللسان نبوة واحدة. أو يلتقي صوتان متقاربان في

المخرج فيبدل الأول صوتا من جنس الآخر، ويدغم فيه فيصير صوتا واحدا[103]. وأشهر أنواع الإدغام كما فصلها العلماء تتمثل في:

– **إدغام المتماثلين:** وهما صوتان اتحدا صفة ومخرجا، أي أنهما صوت واحد متكرر، كالدال والدال في نحو "مدد" والراء والراء في نحو "مرر"، فعند التقائهما تحذف حركة أحد المثلين ويدغمان، ومن ثم يتخذ اللسان عند النطق بهما موضعا واحدا.

– **إدغام المتقاربين:** وهما صوتان اقترب أحدهما من الآخر في المخرج أو في الصفة، ويتم الإدغام في المتقاربين، بتحويل الأول منهما إلى صوت من جنس صاحبه، وحذف حركة الأول أي "بتسكينه". وهذا التقسيم يعتمد أساسا على مقدار التشابه بين الأصوات، وترجع أصوله إلى الكتابات الأولى لعلماء العربية، فقد استخدم سيبويه في كتابه مصطلح المثلين والمتقاربين[104].

وقد أطلق عدد غير قليل من علماء العربية المحدثين تسمية المماثَلة على ظاهرة الإدغام، لما رأوه بينهما من تشابه، في حين يرى آخرون أن مصطلح المماثلة (Assimilation) يدل على ظاهرة نطقية تقرّب بين الأصوات المختلفة، مما يجعلها تشبه ظاهرة صوتية تحدّث عنها ابن جني في الخصائص سماها: "الإدغام الأصغر"، في مقابل الإدغام الأكبر، حيث يقول: "وأما الإدغام الأصغر، فهو تقريب الحرف من الحرف، وإدناؤه منه من غير إدغام يكون هناك، وهو ضروب: فمن ذلك الإمالة، وإنما وقعت في الكلام لتقريب الصوت من الصوت، وذلك نحو عالم... ألا تراك قربت فتحة العين من عالم إلى كسرة اللام منه، بأن نحوت بالفتحة نحو الكسرة، فأملت الألف نحو الياء ... ومن ذلك أن تقع فاء افتعل صادا أو ضادا أو طاءً أو ظاءً، فتقلب لها تاؤه طاء، وذلك نحو اصطبر، واضطرب ... فهذا تقريب من غير إدغام...، ومن ذلك أن تقع السين قبل الحرف المستعلي فتقرّب منه بقلبها صادا،.. ومن ذلك تقريب الصـــوت من الصوت مع حروف

الحلق، نحو شعير وبعير، ورغيف ...، ومنه تقريب الحرف من الحرف، نحو قولهم في مصدر: مزدر، وفي التصدير: التزدير.. "[105].

وبهذا المفهوم، يكون الإدغام الصغير عند ابن جني، مطابقا لمفهوم المماثلة (Assimilation) في الدرس الصوتي الحديث، على ما يقرره عدد من اللغويين المحدثين[106].

وإرادة التخفيف، هي من العوامل الأساسية التي فسّر بها علماء الأصوات المحدثون التغير الصوتي في اللغات الإنسانية، في إطار ما يعرف بقانون (الجهد الأقل)، ومفاده: أن أكثر التأثير في (تجاور الأصوات) يرجع إلى الأعصاب وكيفية حركتها، وذلك أن نتيجة التشابه أبدا تسهيل واختصار للنطق[107].

وهذا أيضا مذهب علماء العربية منذ القديم، ذلك أن السعي إلى الاقتصاد في الجهد مبدأ أساسي في دراساتهم الصوتية. نلمس ذلك في تفسيراتهم للظواهر الصوتية التركيبية التي تنحصر في إرادة التخفيف ودفع الثقل، يقول الداني: "اعلم أرشدك الله أن الإدغام تخفيف وتقريب...، وإنما أدغمت العرب والقراء طلبا للتخفيف وكراهية للاستثقال"[108]. ويقول مكي: "اعلم أن أصل الإدغام إنما هو في الحرفين المثلين، وعلّة ذلك إرادة التخفيف"[109].

ب – الإبدال: ظاهرة صوتية تنشأ عن التركيب. وقد أولاها العلماء عناية خاصة، لما لها من علاقة ببنية الكلمة، حيث قاموا بوصف هذه الظاهرة وتحليلها ووضع التعليلات لها.

والملاحظ أن ظاهرة الإبدال تعود أصولها إلى علماء العربية الأوائل، حيث عُرّفت في مباحثهم بأنها: "إقامة صوت مقام صوت آخر، إما ضرورة، وإما صنعة، وإما استحسانا. واشترطوا لهذه الإقامة أن تكون لغير الإدغام"[110].

والإبدال عند علماء اللغة على نوعين: أحدهما صرفي قياسي، والثاني لغوي سماعي. أما الأول فهو إبدال مطَّرد: وسمي بالإبدال الصرفي لأنه يخضع لقواعد

صرفية كما في صيغة (افتعل)، إذ تبدل فيها تاء (افتعل) (طاءً)، إذا سبقت بأحد حروف الإطباق (الصاد، الضاد، الطاء، الظاء)، ومثال ذلك كلمة: (اصطبر) التي تكون على القياس (اصتبر)، وهذه الصيغة افتراضية، جاء بها القياس، ويسميها بعض علمائنا "الأصل المرفوض"[111]. أي أن القياس يقرها بالرجوع إلى الأصل إلا أن الاستعمال يرفضها بالرجوع إلى الواقع اللغوي.

فالتاء في صيغة (اصتبر) حرف مستفل مهموس، سُبق بحرف مستعل مجهور هو (الصاد)، حيث يصعب النطق بهما متتالين في كلمة واحدة، فأبدل الثاني (تاء) من جنس الأول (طاء)، لتحقيق السلامة واليسر في النطق.

ويحدث الإبدال أيضا لتاء (افتعل) إذا سبقت بأحد الأصوات المجهورة (الزاي الذال، الدال)، حيث تبدل من صوت مجهور من نحو (ازدرع)، وقياسها (ازترع)[112]. ومثال ذلك أيضا كلمة (ادّعى)، حيث أبدلت فيها (التاء) دالا وأدغمت في الدال المجانسة لها.

أما النوع الثاني من الإبدال، فهو الإبدال اللغوي السماعي، وأقصد تحديدا الإبدال الصوتي المطرد، الذي يحدث بين الأصوات المتقاربة في المخرج أو الصفة، والذي تحدث عنه سيبويه ومن انتهج نهجه، حيث يرى أن هذا الإبدال مشروط بكون الحرف المبدل والحرف المبدل منه من مخرج واحد، أو من مخرجين متقاربين، وأن الغاية منه تقريب الأصوات بعضها من بعض. وهذا مذهب ابن جني أيضا، حيث ذكر في توجيهه الإبدال الواقع في (حثحثوا)، وهو إبدال الثاء الوسطى حاء، ما قاله أستاذه أبو علي الفارسي، الذي اعترض على هذا الإبدال، والعلة في فساده من أن أصل القلب في الحروف إنما هو فيما تقارب منها وذلك.. الذال والظاء والهاء والهمزة ...، وغير ذلك مما تدانت مخارجه، فأما الحاء فبعيدة عن الثاء وبينهما تفاوت يمنع من قلب أحدهما إلى أختها، قال: "وإنما

حثحث أصل رباعي، وحثث من مضاعف الثلاثة، فلما تضارع بالتضعيف الذي فيهما اشتبه على بعض الناس أمرهما، وهذا هو حقيقة مذهبنا"[113].

وعلى ذلك فإن ابن جني والفارسي يشترطان أيضا التقارب المخرجي في الإبدال اللغوي. ومما ذكره ابن جني في هذا النوع من الإبدال، ما يتعلق بحرف السين الذي يبدل صادا إذا وقع قبل حرف مستعل، والحروف المستعلية هي: (الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والقاف، الخاء، والغين)، حيث جاء في مؤلفه المحتسب قوله: "ومن ذلك قراءة: (وأصبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) لقمان 20 أصله السين، إلا أنها أبدلت للغين بعدها صاد.. وذلك أن حروف الاستعلاء تجتذب السين عن سفالها إلى تعاليهن، والصاد مستعلية وهي أخت السين في المخرج"[114].

وهذا ما ذكره أيضا ابن خالويه في كتابه الحجة، حيث يقول في وجه من أوجه القراءات التي قرئ بها قوله تعالى: (اهدنا الصراط المستقيم) الفاتحة: 05، ما نصه: "قوله تعالى: (الصراط) تقرأ بالصاد والسين وإشمام الزاي؛ فالحجة لمن قرأ بالسين أنه جاء بها على أصل الكلمة، والحجة لمن قرأ بالصاد، أنه أبدلها من السين لتؤاخي السين في الهمس والصفير، وتؤاخي الطاء في الإطباق، لأن السين مهموسة والطاء مجهورة، والحجة لمن أشم الزاي أنها تؤاخي السين في الصفير وتؤاخي الطاء في الجهر"[115]. وهذه الظاهرة يصفها بعضهم بأنها نوع من أنواع الإلغاء بسبب الجوار، حيث يقول: "أما الإلغاء بسبب الجوار المؤدي إلى اتحاد الحرفين أو اختلافهما فكثير، ولا سيما في العربية، وقد تعرض لذلك علماء اللغة منذ القديم، ومثال ذلك إبدال التاء دالا في (ازدجر) أو طاء في (اضطرب) فالجوار هو سبب تقريب من الدال حتى يزول الفارق بينهما"[116].

الهوامش:

1 – منهم: عبده الراجحي، **فقه اللغة في الكتب العربية**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر 1979، بيروت، ص129.

2– مدونة البحث اللساني العربي عند القدماء تشمل إضافة إلى لغة القرآن الكريم كلام العرب شعرا ونثرا، باعتبارهما من معطيات اللغة، وعلى محاوراتهم كشواهد وحجج لأقوالهم.

3 – براجستراسر: **التطور النحوي للغة العربية**، مكتبة الخانجي بالقاهرة، أخرجه وصححه وعلّق عليه: رمضان عبد التواب، ط4،2003 م، ص11.

4 – ابن جني: **سر صناعة الإعراب**، تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط2، ج1، ص 1–3.

5– **نفسه**، ص 10.

6 – علاء جبر محمد: **المدارس الصوتية عند العرب** – النشأة والتطور–، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط1، 2006م، ص 95.

7 – كمال محمد بشر: **علم الأصوات**، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ص57.

8 – ابن سينا: **كتاب النفس**. تصدير ومراجعة: إبراهيم مدكور بتحقيق: جورج قنواتي وسعيد زايد. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص70.

9 – **نفسه**، ص 71.

10 – **كتاب النفس**، ص71.

11– **نفسه**، ص71.

12– **نفسه**، ص 81.

13– ينظر: أحمد مختار عمر: **دراسة الصوت اللغوي**، عالم الكتب، القاهرة، 1418هـ–1997م ص49.

14– أرنست بولجرام: **مدخل إلى التصوير الطيفي للكلام**، ترجمة: سعد عبد العزيز مصلوح، عالم الكتب– القاهرة، 1422هـ– 2002م، ص21–22.

15– **نفسه**. ص 189–190.

16 – **رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء**، ج3، ص95.

17 – الفارابي: **الموسيقى الكبير**، تحقيق: غطاس عبد الملك خشبة، دار الكتاب العربي للطباعة القاهرة، ص 1214.

18 – مختار عمر: **دراسة الصوت اللغوي**، ص21–22، وينظر: عبد الفتاح إبراهيم: **مدخل في الصوتيات**، دار الجنوب للنشر، تونس، ص25–26. وبسام بركة: **علم الأصوات العام** –أصوات اللغة العربية– مركز الإنماء القومي، لبنان – بيروت، ص32.

19– أرنست بولجرام: **التصوير الطيفي للكلام**، ص19.

20 – ابن جني: **سرّ صناعة الإعراب**، ج1، ص 9–10.

21 – بشر: **علم الأصوات**، ص 124.

22– منصور بن محمد الغامدي: **الصوتيات العربية**، مكتبة التوبة، المملكة العربية السعودية– الرياض، ط1، 1421هـ–2001م، ص 108–109.

23– **الرسائل**، ج1، ص 188–189.

24– **سر الفصاحة**، ص6.

25 – ابن سينا: **أسباب حدوث الحروف**، تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى مير علم، الطبعة الأولى، ص 60.

26 – الرازي (محمد الرازي فخر الدين): **التفسير الكبير ومفاتيح الغيب**، المجلد1، قدم له: خليل محيي الدين الميس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان. ج1، ص 29–30.

27– **سر صناعة الإعراب**. ج 1 ص 6.

28 – نفسه. ص 14.

29 – التهانوي (علي بن محمد): **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، تقديم وإشراف ومراجعة: رفيق العجم، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان– بيروت، ج2، ص643.

30 – القاري (ملا علي بن سلطان محمد): **المنح الفكرية في شرح المقدمة الجزرية**، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى بابي الحلبي وأولاده بمصر، ص 9.

31 – ابن يعيش (موفق الدين بن علي بن يعيش): **شرح المفصل**، دار صادر للطباعة والنشر (د.ت)، ج 9–10. ص 123.

32 – ابن جني: **سر صناعة الإعراب**، ج1، ص7.

33 – نفسه، ص 8.

34 – غانم قدوري الحمد: **الدراسات الصوتية عند علماء التجويد**، دار عمار للنشر والتوزيع الأردن، 2003، ص 84.

35 – القرطبي: **الموضح في التجويد**، تحقيق: غانم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن ص178.

36 – مكي بن أبي طالب القيسي: **الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة**، تحقيق: أحمد حسن فرحات، دار عمار، الأردن ص103.

37 – الفارابي: **الموسيقى الكبير**، ص 1066.

38 – ابن البناء (أبو علي الحسن بن أحمد): **بيان العيوب التي يجب أن يتجنبها القرّاء**، تحقيق: غانم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن ط1، 1421هـ–2001م، ص37 –38.

39 – نفسه، ص 38 – 39.

40 – الداني (أبو عمرو عثمان بن سعيد): **التحديد في الإتقان والتجويد**، تحقيق: غانم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن، ط1، 1420هـ– 2000م، ص 28.

41 – كمال بشر: **علم الأصوات**، ص 139.

42– **الرعاية**، ص 90.

43 – عبد الفتاح إبراهيم: **مدخل في الصوتيات**، ص 58.

44– **الرعاية**، ص 100.

45 – العطار (أبو العلاء الحسن الهمذاني): **التمهيد في معرفة التجويد**، تحقيق: غانم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن، ط1، 1420هـ–2000م، ص 278.

46 – القرطبي: **الموضح في التجويد**: ص 209 – 210 ، وينظر أيضا: **التحديد**: ص 103.

47 – العطار: **التمهيد في معرفة التجويد**، ص 189.

48 – ينظر: **أسباب حدوث الحروف**، ص72، **القانون في الطب**، ص 1122 و1145.

49 – من هؤلاء: عبده الراجحي: **فقه اللغة في الكتب العربيـــة** ص 133. كمـــال بشـــر: **علـــم الأصوات**، ص 192.

50 – عبده الراجحي: **فقه اللغة في الكتب العربية**، ص 133.

51 – ابن جني: **سر صناعة الإعراب**، ج1، ص 9.

52 – السابق، ص 10.

53 – الخليل بن أحمد الفراهيدي: **العين**، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مطابع الرسالة، الكويت، 1980 م.

54– ينظر: **سرّ صناعة الإعراب**:ج1 ص46، أبو بكر بن السراج: **الأصول في النحو**: تحقيـــق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة 1988، ج3، ص400، أبـــو القاســـم الزجاجي: **الجمل في النحو**: تحقيق علي توفيق الحمـــد، مؤسسة الرسالة، بيـــروت، ط1، 1984 ص 410.

55 – التهانوي: **كشاف اصطلاحات الفنون**، ج2، ص 646.

56– محمود السعران: **علم اللغة** – مقدمة للقارئ العربي – دار الفكر العربـــي، القـــاهرة، ط 2 (1997)، ص 124.

57– **أسباب حدوث الحروف**. ص 60.

58 – نفسه، ص 61.

59 – الرازي (محمد الرازي فخر الدين): **التفسير الكبير ومفاتيح الغيب**. قدم له خليـــل محيـــي الدين الميس. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان، المجلد1، ص 29.

60– نفسه. ص 46.

61– **سرّ صناعة الإعراب**: ج1 ص 7–8 .

62 – كمال بشر: **علم الأصوات**، ص 159.

63– الرازي: **التفسير الكبير ومفاتيح الغيب**. المجلد 1، ص 30.

64- **أسباب حدوث الحروف.** ص 85.

65 - سيبويه: **الكتاب**، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1999م، ج2، ص402، و**سرّ صناعة الإعراب:** ج1، ص 68.

66- **سرّ صناعة الإعراب:** ص 68.

67- **نفسه:**ج1، ص 69.

68 - إبراهيم أنيس: **الأصوات اللغوية**، ص 24.

69 - ينظر: **الكتاب:** ج4، ص 434، **الرعاية:** ص 92.

70- **الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة**، ص 92.

71- **سرّ صناعة الإعراب:** ج1 ص71. **والرعاية:** ص 99.

72- **ينظر: سرّ صناعة الإعراب:** ج1 ص71. **والرعاية:** ص 99.

73 - براجستراسر: **التطور النحوي للغة العربية**، ص16.

74- **التحديد في الإتقان والتجويد**، ص106، **الموضح في التجويد**، ص 90.

75- **الكتاب:** ج2، ص 416.

76- **نفسه**، ص 416.

77 - علاء جبر محمد، **المدارس الصوتية عند العرب**، ص 67.

78- الخليل: **العين**، ج6، ص289.

79- **الموضح في التجويد**، ص96، وينظر: **الرعاية**، ص 19.

80- المدارس الصوتية عند العرب، ص 68.

81 - المبرد(أبو العباس): المقتضب، تحقيق: عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت، (د.ت) ج1، ص193.

82 - الكتاب: ج4، ص435، والرعاية: ص 106.

83- ينظر: كمال بشر: علم الأصوات، ص 348.

84- الرعاية، ص 100.

85- ينظر: كمال بشر، علم الأصوات، ص 378.

86 - سرّ صناعة الإعراب: ج1 ص 11.

87 - عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية، ص137.

88- **الكتاب:** ج 2، ص 406.

89- **الموضح في التجويد،** ص92، وينظر: **التحديد،** ص 108.

90- **الكتاب:** ج 2، ص 406، **والأصول:** ج 3، ص 403.

91- كمال بشر: **علم الأصوات،** ص142.

92- عبد الرحمن الحاج صالح : **بحوث ودراسات في علوم اللسان،** موفم للنشر- الجزائر،2007 م، ص50- 52 .

93- أورده عبد الرحمن الحاج صالح: **بحوث ودراسات في علوم اللسان،** ص 52.

94- **الخصائص،** ج1، ص 58-60.

95 -Jones Daniel: The Phoneme, its nature and Use, 1962, p8.

96 - السابق: ص 156.

97 - **التحديد،** ص 131.

98 - **الرعاية،** ص 180.

99 - أحمد مختار عمر: **دراسة الصوت اللغوي،** ص 372.

100- نفسه، ص 372.

101- لأنهم يتعاملون مع كتاب الله، الذي يجب أن يؤدى على الوجه الصحيح، وذلك يفضي إلى أحكام شرعية تدخل في إطار ما يجوز وما لا يجوز.

102- **الرعاية:** ص 181.

103 - ينظر: **الكتاب:** ج2، ص 405، و**الخصائص:** ج2، ص141، و**الجمل:** ص413 -414 .

104- ينظر: **الكتاب:** ج 4، ص 473.

105 - ابن جني: **الخصائص،** ج2، ص139 - 145.

106 – ينظر: عبد الراجحي، **فقه اللغة في الكتب العربية**، ص 140.

107 – براجستراسر: **التطور النحوي للغة العربية**، ص 33 – 34.

108– الداني: **الإدغام الكبير**، نقلا عن: **الدراسات الصوتية عند علماء التجويد**، ص 332.

109– مكي بن أبي طالب، **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحجاجها**، تحقيق: محي الدين رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط 1974، ج 1، ص 134.

110– **الكتاب**: ج 2، ص 426.

111 – ينظر: أبو علي الفارسي: **الحجة في علل القراءات السبع**، تحقيق: (علي النجدي، عبد الحليم النجار، إسماعيل شلبي)، الدار القومية– القاهرة، ط1966م، ج1، ص 38.

112– **الكتاب**: ج1، ص422، و**الأصول**: ج3، ص 270 – 271.

113– **سر صناعة الإعراب**: ج 1، ص 197.

114 – ينظر: ابن جني: **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**، تحقيق: (علي النجدي، عبد الحليم النجار، إسماعيل شلبي)، لجنة إحياء التراث، القاهرة، ج2، ص169.

115– ابن خالويه (الحسين بن أحمد): **الحجة في القراءات السبع**، تحقيق: د/ عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، لبنان– بيروت. ص 62 – 63 .

116– عبد الرحمن الحاج صالح: **مجلة اللسانيات**، العدد7، 1979م، ص 22 .

علامات الترقيم في بناء المشهد السردي
(ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي نموذجا)

أ.أسماء بوبكري
جامعة أحمد دراية، أدرار

مقدمة: تقدم هذه الدراسة آثار الأدوات الإيقاعية وعلامات الترقيم في المتلقي انطلاقا من اختيار الكاتب مواضع الوصل والفصل والبدء والإنهاء؛ لأن كل سياق سردي يحتاج لغة تداولية معينة تبلغ القصد المراد، لهذا يتوجب على الكاتب والمتلقي معا حسن استعمال تلك العلامات فهي تحمل سيمياء المعنى داخل النسق اللغوي، هي دوال تؤدي وظيفة التواصل وتمنح حجج الإقناع بين الطرفين، وقد حاولت بيان مجموعة من الوظائف الخاصة بذلك الاستعمال الذي له حظ وافر في بناء المشهد السردي يزاحم اللفظ والصورة والأسلوب، كإيقاع الصمت وغيره وعرضت المضمون في قسمين هما:

علامات الترقيم بين الماهية والأهمية ثم علامة الحذف وأثرها في بناء المشهد.

أولاً: علامات الترقيم بين الماهية والأهمية.

أ – ماهية الترقيم. صيغت كلمة الترقيم من الرَّقم، وهو «تعجيم الكتاب، ورَقَمَ الكتاب يَرْقُمُه رقماً: أعجمه أو بيَّنهُ. وكتاب مَرقوم أي قد بَيَّنْتَ حروفه بعلاماتها من التنقيط»[1]، كما يقال أيضاً «الرَّقْمُ: خزٌّ موَشّى»[2]، فأول ما يلفت انتباه القارئ إلى الرواية بعد تصفحها كثرة العلامات، مما شكّل ظاهرة تثير التساؤل والبحث خاصة علامة الحذف (موضوع الدراسة).

فما أكثر علامة الاستفهام والتعجب! أما نقاط الحذف فلا تكاد تخلو منها صفحة والغالب النقطتان المتتابعتان، أما ثلاث نقاط، وأربع، فهي قليلة الورود لأسباب معينة تتضح في مشهدها الخاص.

فإذا كان الّرقم أمراً لصيقاً بفك العجمة عن الحروف كسمة إملائية مهمة في قراءة الكلمة، فإنه –أيضا – سمة ضرورية لقراءة الجملة وفهم معناها، والرواية موشاة بعلامات الترقيم[3]، الأمر الذي ينظم القراءة ويُحفّز عليها، كما يـُمنح القارئ نفَساً منتظماً من خلالها، وهو ينتقل من جملة إلى أخرى ومن فقرة إلى ثانية...

ب – وظائفه: إذا كانت "الإبانة" معنى من معاني "الرقم"، فإنها كذلك تجعل القارئ يتابع النص بشكل انفعالي خاص في زمن القراءة، فعلامات «الوقف (، ؛ .) تمكّن القارئ من الوقوف عندها وقفاً تاماً، أو متوسطاً، أو قصيراً والتزوّد بالراحة أو النفس الضروري لمواصلة عملية القراءة»[4]، أما بخصوص دراستنا فإننا سنركز على «علامات النبرات الصوتية: (: ... ؟!)؛ وهي علامات وقْف أيضا، لكنها – إضافة إلى الوقف – تتمتع بنبرات صوتية خاصة وانفعالات نفسية معينة أثناء القراءة»[5]، فإذا كانت علامات الترقيم تتحكم في التنفس وفي أسلوب القراءة.. ففي "ذاكرة الجسد" سيجد القارئ نفسه أمام نوعين من القراءة:

فإما أن يقرأ دون توقف، حينما ينجذب خلف الأحداث، وإما أن يقرأ قراءة يجس بها نبض الترداد[6] الذي لحق علامات الترقيم، فتبدأ رحلة بحثه وتأليفه بين ما قيل في المتن كأحداث بارزة مُعبّرٌ عنها باللغة، وبين ما لم تقله الكاتبة ونابت عنه الإشارة.

ج – أهميته: إنه بالقدر الذي تعج به الرواية بعلامات الترقيم، بالقدر الذي تزيد عملية القراءة استيعابا للمشهد السردي واستيساعا له؛ لأنها علامات «تسهل الفهم

على القارئ، وتجوّد إدراكه للمعاني وتفسر المقاصد، وتوضح التراكيب أثناء القراءة. تسهل القراءة، فتجنب القارئ هدر الوقت بين تردد النظر، وبين اشتغال الذهن في تفهم عبارات كان من أيسر الأمور إدراك معانيها، لو كانت تقاسيمها وأجزاؤها مفصولة أو موصولة بعلامات تبين أغراضها وتوضح مراميها»[7] ويمكن تجسيد الأهميات السابقة في مقطع مختار من الرواية:

«أ تدري لماذا كنتُ أحبُّ جدتي أكثر من أيّ شخص آخر.. وأكثر حتى من أمي؟ إنها الوحيدة التي كانت تجد متسعا من الوقت لتحدثني عن كل شيء.. كانت تعود إلى الماضي تلقائيا، وكأنها ترفض الخروج منه. كانت تلبس الماضي.. تأكل الماضي.. ولا تطرب إلا لسماع أغانيه»[8]، فالقارئ يتوقف متأملاً كل معنى وكل صورة على حدة بإرشاد علامات الترقيم، كما أنه سيجد فرصة ليقابل تلك المشاهد الروائية مع مشاهد خاصة؛ إذا تقاطع ما في النص مع تجربة في حياته، فيقف متأملا بلاغة الكاتبة التي تمكنت من التعبير عما عجزت لغته عن وصفه وضبطه...

والملاحظ في هذا النص المقتبس ترداد علامة الحذف، التي تُمكنه من الغوص في الحدث وتشغيل مخيلته لرسم لوحة خاصة بالجَدة، فبدل أن تضع الكاتبة النقطة النهائية وضعت علامة الحذف الدالة على الإيجاز والاقتصاص من الصورة الخاصة بمدلول ما، لتُكَوّن صورة متكاملة من مجموعة من المدلولات، بعد أن يؤوّل القارئ ما تجاوزته أو صمتت عن ذكره، وذلك الاستبدال لم يكن خاطئاً من ناحية وضع العلامة لدلالة الجملة، بل أسهمت علامة الحذف في بناء الصورة أكثر مما لو وَضعت النقطة النهائية.

فبعد احترام وضع العلامات في مواطنها المناسبة، يكون للكاتب – عموما – «مندوحة في الإكثار أو الإقلال من وضع هذه العلامات، بحسب ما ترمي إليه

نفسه من الأغراض، ولفت الأنظار، والتوكيد في بعض المحال، ونحو ذلك مما يزيد التأثير به على نفوس القراء»[9]، بالطريقة التي تؤكدها علامات الترقيم في الرواية.

فهي « في تصور الكاتب، مثل الحركات اليدوية، والانفعالات النفسية، والنبرات الصوتية التي يستخدمها المتحدث أثناء كلامه؛ ليضيف إليه دقة التعبير وصدق الدلالة. فهي تشبه الحركات الجسمية والنبرات الصوتية التي توجّه دلالة الخطاب الشفوي، كما أنها تشبه إشارات المرور في تنظيم حركة السير [كما] أنها تنظم الموضوع، وتجمل لغته، وتحسن عرضه؛ فيظهر في جمالية خاصة تريح القراء وتدفعهم إلى القراءة والاستمتاع بها»[10]، وهذا ما تحقق في الرواية، بالإضافة إلى كونها ضابطاً رئيساً وقاعدة لازمة الوجود في النص المكتوب.

ثانياً: علامة الحذف وأثرها في بناء المشهد.

1- دلالات علامة الحذف في "ذاكرة الجسد"[*] الرواية موشاة بعلامة الحذف وغيرها، وإن كانت هذه العلامة -بالخصوص- أعم، ولا بد أن يكون في ترددها إشارة إلى تشكيلة فنية ما، وضعتها الكاتبة بقصد أو بغير قصد أو بهما معاً؛ لتشرك القارئ، وتحرّك وتيرة قراءته، فيتوقف أمامها لا يقرأ قراءة سطحية عابرة، بل يتريث؛ ليتأمل الآفاق الرامية إليها من حين إلى حين.

كم تختلف طريقة القراءة بهذا الشكل عن القراءة السطحية للأحداث؛ لأن القارئ يستمع فيها إلى أنات الفراغ..، مادام الخطاب - في حد ذاته - مأساوياً فيؤثث شيئاً فشيئاً المشهد ببعض الجزئيات التي تكتمل بها الصور، على أساس أن التعبير المراد إيصاله هو «دائما دلالة ثانية يُنتجها سياق النص»[11]، والمسهم في ذلك «ترك الجملة مفتوحة، والنقطتان المتتابعتان أكثر علامات الترقيم مناسبة لذلك»[12]، بالرغم من أن القارئ قد يستعين بالضمائر والإشارات المحيلة إلا أن

العلامة هذه(**)، تأخذ دور الأضواء المنبهة في نظام من الأنظمة المرئية فتحذّره أو تسمح له بالمواصلة أو توقفه ...فبعد «قراءة جملة أو كلمة تتبعها نقطتان إشارة إلى أن ثمة شيئاً لم يقله الكاتب وأنه موجود هنا قريباً فقط، وما على القارئ إلا أن يستدرج هذا المعنى، مع أنه ليس من الضروري أن يكون المعنى المضاف نفسه عند القراء»[13]، فكلٌ والطريقة التي يُصوّغ بها الصور أو يؤثث بها المكان مادامت "الطبيعة تأبى الفراغ"، فملؤه فراغات الحذف تجعل رصيده التخييلي للرواية يتسع وينشبك أكثر بالنص.

والسؤال المطروح بعد هذا: هل كانت الكاتبة تضع علامة الحذف بعد مواطن مخصصة؟

توضع علامة الحذف في التحرير –عموما – في عدة مواطن للدلالة على أن الكاتب:

- نَقل كلام غيره واستغنى عن بعضه بوضع العلامة.
- للإيجاز والاختصار بعد ذكر عدة أمور.
- لقبح كلام لا يُستحسن ذكره أو لسبب من الأسباب[14]

سيجد القارئ دلالات متعددة في الرواية لعلامة الحذف؛ تحتوي النقاط السابقة وتزيد بصور جديدة، يُمكن تمثيلها في الدلالات التالية:

أ – الصمت: قد تحجم الكاتبة عن إعطاء بعض المعطيات للقارئ، وتجعله يكتفي فقط بما قدّمته له من باب الإيجاز، ويظهر ذلك لما يكون "خالد بن طوبال" بصدد الحديث عن بعض المواقف، كتصوير الحال التي آل إليها بعض الرفاق والشخصيات المصاحبة لها من جشع وخيانة للوطن بعد الثورة الجزائرية، وهي حال تختلف كل الاختلاف عن الصورة القديمة التي يحتفظ بها في ذاكرته عنهم

وكذلك وضعت علامة الحذف لما يعود بذاكرته لزمن الثورة فيسرد تلك المواقف العظيمة التي عاشها أيامئذ.

فتوجز الكاتبة حينها بعض المواقف في كلمات وتكتفي بالحذف؛ لتترك مجالا للقارئ كي يتحسس تلك الأحداث التي تجاوزت ذكرها، ومثال ذلك: «وكان عمر يبعض اللوحات، قليلاً من الفرح وكثيراً من الخيبات، وكرسيين أو ثلاثاً، تنقَّلتُ بينهما منذ الاستقلال، بشيء من الوجاهة، بسائق وسيارة.. وبمذاق للمرارة»[15] فبعدما يقرأ القارئ هذا المقطع ويصل إلى علامة الحذف؛ فإنه على دراية سابقة بالأوضاع السياسية كما صورها "خالد بن طوبال"، لكنه يتأكد بعد رؤية العلامة بأن ما لم يقله "خالد" أكبر بكثير مما قاله؛ فالسيارة هي آخر صورة للدلالة على المنصب العالي، المبطن بالأسرار في ذاك السياق المتضمن للحذف بالعلامة.

كما يظهر هذا الحذف الدال على الصمت لما يريد خالد إخفاء رد فعله تجاه موقف من المواقف التي تجمعه بغيره، ولطبيعة حب الفضول فإن القارئ لكثرة تعلقه بخالد؛ فإنه يتمنى لو يدخل في أفكاره وينبش ما استتر من القول، فيتعرف بذلك على السبب الذي جعله يمتنع عند ذلك الحد.

وهذا بعض من ذاك «لم يبد عليه اهتمام خاصّ بكلامي. قال على طريقته الخاصة وهو يعود لقراءة جريدته: "أنا أكره النساء عندما يُحاولن ممارسة الأدب تعويضاً عن ممارسات أخرى.. أتمنى ألا تكون صديقتك هذه عانساً، أو امرأة في سن اليأس.. فأنا لا صبر لي على هذا النوع من النساء!" لم أجبه. رحت أتعمق في فكرته.. وأبتسم!»[16]، لقد تنوعت دلالات الحذف في هذا الموقف، فالحذف الأول – في المقطع – مقصود من باب أن تلك الممارسات معروفة، أما الثانية فهي متروكة للقارئ – أيضاً – ليتخيل ويختار من قائمة الصور المعروضة، صورة ما يضيفها إلى سلسلة الصور في المشهد.

وأما الحذف الثالث فهو صمت آخر يؤكد عمق فلسفة خالد وعدم مرور الوقائع أو الكلمات على حواسه ومدركاته جزافاً قبل أن يُغربلها ويصفيها ويؤولها، ويكفيه أن يومئ لجليسه بحركة ما دون الإفصاح عمّا يفكّر فيه، ومن جهة أخرى لا يخبّئ عن القارئ تلك الأفكار التي كانت تراوده في تلك الأثناء، مع شيء من الحذف أيضاً؛ لأن الصمت عادة جمالية يتقن تمثيلها في فترات كثيرة؛ وبذلك سيصبح القارئ في جوّ من البحث لإيجاد معنى « في سياق التواصل»[17]، لتحقيق التداول بينه وبين النص من خلال الدوال المقدّمة له، والمفتوحة – أيضاً – على الحذف...

فخالد كثيراً ما يستبدل الصمت والابتسامة بالكلام، وذلك الصمت يوحي للجليس بمفاهيم متعددة، كما أنه يضع حدوداً بينه وبين الآخرين، حينما لا يتأقلم مع الجو الذي يجمعه بهم، ومثال ذلك: « وكان يمكن أن أكون سعيداً ذلك المساء. لقد كنتُ في الواقع محط اهتمام الجميع لأسباب لم أشأ التعمق فيها..»[18]، فليته تعمّق وفصّل بدل الحذف! لأن القارئ في غيابه الطويل داخل هذا المشهد واستغراقه في المشاهدة، سيتحسر لمّا يصطدم بالصمت؛ لأنه سيعيش حالاً مشابهة بالحال التي يعيشها المسافر لما يدخل المحطة ويرى قطار رحلته مغادراً.. فيفشل في اللحاق به، كذلك يفعل الحذف بقارئه في الرواية، فهو كالقطار السريع يأخذ معه الحقيقة والأحلام والقصص... والزمن الذي لا يعود...

يبعث الحذف الدال على الصمت زوبعة حادة في القارئ، فمن جهة يجعله يُفكّر في صناعة صورة تُقارب ما قصدته الكاتبة، ومن جهة أخرى يدرك بأنها لو فصّلت أكثر لكان أجمل؛ لأنها كلما فصّلت على لسان خالد استمتع القارئ وتعرّف على الجديد، فـــ «لا عجب من بطل كهذا أن يترك للآخر فرصة التعبير عن رأيه ومحاورته حتى لو اختلف معه»[19]، هذا في حال تكلّمه، أما إذا صمت فإنه يدهشه ويفتح الطريق أمامه للبحث والتساؤل! وكلما كان التأويل متعددا نجح التواصل بين

النص والقارئ في بناء مشاهد الرواية، ومع ذلك تبقى مساحة التأويل محدودة لأنها موجّهة نصياً.

فخالد قليل الكلام في مجالساتِه، كثير التعليق في صمته، صمتٌ يُشبه الابتسامات عند مالك حداد حينما قال: «إن الابتسامات فواصل ونقاط انقطاع.. وقليل من الناس أولئك الذين ما زالوا يتقنون وضع الفواصل والنقط في كلامهم»[20]، فإذا كانت الابتسامات دالة على صاحبها، من خلال إتقانه لها ودرايته بفترات حدوثها في زمن الاستماع، باعتبارها صورة من صور الخطاب، فكذلك نقاط الحذف مهارة دالة على التمكّن من ضبط وإيجاز[21] ما يقال وما لا يقال بناءً على طبيعة المقام وحيثياته، ومقامات خالد متصلة دوماً بحواجز تتطلب الابتسامة بدل الكلام، وفي الكتابة أيضاً، فعلامة الحذف تمنح القارئ فرصة تخيّل ابتسامات خالد، والاستفادة من الأساليب المؤدّاة بها، والتعمق في ما أخفته في تلك الأثناء من حديث.

ب – الصفة والعطف: كثيراً ما نابت علامة الحذف عن الصفة وحلّت محلها ومثال ذلك: «أنتِ مدينة.. ولست امرأة، وكلما رسمت قسنطينة رسمتك أنتِ ووحدك ستعرفين هذا..»[22]، بعد قراءة كلمة "مدينة.."، ستنفتح قائمة من الاختيارات المناسبة لها بحسب ما يمليه السياق العام للمشهد، وبناءً على ما يعرفه القارئ عن طبيعة العلاقة بين خالد وحياة، خصوصاً في ذلك الموقف، فمن قائمة الصفات سيختار واحدة أو اثنتين؛ ليتمم صورة المدينة، ومن تلك الصفات المتواردة مثلا: (قاتلة، مخادعة، متوحّشة، سادية..)، فبذلك الاختيار تكتمل الصورة، كما يتم المعنى المراد، فحرية التأويل «هي حرية محدودة لأنها مراقبة أو موجّهة»[23] فالقارئ يؤول بناء على ما هو معطى في السياق.

كم ورد الحذف بعد العطف في مواطن متعددة من الرواية! مثلا: «لم يكن حلمي أن أكون عبقرياً ولا نبياً ولا فناناً رافضاً ومرفوضاً، لم أجاهد من أجل هذا. كان حلمي أن تكون لي زوجة وأولاداً، ولكن القدر أراد لي حياة أُخرى، فإذا بي أب لأطفال آخرين وزوج للغربة والفرشاة.. لقد بتروا أيضاً أحلامي»[24]، فوضع علامة الحذف في ذلك الموضع بالذات دون غيره، يوقِع القارئ في الحيرة، فماذا بعد الغربة والفرشاة، وهما تحملان طاقة إيحائية تلخص حياة خالد كلها في الرواية؟ ماذا سيضع في مكان العلامة بعدما اكتملت الصورة كلها بذلك الاختيار؟

إنها مسافة يتعمق بها شعور القارئ بخالد وحياته، ويحس بتلك الصورة التي يعيشها بين الغربة.. والفرشاة.. علماً أنّ لكل واحدة منهما لوناً خاصاً وقصصاً مميزة.

وهناك مواطن تجتمع فيها الصفة والعطف مثل: «فهل يمكن لي اليوم، بعد ما قطعت بيننا الأيام جسور الكلام، أن أقاوم هذه الرغبة الجنونية لكتابة هاتين القصتين معاً، كما عشتهما معك ودونك، بعد ذلك بسنوات.. رغبة.. وعشقاً.. وحلماً.. وحقداً.. وغيرة.. وخيبة.. وفجائع حد الموت»[25]، فالحذف الأول متعلّق بالموصوف (سنوات..)، فالصفة التي سيضعها في ذاك المكان يتيحها السياق وتؤكد ضرورة وضعها علامة الحذف، فيضيف صفة تناسبها وترسم حدود الانفعال والتوتر فيها مثل: (مرّة أو قاتلة أو طويلة أو مؤلمة أو ثقيلة..)، فلو كانت هناك نقطة نهائية؛ ستكون القراءة عادية، كما أن القارئ ينتظر بعد السؤال علامة الاستفهام، لكنه يجد علامة الحذف! فكأنّها في الرواية تقوم مقام النقطة وعلامة التعجب... وغيرهما، وقد يعود سبب ذلك إلى انجراف الكاتبة مع تلك الفكرة وما يتولد بعدها من جمل فتضع علامة مناسبة لآخر جملة في ذلك التعبير، غافلة عن العلامة الحقيقية للأسلوب الأول.

أما الحذف المتوالي في فقرة المعطوفات، فهو مفتوح على الصفة، فبإمكان القارئ أن يضيف بعض الصفات في نقاط الحذف، إذا تمكّن من ذلك؛ ليفهم ذلك المشهد المتبجِّس بالأحاسيس المتناقضة، التي انتقتها بعناية، فكأنها تبحث عن سمة المشهد الجامع المانع، المعَبِّر عن الحياة المؤلمة التي عاشها خالد، لما يسترد أحداثها كاملة زمن الكتابة.

فالملاحظ أن وضع الصفة أسهل من وضع العطف في الرواية، بالرغم من وجود الفراغ ؛ لأن الكاتبة لا تترك للقارئ ما يعطف عليه في بعض المشاهد وذلك يعود إلى تغطيتها باللغة التصويرية.

ج – الانفتاح على الصورة: قد يكون هذا النوع من الحذف من أبرز الأنواع المنتشرة في الرواية؛ لأن البنية الزمنية لنظام السرد مشكّلة تشكيلا مضطرباً، فما ابتدأت به الرواية يقع في آخرها كحدث، كما تتداخل الأزمنة دفعة واحدة لتفترق من جديد على لقاء قريب في المشهد الموالي أو الذي يليه، وذاك التلاعب بالزمن يفرض على القارئ متابعة متيقظة، فكانت علامة الحذف تتكاثر أمام الصور في الرواية، والمقصود بـــ "الصورة المنفتحة" هو إعطاء المجال للقارئ كي يتدخل بذوقه ويملأ فجوات علامة الحذف، فينفتح بمخيلته على المشاهد ليتصورها كما هي في واقع الرواية، ثم يضيف عليها الحس الحركي الذي تمده به اللغة.

وتلك الإضافات التي يسهم بها القارئ، تكون من باب القبض على التفاصيل لأن الراوي عوّده على التعليق على أشياء كثيرة، فيستلهم منه طريقة التفكير والتصور، ومن ثمة تصبح لديه قدرة موازية على مناقشة الرّاوي وتكملة ما أحجم عن ذكره، « فما هو مخفي يستحث القارئ على الفعل، ولكن هذا الفعل محكوم أيضاً بما هو ظاهر، فالتصريح بدوره، يتحول حينما يتكشف التلميح، وحين يردم القارئ الفجوات يبدأ التواصل. وتؤدي الفجوات وظيفة محور تدور حوله علاقة

النص – القارئ برمتها – وعليه تُغير الفراغات المُبَنْيِنَة للنص عملية التخيل كي ينجزها القارئ بما يتطلبه النص»[26]، والتصريح والتلميح في الرواية قد يتداخلان في المشهد الواحد، عندها يحتاج القارئ إلى مد جسور التصريح إلى التلميح تخيلاً ليستضيء كل شيء في إدراكه، ويتم المشهد شيئاً فشيئاً، كما أن استرسال التواصل بينه وبين الرواية يتكامل في وحدة جامعة تدريجياً.

فقد يجد القارئ في هذا الحذف تقاطعات مع الحذوف الأخرى(الصمت/ الصفة والعطف/...)، لكنه يختلف عنها في أنه يجد نفسه مشاهداً متأملاً ممتزجاً بكائنات الرواية جميعها، منفتحاً على عالمها، والأمثلة كثيرة، وهذا واحد منها «ها هو ذا كتابك أمامي.. لم يعد بإمكاني اليوم أن أقرأه. هنا على طاولتي مغلقاً كلغز يتربص بي كقنبلة موقوتة، أستعين بحضوره الصامت لتفجير منجم الكلمات داخلي.. واستفزاز الذاكرة.

كل شيء فيه يستفزني اليوم. عنوانه الذي اخترتِه بمراوغة واضحة.. وابتسامتكِ التي تتجاهل حزني. ونظرتكِ المحايدة التي تعاملني وكأنني قارئ، لا يعرف الكثير عنكِ. كل شيء.. حتى اسمك.»[27]، هذا المشهد تحركه التشبيهات والضمائر... كما يتداخل فيه الوصف بالسرد، ويحركه موضوع واحد هو الكتاب الجديد لحياة/أحلام.

فبالرغم من حركة اللغة وتصويرها للموقف، إلا أن ما تضيفه علامة الحذف شيء كبير، فيتبين أكثر في أن وظيفة هذه العلامة تختلف عن النقطة والفاصلة فالقراءة بالوقوف عندها تصريح وكشف عن تلك المشاعر التي يعيشها خالد في تلك اللحظات، فوقوعها بعد (أمامي..) تلخص العمر الذي قضاه خالد مع حبيبته كما تتضح فيها نوبة القلق والحيرة والخيبة التامة... والمفارقة بين الإحجام أو

الإقبال عليه؛ لأن الكتاب في تلك الأثناء أثار فيه عواصف الأزمنة الثلاثة (الماضي والحاضر والمستقبل)[28]

كما يتلخص في (أمامي..)، شكل الكتاب وحجمه ولونه ونوع الخط الذي كُتب به العنوان... وكذلك تنفتح الرؤية على الوضعية التي يجلس فيها خالد والملامح التي ينظر بها إلى الكتاب، وسط تلك المشاعر المتضاربة.

أما العلامة بعد (داخلي..)، ففيها تسليط للضوء على الأغوار المظلمة للراوي ومشاهدة تلك اللحظات التي سينفجر فيها بركان الكلمات في داخله، ذلك الداخل المنهار الذي أتعبته براكين الصدمات والمآسي المتتابعة... وأمام هذه العلامة سيقوى الإحساس بخالد، فتعتمل التجربة القرائية بذلك الفراغ المتاح له، بغض النظر عن فعل اللغة السردية التي حاكت بها الكاتبة المشاهد الروائية.

أما العلامة بعد (بمراوغة واضحة..)، فهي وقفة يتساءل فيها القارئ عن طبيعة تلك المراوغة وعن شكل الوضوح فيها، فيعود إلى قراءة عنوان تلك الرواية "منعطف النسيان"؛ ليتأمل وجه المراوغة، فيصاب هو الآخر بالحسرة، والإحساس بأزمة التهميش التي يعيشها خالد، وبعدها يذوب القارئ في الراوي ويلاحقه من مشهد إلى آخر.

والعلامة بعد (كل شيء..)، في ذلك المشهد مفارقة بوجهين، يجتمع فيها جهل القارئ بكل شيء عن حياة/أحلام، والمعرفة التامة بكل شيء عنها بالنسبة للراوي، فمعرفة القارئ بحياة في ذلك الموضع من الرواية منعدمة؛ لأنه يتحدث عن شخصية مجهولة لديه في بداية الرواية، أما معدل معرفة خالد بها في تلك الأثناء يقارب المائة، فإذا كان هو أول من سجّل اسمها في دار البلدية، فهذا دليل يؤكد معرفته لأصلها وفصلها، ووضع العلامة بعد (كل شيء..) دليل على المعرفة...

إذن «رغم كون علامات الترقيم هذه إشارات غير لغوية، فإنها من الأشكال أسهمت في إنتاج الدلالة وتوجيهها على الأقل بشكل إيحائي»[29]، فالإيحائية تتجلى بشكل في تشكّل الصورة الفنية من اللغة الملفوظة؛ أما العلامة فتزيد من امتدادها وانبعاث الحركة فيها بفعل التأويل، وذلك بفهم الحال التي يعيشها خالد فهما يكاد يقارب الحال الحقيقية كما لو كان (القارئ) هو الذي يعيش تلك التجربة.

ومن ثمة فالقراءة بهذه الصورة، بإشراف علامة الحذف هي تجربة إبداع نص جديد، «فالذات التي تخوض هذه التجربة لا تدعي امتلاك النص بصفته موضوعها، بل تقوم بالاندماج فيه مباشرة جاعلة من الفهم والنص كينونة واحدة لكي تتمكن من الإصغاء عن قرب لما يقوله النص»[30]، فعلامة الحذف منفذ آخر إلى جانب اللغة، يزيد المشهد ضياء وحركة، لأنه يمنح القارئ فرصة؛ لتعبئة الفجوات المتعددة في المشهد الواحد، وبهذه الطريقة ينشأ نوع من الألفة بينه وبين النص، لإحساسه بالمهمة الموكلة إليه بين الحين والآخر.

د – التساؤل:هناك بعض مواطن الحذف التي تثير تساؤل القارئ، فلا يصبح كل المقروء لديه مدركاً، ومفهوماً فهماً تاماً كصورة واضحة المعالم، فيتساءل عن الكيفية التي وردت بها في السياق وماذا يُقصد بها ... وهذا مثال عن هذا النوع من الحذف «كنت أشعر أنني أرسمك أنت لا غير. أنتِ بكل تناقضك. أرسم نسخة أخرى عنك أكثر نضجا.. أكثر تعاريج. نسخة أخرى من لوحة أخرى كبرت معك.

كنت أرسم تلك اللوحة بشهية مدهشة للرسم. بل وربما بشهوة ورغبة سرية ما.. »[31]، فالقارئ في هذه الحال بحاجة إلى توضيح أكبر؛ ليشكل حلقة التواصل السردي.

فالسؤال الذي يطرحه القارئ أثناء تأمله الفراغ، مثل: لماذا وضعت الكاتبة العلامة بعد (نضجا..)؟ ما صفة النضج المتعلق بهذه اللوحة؟ الأمر نفسه سيجده

بعد قراءة (رغبة سرية ما..)، كيف يكون السر عندما يرتبط بالرغبة؟ لماذا لم تكتف بوضع النقطة النهائية؟ ما هو الأمر الذي تحيل إليه "ما" ؟

أمام هذه الحال سيعيد قراءة بعض الجمل علها تفصح عن شيء ما وتجيبه عن أسئلته، أما في حال عدم وجود إجابة، فإنه يضع مجموعة من التأويلات؛ ليواصل الاسترسال في القراءة دون تعثر أو تراجع؛ فتوقّفه أمام كلمة منفتحة على الحذف قد يجد لها الصورة المناسبة لسدّها، وقد لا يجدها بالشكل المقنع، فتشكل لديه إبهاما وعرقلة في السير، لكن سيتحايل بصورة من الصور لمد جسور التواصل مع باقي الأحداث والمَشاهد.

فمثل هذه الوضعيات «تنعقد العلاقة بين الراوي والمروي له في السرد من خلال الأسئلة المباشرة أو غير المباشرة التي يطرحها الأول ليضمن حسن متابعة الثاني لحكايته، أو يطرحها الثاني حين يواجه ما يستغربه أو لا يوافق منطقه من كلام الأول»[32]، فإذا كانت لغة الكاتبة في حد ذاتها لغة مغرية[33] تبعث على التخيل، فماذا يقال عنها حينما تضيف للقارئ مساحة أخرى منه؟ إن الكاتبة تمنح القارئ «الفرصة لصياغة ما ليس مصوغاً» [34]، من خلال قراءة الرواية بشكل خاص لا عابر.

فإذا كان المقطع السابق موقفا واحدا من بين الموافق التي يتريث عندها ليجيب نفسه عن الأسئلة التي تثيرها تلك الكلمات ومن بعدها علامة الحذف، فإن الرواية تعج بمثل هذه المواقف.

وإذا كان فن الرواية يتمثل «في اختيار ما نقول وما لا نقول»[35]، فإن ما يقال جسدته اللغة بتلك الانتقاء الإبداعي للمفردات وصياغة التراكيب، وما لا يقال تجسَّد بوضع علامة الحذف بعد الكلمة، فتخرجها من عالم الغياب إلى عالم الحضور بعد تنقيب القارئ وحرصه على استيعابها، فقد يكون ذلك الحذف لأسباب ما

كالإيجاز، أو لتفجير مخيلة القارئ، أو حدث مسكوت عنه عمدا؛ لتَعلُّقه بوقائع تاريخية أو بذاكرة الراوي في موقف ما...

كما أن القارئ يجد نفسه في حيرة أمام بعض الكلمات التي توجب علامة الحذف الوقوف أمامها؛ لأنها تحيل إلى عَلَم أو قصة من القصص التي مر بها ذلك العلم في حياته، وعليه يُعتبر متن الرواية مثقفاً، فقد تضع الكاتبة علامة الحذف لأن الصورة أو الحدث تعرفه، فتستغني عن التفاصيل، لكن القارئ سيحاول التوصل إلى ما لم تفصله أو تجاوزته عمدا، ومحاولاته المستمرة تجعله باحثا عما لم يتمكن من تأويله، وخاصة حينما تتحدث عن الفن والفنانين وتربطه بحياة خالد فينتج عن ذلك وصف فلسفي[36]، فبالأسئلة التي يطرحها على الرواية وعلى نفسه يخرج برصيد ثقافي كبير متعدد المرجعيات، هذا لا يعني أنه لا يجد الإجابة دوما عن أسئلته الخاصة، بل قد يجدها بشكل فني راق قد يخرق توقعه أيضاً[37].

هـ – الإحالة الإشارية واللغوية: تعددت أوجه الإحالات في الرواية، فمنها ما تنوب عنها علامة الحذف وهي إشارية، وهناك إحالات تقوم بها الضمائر وتعقبها علامة الحذف.

أ – الإحالة الإشارية: تضع العلامة بعد كلمات غير موصولة بالضمائر أو أسماء الإشارة، وذلك الفراغ بعدها يشير إلى حذف دال على أحداث مطولة، ومثال ذلك في هذا المقطع المختار «كان جرحي واضحاً وجرحك خفيا في الأعماق. لقد بتروا ذراعي، وبتروا طفولتك. اقتلعوا من جسدي عضوا.. وأخذوا من أحضانك أباً.. كنا أشلاء حرب.. وتمثالين محطمين داخل أثواب أنيقة لا غير»[38]، وفي هذا المقطع تصوير للوضعية التاريخية والاجتماعية لكل من حياة وخالد، فلو وضعت النقاط النهائية أو الفواصل بدل علامة الحذف؛ لكانت القراءة بالشكل التالي:

فعندما يصل إلى كلمة (عضو)، سيتخيل الذراع فقط، كما في الجملة السابقة وبالتالي لا توجد إضافة في الصورة، لكن بعلامة الحذف بعد (عضو..) بالذات تحيل إلى قصة ذلك العضو وكيف أُقتلع، لا صورة العضو المتخيلة فقط، فيكون الأثر في القارئ أقوى بهذه الوضعية أكثر من قراءتها بنقطة واحدة.

الأمر نفسه بالنسبة إلى (أب)، فقد يتذكر القارئ بهذه الكلمة الاسم (السي الطاهر)، لكن بالعلامة الموضوعة بعده (أب..)، فإنها إشارة إلى العظمة والتاريخ المجيد الذي صنعه هذا الشخص وعُرف به، وفي الحالين (عضو..) (أب..)، دلالة على التاريخ الطويل ليتمهما معا، وفي كلمة (حرب..)، تشير العلامة إلى استدامة هذه الصورة من الماضي إلى الحاضر الذي عاشاه، مخترقة المستقبل؛ بحسب المعطيات التي صرحت بها المشاهد في الرواية.

وبهذه الطريقة يتمكن القارئ من استرجاع المشاهد الروائية دون حاجة إلى الضمائر المحيلة، كما أنها تفتح أمامه الصورة ليعيشها بذلك المنفذ الذي تحضره له علامة الحذف، ويكون بذلك أمام صورتين للحذف (الصورة المنفتحة، والإحالة الإشارية).

ب – الإحالة اللغوية: المقصود بها الإحالة القبلية والبعدية، فالكاتبة رغم وجود الضمائر وأسماء الإشارة... تضيف علامة الحذف، ويمكن ملاحظة ذلك في التالي:

1/ الإحالة القبلية: فقد لا يشير الضمير إلى مفردة واحدة بل «إلى أكثر من جملة سابقة »[39]، فقد يقوم الضمير بدوره دون حاجة إلى من ينوب عنه، لكن السؤال يبقى مطروحاً، لماذا وضعت الكاتبة علامة الحذف بعد الإحالات؟ في النص التالي نموذج من الإحالة القبلية «لقد كانت القيم بالنسبة لي شيئاً لا يتجزأ ولم يكن هناك في قاموسي من فرق بين الأخلاق السياسية، وبقية الأخلاق.. وكنت أعي أنني معك، بدأت أتنكر لأقنعك بأخرى.

تساءلت كثيرا آنذاك.. تراني كنت أخون الماضي، وأنا أنفرد بك في جلسة شبه بريئة، في قاعة تؤثثها اللوحات والذاكرة؟»[40]، إذا كان الحذف الأول يحيل على اختيار الصفة المناسبة، فإن الحذف الآخر الذي يشير إليه الضمير المتصل (آنذاك)، أدى وظيفته كاملة من خلال استرجاع القارئ لتلك الذاكرة التي تقصدها الكاتبة، على أساس «أن الرواية في – مجملها – فعل تذكر من الراوي، لفعل جرى في الزمن الماضي»[41]، أما علامة الحذف فقد كانت لها وظيفة مُكملة، وهي النظر إلى الزمنين الماضي كمحتوى، والحاضر الذي يتضمن وقع حال الاسترجاع كصورة في زمن التذكر، أي حال الخطاب وما يصاحبها من ملامح الحسرة والحيرة، وصورة الماضي بمواقفه وجلساته الجميلة.

إذن، الفرق بين الضمير وحده، وفي حال إضافة علامة الحذف، اختلاف يتجسد في: أن الأولى فيها استرجاع عام غير تفصيلي، أما الثانية: فعملية تمثّل المشهد مجزأة ومفصلة للراوي في الزمنين الماضي والحاضر.

2/ الإحالة البعدية: تتضمّنت الرواية في العديد من المواطن إشارات لما هو آت من أحداث في الصفحات اللاحقة، ومثال ذلك: «كيف لم تثر نزعتكِ السادية شكوكي يومها.. وكيف لم أتوقع كل جرائمكِ التي تلت ذلك اليوم، والتي جرّبتِ فيها أسلحتكِ الأخرى»[42]، المقطع مقتبس من المشاهد الأولى للرواية، وفيه إشارات "استباقية" لما سيحدث في الفصول اللاحقة، فقد لا يتعرف القارئ على صورتها بشكل تام ومحسوس، إلا إذا قرأ الأحداث المقصودة.

لكنه يحاول أن يبني صورة لأحلام بالتجزئة كما تريد الكاتبة من خلال موضعة الأحداث والتداخلات الزمنية، فإذا كانت الهاء في (يومها..)، تقوم بدور الإحالة اللاحقة أو البعدية لحدث مبهم بالنسبة للقارئ؛ فلأنه يقع في الزمن المستقبل للقراءة، لكنه في حقيقته وقع في الزمن الماضي للحكي، أما علامة الحذف فإنها

تقوم بتنبيهه إلى عظمة ذلك المشهد الذي لم تظهر منه إلا الأطلال الدوارس، التي تفضح بصمتها الكثير، من خلال الحذف، وهذه الآلية تُحفز القارئ وتشوقه لما هو آت، من خلال الضمائر المحيلة إلى حدث أو مجموعة من الأحداث بصورة موجزة ومكثفة لفظياً، ولما تضاف لها علامة الحذف تنفك القيود التي توجزها وتنتظم في شريط مشهدي يحرك الذاكرة والحواس...

و- صناعة الحدث وتوقعه: وضعت الروائية علامة الحذف بعد مجموعة من الظروف والأدوات مثل: لكن، إذن، لا النافية، كما تضعها بعد بعض الأفعال عندما تنتقل إلى حدث جديد، وهذا من «شأنه تحفيز القارئ على مواصلة القراءة وتأثيث الثغرات»[43]، وهذا نموذج:

« ولأن المدن كالنساء، يحدث لبعضهن أن يجعلننا نستعجل قدوم الصباح. ولكن..

« Soir, soir. Que de soirs pour un seul matin.. »

كيف تذكرتُ هذا البيت للشاعر "هنري ميشو" ورحت أردده على نفسي بأكثر من لغة..

"أمسيات.. أمسيات كم من مساء لصباح واحد»[44]، الملاحظ في المقطع تشبيه يصور فلسفة الكاتبة وعمق تأملها، متبوع بتناص شعري يعزز رؤيتها ويثريها ومثل هذا شائع في الرواية من بدايتها إلى نهايتها. فقد لا يجد القارئ في القراءة مواطن محددة تُوضع فيها العلامة، بل منتشرة في جنباتها، وفي هذا المقطع وُضعت بعد (لكن..) الاستدراكية؛ فالحذف في ذلك المكان بالضبط يُفَعّل السؤال (ماذا؟)، ويجعل القارئ يتوقع صورة جديدة عن القول المستَدرك الذي سيأتي، لكن

خالدا سيفاجئه بسؤال آخر من خلال العودة إلى ذاته وفتح الباب واسعا أمام المونولوج المتوالد شيئا فشيئا.

وذلك الحذف دال على المناقشة التي يجريها خالد مع أفكاره كلما تعمق في التفكير، بغض النظر عن وظيفته لكن، كما يدل على صناعته لمسافة التوقع بالنسبة للقارئ، ويشير إلى فترة زمنية للتذكر والتعليق على ما سبق وربطه باللاحق، دون تغيير للفكرة، ولكن لتعميقها...

كما وُضعت علامة الحذف بعد "إذن"، ومثال ذلك:

«طبعا أحب ما ترسمه.. لقد راهنت دائما على أنكَ رسام استثنائي..

قلت:

– فليكن إذن.. كل هذه اللوحات لك.

صاحت:

– أأنت مجنون؟ كيف تهبني كل هذه اللوحات؟ إنها مدينتك.. قد تحن إليها يوما.

قلت:

– لم يعد هناك من ضرورة للحنين بعد اليوم، أنا عائد إليها. أهبها لك، لأنني أدري أنك تقدّرين الفن، وأنها لن تضيع..»[45]، فـ (إذن..) في هذا المقطع تمثل لفظا نهائيا سيتقرر بعده الجواب المرغوب فيه، وأما علامة الحذف بعده، فإنها تمثل إحالة إلى القول السابق والتفاتة إلى مجرياته، كما أنها تحمل في طياتها السؤال نفسه عما سيتقرر بعدها.

سيجد القارئ علامة الحذف بعد "لا" النافية في الحوارات – غالبا– فكأنها بوضعها لتلك العلامة تنفي القول السابق نفيا تاما ومؤكدا؛ لتعطي إجابة غير متوقعة بالنسبة للمُحـــاور وكذلك القارئ، فأغلب الإجابات بعد (لا)، كانت عبارة عن رؤى فلسفية تشبه الحِكم، ومثال ذلك:

«سألتني:

– وهل رسمت أنت هذا الجسر؟

أجبتك متنهداً:

– لا.. لأننا لا نرسم بالضرورة ما نرى.. وإنما ما رأيناه يوما ونخاف ألا نراه بعد ذلك أبدا.. وهكذا قضى (دولاكروا) عمره في رسم مدن مغربية لم يسكنها سوى أيام، وقضى (أطلان) عمره في رسم مدينة واحدة.. هي قسنطية»[46]، كان التعليل سمة بارزة تطبع إجابات خالد وتزيدها قوة وإقناعا؛ لأنها إجابات

مسلحة بالتناص، ممزوجة بالرؤى الشخصية، كما تمتاز بدقة إسقاط النص الخارجي على الحال التي يعيشها[*] .

2 – علامة الحذف بثلاث نقاط وأربع.

قلما كانت تضع الكاتبة ثلاث نقاط متتابعة وأربع، ومثال ذلك: «لوحاتك شيء مميز.. كنا في حاجة إلى شيء جديد بنكهة جزائرية معاصرة كهذه... لقد كنت أقول هذا لابنة عمي عندما فاجأتنا»[47]، وكذلك «تصفحتها وكأنني أكتشف وجودها، ثم عدت لأتأملك عساني أجد في ملامحكما جوابا لدهشتي. عبد المولى.... عبد المولى..»[48]، فاستعمال الكاتبة لعلامة الحذف هذه، في مواطن محدودة، بغية التعبير عن إعجاب خالد أو إحدى الشخصيات بشيء حد الانبهار..

وإذا وقعت بعد علم من الأعلام؛ فإنها تمثل سمعته ومجده، أو تاريخه الأسود[49] فكأن زيادة النقاط إيماء يفضح شخصيتهم، ودليل على معرفته بكل ما يحيط بهم وما يخططونه داخليا وخارجيا. كما توضع لتؤكد بها ثقل هاجس من الهواجس كالقدر– مثلا – وضعف خالد أمامه[50].

بناءً على ما سبق؛ كانت علامة الحذف ثغرات في المشهد الروائي، وفجوات يتشعب من خلالها القارئ، ويتغلغل ليتوحد بالأحداث أكثر فأكثر، لا ليستريح ويجدد أنفاسه فقط، وعمليتا التشعب والتوحد في المحمول اللغوي، وما تحيل إليه علامة الحذف؛ كان بفعل القراءة، على أساس أن «القراءة ليست اكتشاف معنى النص، ولكنها الانخراط في تجربة ما يفعله القارئ بالنص»[51]، كأن يتسلل إلى أعماقه؛ ليعيش التجربة، فيتقاطع وجدانيا مع الشخصيات التي تعبّر عن مواقف مشتركة، سبق وعاشها.

وبذلك القدر الذي كانت تعج به الرواية بعلامة الحذف، كانت هناك فقرات كاملة متعددة الأحجام خلوا منها[52]، وقد لا تختلف في محتواها أو أسلوبها عن باقي الفقرات بشيء، ربما لأن الفكرة المسرودة واضحة، فلا تحتاج إلى زيادة وموضوعها محدود، كما أن ما ترمي إليه تم من خلال التعبير عنه.

خاتمة:

1– أسلوب العلامات وأدوات الترقيم ينظم القراءة ويُحفّز عليها، كما يمنح القارئ نفَساً منتظماً من خلالها، وهو ينتقل من جملة إلى أخرى ومن فقرة إلى ثانية...

2- تلك التقانات البيانية تجعل القارئ يتابع النص بشكل انفعالي خاص في زمن القراءة مثل الوقف والحذف لأنه متلق يشارك الكاتب في المعاني والصور من خلال الدوال والكلمات والأصوات.

3- الصمت آلية اعتمدتها الروائية أحلام لتعطي الفرصة لقرائها كي يسهموا في بناء المشهد السردي بناء مشتركا لأن الخطاب الروائي خطاب إنساني يترجم المعاني الإنسانية والقيم والأشواق والمحن...؛ ذلك لأن الصمت والبياض والفراغ والحذف معادل بياني للإيجاز بالحذف في البلاغة العربية العتيقة وهو في اللغة السردية المعاصرة تقنية فنية تصنع التداولية والتلقي والتوقع... وقس على هذا تقنيات التساؤل والإحالات بأنواعها...

الهوامش:

1- ابن منظور، لسان العرب، مج12، ص 248.

2- نفسه، ص249

3- علامة الترقيم: «هي جزء من الجملة، فإذا استغنينا عن جزء من الجملة فقد انهار بناء الجملة وبالتالي ضاع المعنى»، ينظر: مختار بوعناني، المساعد على بحث التخرج، الفجر للكتابة والنشر، ط01، وهران، 1415هـ /1995م، ص78

4- ينظر الموقع التالي: ديوان العرب، علامات الترقيم في الكتابة العربية ومواضع استعمالها. www.diwanalarab.com

5- نفسه.

6- المراد بالترداد: الظاهرة التكرارية التي أحدثت وقعا حسنا أثناء القراءة، وقال عنه الجاحظ: «وجملة القول في الترداد إنه ليس فيه حد ينتهى إليه»، ينظر: البيان والتبيين، دار الفكر، بيروت لبنان، (د- ت)، ج1، ص105، وقال عنه سيبويه: «وليس في الكلام مفعال ولا تفعال إلا مصدرا

وذلك نحو الترداد»، ينظر: الكتاب، (تح) عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1983 ج4، ص257.

7- الموقع السابق، ديوان العرب، علامات الترقيم في الكتابة العربية ومواضع استعمالها.

8- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، منشورات أحلام مستغانمي، ط17، بيروت - لبنان، 2001 ص 106.

9- محمود سليمان ياقوت، فن الكتابة الصحيحة، قواعد الإملاء، علامات الترقيم، الأخطاء اللغوية الشائعة، لغة الإعلانات الصحفية، مختارات من الشعر والنثر، دار المعرفة الجامعية، القاهرة 2003، ص167.

10- الموقع السابق، ديوان العرب، علامات الترقيم في الكتابة العربية ومواضع استعمالها.

*- لقد تمت العودة إلى رواية مالك حداد(سأهبك غزالة)، للتأكد من توظيفه لعلامة الحذف بنقطتين؛ لتسويغ وضعها في رواية "ذاكرة الجسد"، بما أن الكاتبة متأثرة به جداً، وكان فيه احتمال وجود هذه العلامة في روايته، لكن لم يُعثر عليها، بل اكتفى بالحذف بثلاث نقاط، ينظر مثلا: ص29 ،46، لكنها وجِدت في سيرة نزار قباني، وفي روايات نجيب محفوظ، وقد تكون الكاتبة متأثرة بأحدهما، أو بهما معاً، أو بكُتّاب غربيين...

- Je t'offrirai une gazelle, Prèface de Yasmina khadra, Editions renè Julliard, Paris 1959, et Mèdia-plus, Constantine, 2004, p51, 52…

11- فيروز رشام، علامات الترقيم ودلالاتها في نثر نزار قباني -السيرة الذاتية نموذجاً-، مجلة معارف، المركز الجامعي، البويرة، ع2، أفريل، 2007، ص 96.

12- نفسه، ص 96.

**- لا توجد النقطتان المتتابعتان في قائمة علامات الترقيم، ولكنها مستحدثة، ينظر المقال السابق،، علامات الترقيم ودلالاتها في نثر نزار قباني -السيرة الذاتية نموذجاً- ص 95.

13- نفسه، ص 96.

14- ينظر الموقع السابق، ديوان العرب، علامات الترقيم في الكتابة العربية ومواضع استعمالها.

15- ذاكرة الجسد، ص 152، كما يُنظر، ص: 354، 355، 356، 357..، في هذه الصفحات حذف دال على الصمت، فبعد وصف بعض الشخصيات الممثلة للسلك الدبلوماسي في الخارج وسرد بعض القصص عنها، يظهر الحذف في السرد والتعليق عليه.

16- نفسه، ص197، 198.

17- زاهر بن مرهون الداودي، الترابط النصي بين الشعر والنثر، دار جرير للنشر والتوزيع ط01، 1431هـ ــ 2010م، ص 62.

18- ذاكرة الجسد، ص 235.

19- رائدة عبد اللطيف حسن ياسين، تأثير الرواية الجزائرية في الرواية الفلسطينية، أحلام مستغانمي ويوسف العيلة نموذجاً، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2005.

20- ذاكرة الجسد، ص 30.

21- ينظر: إيلينسنايدر، المخاطَبة المقنعة في الأعمال(كيف تقدّم عملك وتعرضه بشكل مؤثر وفعّال)، PDF، خلاصة أسبوعية لأحدث كتب الإدارة والأعمال، على الموقع التالي www.alkhulasah.com، لشركة أربيكسمريز دوت كوم المحدودة، ص 01.

22- ذاكرة الجسد، ص 164.

23- بارثو تودوروف وآخرون، نظريات القراءة من البنيوية إلى جمالية التلقي، (تر) عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2003، ص 150.

24- ذاكرة الجسد، ص 106.

25- نفسه، ص 47.

26- سوزان روبين سليمان، إنجيكروسمان، القارئ في النص، مقالات في الجمهور والتأويل (تر): حسن ناظم، وعلي حاكم صالح، دار الكتاب الجديدة، ط1، بيروت ــ لبنان، 2007 ص 135.

27- ذاكرة الجسد، ص20 ــ 21، كما يُنظر الصفحات التالية: ص 20 (زائر صقلية) وكذلك ص121 (المقطع الذي شبهت فيه الراوي بزوربا)، ص200 (تجربة الكتابة والرسم)، وغيرهما كثير...

28- في هذا النوع من الحذف، هناك صورة أخرى ينفتح فيها القارئ على مشهد جديد في الرواية، فيكون الحذف بعد جمل قصيرة مطلعاً مشهدياً، مثل: "وتطلين.."، ص 253.

29- فيروز رشام، علامات الترقيم ودلالاتها في نثر نزار قباني -السيرة الذاتية نموذجاً- ، مجلة معارف، ص 98.

30- ناصر عمارة، اللغة والتأويل، مقاربات في الهرمينوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي الدار العربية للعلوم، ناشرون، دار الفارابي، بيروت – لبنان، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر 1428 هـ – 2007، ص 31، 32.

31- ذاكرة الجسد، ص 136، 137.

32- لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ص 105.

33- ينظر، عبد السلام صحراوي، الأناقة والإغراء في لغة أحلام مستغانمي، في الموقع التالي: www.nizwa.com

34- رامان سيلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ص 174.

35- برغسون وآخرون، حوار الفلسفة والسينما، (تر) عز الدين الخطابي، منشورات عالم التربية، ط1، الدار البيضاء، 2006، ص 68.

36- ينظر، ذاكرة الجسد، ص183 (الفن والليل، العقل والجنون، والممكن والمستحيل).

37- ينظر ذاكرة الجسد، ص87 « لم يكن موعداً.. كان احتمال موعد فقط.. لا بد أن تعلم أنني أكره اليقين في كل شيء.. أكره أن أجزم بشيء أو ألتزم به.. الأشياء الأجمل، تولد احتمالا.. وربما تبقى كذلك»، فكل علامة مثيرة لسؤال القارئ: بـــ (ماذا وكيف؟)، وها هي إجابات الكاتبة تحمل الطابع الفلسفي في عرضها، وتجيب إجابة فنية مُحاورها وقارئها.

38 ــ ذاكرة الجسد، ص 102.

39 ــ صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق(دراسة تطبيقية على السور المكية)، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 1421 هـــ 2000م، ج1، ص162.

40- ذاكرة الجسد، ص 101.

41- رائدة عبد اللطيف، تأثيـــر الروايـــة الجزائرية في الرواية الفلسطينية، مخطوط ماجستير ص 50.

42- ذاكرة الجسد، ص 18.

43- مريد كريمة وبوزيان فاطمة الزهراء، همس النوايا، (مقال)، في الموقع السابق: ديوان العرب.

44- ذاكرة الجسد، ص 22.

45- السابق، ص 398، وأيضاً، ص 280.

46- نفسه، ص 162.

*- تعددت مواطن وضع علامة الحذف في الرواية، إضافة إلى ما سبق، وُضِعت في: الحوارات العامية، وبعد ظروف الزمان، وغيرها..

47- نفسه، ص 54.

48- نفسه، ص 55.

49- نفسه، ص 270.

50- السابق، ص 62، 64.

51- لمياء باعشن، نظريات قراءة النص، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ذو الحجة 1421هـ، مارس 2001 م، مج 10، ج 39، ص 118.

52 ـ ذاكرة الجسد، ص 104-105.

ابن أبي الرَّبيع الإشبيليِّ السَّبتيِّ وأثره النَّحوي

أ.جميلة راجاح
جامعة مولود معمري تيزي-وزو -الجزائر

مقدّمة: عرفت بلاد المغرب والأندلس في القرنين السّادس والسَّابع الهجريَّيْن حركةً علميّةً مزدهرةً في شتى العلوم رغم الظّروف السياسيَّة الّتي كانت تمرُّ بها من حين إلى آخر، حيث لم يُؤثِّر ذلك الوضع على النَّشاط الفكريِّ تأثيرًا كبيرًا فهناك العديد من العلماء الّذين تصدّوا للتَّدريس والتَّأليف، وكان أكثر العلوم حظًّا الدِّينيَّة ثمّ تليها اللّغويَّة والنَّحويَّة خاصّة الّتي بلَغَت أَوجّها من الرّقي والنُّضج في هذه الفترة نظرًا للتّداخل الثقافيِّ بين القطرين – المغرب والأندلس- الّذي نتج عن الوحدة السياسيَّة والاجتماعيَّة والعلميَّة بينهما منذ عصر الدّولة المرابطيّة لمّا كانت الأندلس تحت الحكم المغربيِّ إلى غاية عصر المرِّينيّة، الأمر الّذي جعل العلماء والطَّلبة يتنقَّلون بِسهولة بين المراكز الثّقافيَّة للاستزادة من العلم ونشره كمراكش وفاس وبجاية وتلمسان والقيروان وإشبيلية وغرناطة وسِواها. وعلى هذا قصدَ الكثير من أبناء المغرب الأندلس فَطَابَ لهم المقام فيها للدِّراسة والتَّدريس والاشتغال، والعكس يحدث حيث وَفَدَ عددٌ هائلٌ من الأندلسيِّين على المدن المغربيَّة فاستقرّوا بها، وصاروا من العلماء الّذين كان لهم الأثر الطيِّب في النَّهضة العلميِّة عامّة، وكان الدَّرس النَّحويِّ في مقدِّمة فنون العربيَّة الّتي نالت حظَّها من العناية كما هو حاله في المشرق، حيث برَزَ في هذه البلاد كِبار الأعلام الّذين اشتغلوا بالنَّحو جنبًا إلى جنب. وأذكر منهم القاضي عيَّاض (ت544هـ)، ابن هشام اللَّخمي (ت577هـ) السّهيلي (ت581هـ) ابن مضاء القرطبي (ت592هـ)، ابن خروف

(ت609هـ)، أبا عليّ الشّلوبين (ت645هـ) الدبّاج (ت646هـ)، ابن عصفور (ت669هـ) وابن أبي الرّبيع السّبتيّ (ت688هـ) والقائمة طويلة. فهذه الأسماء وغيرها دليلٌ على الإقبال الواسع لأهل القطرين على دراسةِ النّحو وتدريسه منذ عرفوه عن طريق جودي بن عثمان (ت198هـ) الّذي يعدُّ أوّل نُحاة الأندلس الّذين قصدوا المشرقَ فحلَّ بالكوفة أين دَرسَ النّحوَ على الكسائي وتلميذه الفرّاء (ت207هـ)، وعند إيّابه جلَبَ معه كتاب الكسائي (مختصر في النّحو) فَأكبَّ على تدريسه ببلده ومنه دخل المغرب، وبقيَ النّحو الكوفيّ مسيطرًا لوقتٍ طويلٍ إلى أنْ جاء محمّد بن موسى بن هاشم المعروف بالأُفشنيق (ت307هـ) مُدخل النّحو البصريِّ إلى الأندلس من خلال كتاب سيبويه (ت180هـ) الّذي قَرَأَهُ على ابن جعفر الدّينوري (ت289هـ) فانتسخَ منه نُسخةً وأخذها معه، ومن حينها بدأ الأندلسيّون يهتمّون بالكتاب دراسةً وتدريسًا وشرحًا.

ووقع اختياري في هذه الدِّراسة على ابن أبي الرَّبيع الإشبيلي السَّبتيِّ الّذي كان أحد أهمّ النُّحاة الأندلسيِّين الّذين ساهموا بجهودهم في تنمية الدَّرس النَّحويِّ وإثرائه بالمغرب والاندلس، وقد نَالَ شهرةً واسعة بين أقرانه العلماء فكان الطّلبة يقصدونه من كلِّ ناحية.

1- **مولده، نسبه، نشأته ووفاته:** هو عبد الله بن أحمد بن عبيد الله بن محمّد بن عبيد الله بن أبي الرّبيع القرشي الأمويّ العثماني الإشبيليّ السَّبتيّ، وهو من أصول عربيَّة، انتقلت أسرته إلى قرطبة ثمّ إلى إشبيليّة الّتي وُلِد بها سنة 599هـ نَشَأَ وتعلَّم على أيدي شيوخها الكِبار، وبعد أنْ بَدَتْ عليه معالم التّميّز والنّبوغ وهو في سنّ صغيرة كلّفه أبو عليّ الشّلوبين أحد شيوخه الكِبار بتدريس الطّلبة المبتدئين بالجامع الأعظم في إشبيلية وحتّى بعد وفاة شيخه الشّلوبين خلفه في مهمّة تدريس النّحو بالجامع ذاته. ولكن لم يدمْ له مقامٌ في إشبيلية بل اضطرّ للمغادرة بسبب ما آل إليه مصيرُها على أيدي النّصارى فقَصَدَ المغرب الأقصى، وكان من حُسن حظِّ

مدينة سبتة أنْ ينزل بها ويقضي فيها بقيّة عمره، منكبًّا على التّأليف وتدريس اللّغة والنّحو لتضلّعه فيهما فانتفع بعلمه جمع من الطّلبة، حتَّى إنَّه حظِيَ بعناية من وُلاتها وأهلها "نال حظوةً خاصّة عند هذا الأمير (يقصد أبا القاسم العزفي) وبنيه وعاش في كنفهم مكفي المؤونة متفرّغًا للتّدريس والتّأليف"[1]، ولم يتوقّف هذا العالم البارع عن العطاء تدريسًا وتأليفًا إلى أنْ أدركه الأجل في السَّادس عشر من شهر صفر سنة 688هـ، وتمّ دفنُه في المقبرة الكبرى بسفح جبل الميناء[2]، وقد تأسَّف عليه خاصّة النَّاس وعامّتهم كثيرًا لعلمه الوفير الّذي انتفعوا به كثيرًا في المغرب والأندلس.

أولى ابن أبي الرّبيع السّبتي كلَّ اهتمامه للدِّراسة وإقراء المبتدئين بمسقط رأسِه إشبيلية في سنٍّ مبكِّرة، فقد أذِن له شيخه الشَّلوبين أنْ يتصدَّر لإشغاله ولذلك كان يُرسِل إليه الطّلبة الصّغار[3]، واستمرّ في ذلك حتَّى بعد تنقّله إلى مدينة سبتة حيث انقطع فيها للتّدريس والتّأليف أيضًا، وعلى هذا نجد أنّ ابن أبي الرّبيع "مثالٌ نموذجيّ للوحدة العلميَّة بين العدوتين، لقد قضى النّصف الأوّل من حياته في مسقط رأسه إشبيلية، وبعد سقوطها عام (646هـ) انتقل إلى سبتة فقضى فيها بقيّة عمره، وبها توفي"[4] فقد مَثَّل هذا النَّحويِّ وحدة بلاد المغرب والأندلس أحسن تمثيل من الجانب العلميِّ، حيث قضى شطرًا من حياته في الأندلس طالِبًا ومدرِّسًا وهو غلام يافع، والشَّطر الثَّاني منها في بلاد المغرب مُنْشَغِلاً بالتّدريس والتّأليف حتَّى بَلَغَ فيهما شأوًا عظيمًا إلى حين وفاته، وهناك مِن مترجميه الّذين قالوا بأنَّه استمرّ في طلب العلم بسبتة ففيها قرَأ على إمامها أبي علي العبّاس العَزَفي (ت633هـ)[5].

وأيًّا ما كان الأمر، فقد كانت سبتة بالنِّسبة إلى هذا النَّحويِّ موطن الطّلب والعطاء وهو بذلك لم يشتهر في إشبيلية كثيرًا إلاَّ بعد تنقّله إلى هذه المدينة الّتي ألقى فيها "عصا التسيار، وظلّ منكبًّا على التعلّم، منقبِضًا عن النّاس"[6]، وعلى هذا تبقى هذه المدينة محطّة الشُّهرة العريضة الّتي بلغها في علوم كثيرة. ولهذا السّبب كان يُعدُّ

من كِبار الشّيوخ الّذين ساهموا في تقدُّم الدِّراسات اللّغويَّة والنَّحويَّة وازدهارها، فهو إنْ كان إشبيليّ المولد والنَّشأة فإنّه سبتيّ الاشتغال، وبالتّالي لو لا جهوده بسبتة ونشاطه الكثيف فيها لمّا كانت هذه الدِّراسات لِتعرِف كلَّ ذلك التقدّم والازدهار في زمانه فقد كان ممّن ترك أثرًا فيها وأغناها أيّما إغناء، حيث انتصب للتّدريس والتّأليف منذ قدومه إلى سبتة، علاوة على أنَّه في الوقت الّذي قصدَها كانت مرحلة تحصيله العلميِّ قد اكتملت، ولذلك انكبَّ على العطاء فارتوى من علمه الغزير أبناء المغرب.

2- شيوخه وتلامذته: من المؤكَّد أنَّ ابن أبي الرَّبيع السَّبتيِّ أخَذَ العلمَ عن شيوخ بلده، ولكن لم يكونوا بالعدد الكثير؛ لأنّه لم يكن ممّن تنقّلوا إلى المشرق للقاء المشايخ والأخذ عنهم، ولكن بالرّغم من قلّتهم إلاَّ أنَّ له أكثر من شيخ واحد، فقد بلغ عددهم على حدِّ قول تلميذه ابن الشاط (ت723هـ) في برنامجه اثني عشر شيخًا[7] ويُمكن الإشارة إلى البعض منهم في الآتي[8]:

- أبو العبّاس أحمد بن محمّد العَزَفي أحد علماء سبتة المشهورين ورجال السيّاسة المذكورين في زمانه، قرَأ عليه ابن أبي الرّبيع الفقه وأصوله، كما رَوَى عنه صحيح مسلم وسنن التّرمذي، وسيرة ابن هشام والشّفا ومقامات الحريري وغيرها.

- محمّد بن عبد الله القرطبي (ت628هـ) الّذي لزمه النّحويّ، وقد أجاز له كلَّ ما رواه عن المشايخ الّذين قَرَأَ عليهم، وأخذ عنه كتاب الموطأ وبعض مصنّفاته في التّفسير.

- أبو الحسن علي بن جابر الملقَّب بالدبّاج الّذي دَرَس عليه النَّحوَ من خلال كتاب سيبويه.

- أبو علي الشَّلوبين علم من أعلام الأندلس، تتلمذَ عليه عدد لا يُحصى من الطّلبة، وكان بينهم ابن أبي الرّبيع الّذي سانده في كثير من آرائه النَّحويَّة، قَرأَ عليه

كتاب سيبويه، وكذلك الإيضاح والجزوليّة وبعض المفصّل للزمخشري (ت538هـ).

– أبو عمرو محمّد بن أحمد بن هارون التميميّ الإشبيليّ (ت647هـ) تلا عليه القرآن الكريم بالقراءات السَّبع، وقرأ عليه مؤلّفات عدَّة، منها الجُمل والإيضاح والفصيح وأدب الكاتب وإصلاح المنطق والحماسة الأعلميّة وإلى غير ذلك.

وإذا كان هذا النَّحويّ من أبرز العلماء بسبتة الّتي ازدانت في عصره بأنبهم وأنجبهم، وأكثرهم تمكّنًا في النَّحو واللّغة، فإنَّ لذلك أثرًا في طلبة العلم الّذين تسابقوا للأخذ عنه والتشرُّف بلقائه والانتساب إليه "تكاثر عدد الآخذين عن أبي الحسين بن أبي الرّبيع من الأندلسيِّين والمغاربة خاصّة في مادّة النَّحو والأمّهات الّتي شَرَحَها"[9]، حيث بلغ عددهم ما يزيد على ثمانية وثلاثين تلميذًا كما عدّهم الثبيتي محقِّق كتابه (البسيط في شرح الجُمل للزَجَّاجي)، ودرسوا عليه مؤلّفات مهمَّة في النَّحو واللّغة والفقه وغير ذلك. وفي الآتي ذِكْرٌ لأبرز تلامذته:

– أحمد بن إبراهيم بن محمد الزبير الثّقفي الأندلسيّ (ت708هـ) صاحب التآليف القيِّمة[10]، دَرَسَ على جماعة من عِلِيَّة الشّيوخ، وكان بينهم ابن أبي الرّبيع الّذي أخذَ عنه العلوم اللّغويّة والدّينيّة.

– أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عيسى الغافقي الإشبيلي (ت710هـ أو ت716هـ) أندلسيّ الأصل والمولد ثمّ سبتيّ النّشأة والاشتغال والوفاة، صار من جلّة النّحاة بمدينة سبتة الّتي تنقّل إليها مع عائلته في سنّ الخامسة، تتلمذَ على كِبار شيوخها.

– أبو عبد الله بن رشيد الفهري السّبتي (ت721هـ) صاحب الرّحلة الشّهيرة أخَذَ عن شيخه ابن أبي الرَّبيع الكثير من النَّحو واللّغة، وقد تحدّث عن الصّدى الكبير الّذي لقِيَه شيخه في المشرق[11]، حيث كان علمه محطّ اهتمام العلماء والطّلبة.

– أبو القاسم بن الشّاط الأنصاريّ السّبتيّ أحد تلاميذ ابن أبي الرّبيع النّجباء، له تآليف حسنة أبرزها (الإشراف على الشّرف) و(أنوار البروق في تعقُّب مسائل القواعد والفروق) و(تحرير الجواب في توفير الثواب)، كما له الفهرسة الشَّهيرة[12] الّتي حرّرها لِشيخه، نقل فيها الكثير عن جوانب حياته العلميَّة.

– عبد المهيمن الحضرميّ السّبتي (ت749هـ) الّذي تقدّم في النَّحو كثيرًا، مع ميلٍ واضحٍ إلى نظم الشِّعر والأدب، دَاوَمَ على قراءة (كتاب) من شيخه. وظَلَّ يُدرِّس الطّلبةَ بسبتة ويُصنِّفُ في النَّحو حتَّى صار من جلَّة شيوخها الّذين نشطوا في الدَّرس النَّحويِّ واللّغويِّ.

وإنْ دلَّ هذا على شيء فإنَّه يدلُّ على أنَّ ابن أبي الرَّبيع قدَّم الكثير للدَّرس النَّحويِّ ببلاد المغرب والأندلس، ولا سيما بمدينة سبتة الّتي كان فيها عميد هذا الحقل تدريسًا وتأليفًا.

3– **ثقافته ومؤلّفاته:** تميَّز ابن أبي الرّبيع السَّبتيِّ بثقافة متنوِّعة لتنوُّع العلوم الّتي تلقَّاها، فقد استطاع أنْ يجمَعَ بين العلوم العقليّة والنّقليَّة، ويتقدَّم فيها كثيرًا حيث كان ذا ثقافة مُتنوّعة متينة على نمط ثقافة عصره الّتي تتميّز بالمُشاركة في مختلف العلوم، ولكن ما صنَّفه من كتب يدلُّ على تضلّعه في علم النَّحو[13]، فهو فقيهٌ، وأصوليٌّ، ومحدثٌ ومفسِّرٌ، ومقرئٌ، وأديبٌ ولغويٌّ ونحويٌّ لامعٌ صار قدوة النُّحاة في عصره وحظِيَ بعناية العلماء في المغرب والمشرق. فقد شاعَ ذكره بالرّغم من أنّه لم يكن ممّن اشتهروا بالتنقّل، إذْ لم تُعرف له رحلة إلى المشرق ولا التنقّل بين المُدن المغربيّة الأخرى كما صنع كثير من معاصريه وتلامذته[14] لأخذ العلم وطلبه من مظانه ومصادره، ولكن يكفيه فخرًا أنَّه عاش في بيئة حافلة بالعلم وأهله وبالأخصّ مدينة سبتة، حيث حظِيَ فيها العلماء والطَّلبة بِمنزلة سامية عند الحكّام الّذين كانوا يُقيمون لهم وزنًا ويُشجِّعونهم على التّأليف والتّدريس بِفَتح المدارس وإغداقهم بالأموال والهدايا، وكانت العناية باللّغة والنَّحو واضحة جدًّا إلى

جانب العلوم العربيّة والإسلاميّة الأخرى. وعلى هذا فإنَّ الدَّرجة العلميَّة الّتي بَلَغها هذا النَّحويّ كانت نتيجة اطّلاعه على أشهر المؤلّفات، وبالأخصّ تلك المتون النَّحويَّة واللّغويّة الّتي قرأها على شيوخه "أخذت كتب النَّحو واللّغة والأدب نصيبَ الأسد من قراءاته على أشياخه، فقد قرأ عليهم – كما جاء في برنامجه– سبعة عشر كتابًا في ذلك هي: كتاب سيبويه، والجُمل للزَجَّاجي والإيضاح لأبي علي الفارسي، والمفصَّل للزمخشري، والكرّاسة للجُزولي، والكامل للمبرّد، وإصلاح المنطق لابن السكيت، والفصيح لثعلب والأمثال لأبي عبيد وأدب الكتاب لابن قتيبة والأمالي لأبي علي القالي، والمقامات للحريري والحماسة، وشرح أشعار الستّة للجاهليّين للأعلم، وشعر أبي تمّام، وشعر أبي الطيّب، وسقط الزند للمعري. وبعض هذه الكتب قرأه أكثر من مرّة، وعلى أكثر من شيخ. ولم تقف قراءاته عند هذه الكُتُب بل قرأ غيرها كثيرًا، فقد صرّح في كتابه (البسيط) بالنّقل عن التّذكرة والبغداديّات، والأغفال لأبي علي الفارسيّ وكتاب القد لابن جنّي، والأفعال لابن القوطيّة، والحلل لابن السيد، والتوطئة لأبي علي الشّلّوبين"[15]، فقد أُتيحت له فرصة الاطّلاع على ما تقدّم من مُصنّفات قيِّمةٍ في النَّحو واللّغة والأدب عن طريق شيوخه، ممّا جعل منه شخصيّة لامعة صُنّفت في قائمة أساطين النَّحو واللّغة في بلاد المغرب والأندلس. وترك النّحويّ مؤلّفات متنوّعة ذات قيمة في العلوم اللّغويَّة والنَّحويَّة، تشهد له بالرّيادة فتكفيه شهادة السّيوطي (ت911هـ) الّتي أشادت بإمامته في النَّحو قائلاً "إمام أهل النَّحو في زمانه... وقرأ النَّحوَ على الدبّاج والشّلّوبين، وأذن له أنْ يتصدّرَ لإشغاله... ولم يكنْ في طلبة الشّلّوبين أنجب منه"[16]. ومن مؤلّفاته الّتي ذكرتها كتب التّراجم والطّبقات:

– الكافي في الإفصاح عن مسائل الإيضاح وهو شرح على إيضاح الفارسي (ت377هـ)، وقد ذكره التّجيبي في برنامجه باسم (الكافي في الإفصاح عن نكت كتاب الإيضاح)[17]، وتوجد نُسخة من مخطوطه بمكتبة جامع القرويّين بفاس.

– البسيط في شرح جُمل الزَجَّاجي (ت337هـ) الّذي جَمَعَ فيه مختلف الشُّروح الّتي وضعها على كتاب (الجمل) والبسيط أوّل مؤلّفاته، ومع ذلك كان أقلّها شهرةً وانتشارًا، وتوجد نُسخة من الجزء الأوّل له في مكتبة الخزانة العامّة بالرّباط برقم 206 ق[18]، ويحتوي هذا الجزء على ستّة وعشرين بابًا، تناول في الباب الأوّل منه أقسام الكلام، وفي الباب الأخير الصّفة المُشبّهة باسم الفاعل[19]، والتزم في هذا الكتاب بنفس ترتيب الجُمل، حيث تعرّض لجميع أبوابه دون زيادة أو نقص أو تأخير، وتناول كلَّ باب على حدة، وكان يورد النّصوص أوّلاً ثمّ يشرحها ويُوضّحها، علاوة على أنَّه كان يُكمّلُ قولَ الزَجَّاجي النّاقص في بعض الأبواب تحت عنوان (مسألة)، مع الإشارة إلى عدم موافقة بعض النُّحاة الزَجَّاجي على تسميته للأبواب، وكان نحويُّنا يُعلِّق بالحجَّة والدَّليل على رأي الزَجَّاجي، كما كان يُصحِّح مذهبَه ويُدافع عنه ضدّ اعتراضات النُّحاة الآخرين عليه. هذا وقام بِشرح ألفاظ الجُمل وإعرابها مع الإشارة إلى اختلاف نُسخ الكتاب[20]، فحاصل القول ابن أبي الرّبيع كان أكثر توسّعًا في الأبواب، وأكثر بسطًا لمسائل نحويَّة عديدة.

– الشَّرح الأوسط على كتاب الجُمل وقد ذكره التجيبي في برنامجه قائلاً "الشَّرح الأوسط على كتاب الجُمل من إملاء شيخنا العلاّمة أبي الحسين بن أبي الرّبيع"[21]؛

– القوانين النَّحويَّة[22]، وهناك من يذكره باسم "الملخّص في ضبط قوانين العربيّة" لاختلاف نُسخه وتوجد نُسخة منه مثلاً بالخزانة العامّة في الرّباط باسم القوانين، ونُسخة أخرى بالعنوان الثَّاني في إحدى مكتبات إسبانيا.

– تقييد على كتاب سيبويه وهو مفقود؛

– كان ماذا؟ مفقود أيضًا، صنّفه ابن أبي الرّبيع لِتخطئة مالك ابن المرحّل المصمودي السّبتيّ (ت699هـ) في هذا التّركيب، وأثار هذا خصامًا خاصًّا بينهما

ممّا جعل كلَّ واحد منهما يُؤلِّفُ كتابًا فابن أبي الرّبيع قدّمه بِهذا الاسم (كان ماذا؟) وابن المرحّل سمّى كتابه بـــ (الرمي بالحصى والضّرب بالعصا).

– تفسير القرآن الكريم وهو آخر مؤلّفاته كما أشار التجيبي في برنامجه، تغلّب عليه الطَّابعُ النَّحويّ "عُنِيَ ابن أبي الرّبيع في تفسيره بذكر القواعد النَّحويَّة والآراء المختلفة المتّصلة باللّفظ القُرآنيِّ الّذي هو بصدد إعرابه، فتفسيره كتابُ نَحْوٍ وموضوعه اللّفظ"[23]، فقد استطاع أنْ يجمعَ في هذا الكتاب بين النَّحو والتّفسير.

وإذا جاءت بعض كتب النَّحو المغربيّة والأندلسيّة موجزةً في غاية الإيجازِ كالمقدّمة الجزوليّة لأبي موسى الجزولي (ت607هـــ) الّتي انتقدها الكثير لغلوّ صاحبها في اختصارها، فما لوحِظ في مؤلّفات ابن أبي الرّبيع هو العكس، فهي تبدو في مجملها ضخمة الحجم، بلغ بعضُها عشرة أجزاء كـــ (البسيط في شرح جمل الزَجَّاجي)، والبعض الآخر يزيد على ثلاثين جزءًا مثل (تفسير القرآن الكريم)[24] ولهذا السّبب جاء أسلوب مؤلّفاته واضحًا إذْ "لا تعقيد ولا غموض ولا سجع ولا تورية – في غير المقدّمة– ولا يحتاج إلى شرح أو تعليق أو رجوع إلى مصادر أخرى. بل إنَّ أسلوبَه وهو يكتب أسلوب من يتكلّم ويُخاطب الطَّلبة ويُحاورهم ليرفع عن أذهانهم كلَّ لُبسٍ"[25]، فهذا النَّوع من الأسلوب يكون سهل التّناول، لا يجد الطّلبة صعوبةً في فهم القواعد الّتي تناولها في كُتُبه وإدراكها بحيث يُعرَضُ فيها المتنُ بشكلٍ متناسقٍ ومفصَّلٍ، أضف إلى كثرة الاستشهاد والتَّمثيل لتوضيح القواعد وتأييد آرائه وأحكامه النَّحويَّة. وربّما لهذا السّبب انتشرت مؤلّفاته وبخاصّة (القوانين) "فلقِيت قبولاً لدى العلماء وظلّت محلّ عنايتهم بعد وفاته زمناً طويلاً، فكتابه (القوانين النّحويّة) من الكُتُب الّتي اعتنى بإقرائها العلماء إلى عصور متأخِّرة"[26]. مع العلم أنَّ هذا النَّحويِّ لم يكن مُكتفِيًا بذكر آرائه وآراء غيره فقط، بل كان يُناقش ويُبرّر، ويحتجُّ بأمثلة وشواهد مُستنبطة من هذا المؤلَّف وذاك.

ولوحِظ في هذه المؤلّفات أيضًا، مُباشرة ابن أبي الرّبيع في عرض الموضوعات دون تمهيدات فهو قليلاً ما يستهلّ كُتُبه بمقدّمة، ففي كتابه (القوانين النَّحويّة) مثلاً لم يضع له المقدّمة، حيث تحدّث مباشرة عن الموضوع بعد البسملة اقتداءً بالكتاب العزيز وامتثالاً لِقول الرّسول ﷺ ثمّ الصّلاة عليه، وقد اتّبع نحويُّنا الطّريقة ذاتها الّتي اعتمدها سيبويه في كتابه، وقيل بخصوص هذا إنّ موضوعات (القوانين النَّحويَّة) تتّحد أو تتقارب في بدايتها مع موضوعات هذا الأخير، ولكن ما لم يتفّق فيه الكتابان هو أنّ في عبارات هذا النَّحويِّ من الشَّرح وحسن السّبك والاستشهاد بخلاف عبارات سيبويه في كتابه، والأمر كذلك بالنّسبة لكتاب (تفسير القرآن الكريم) الّذي لم يتوفّر على مقدِّمة، فقد بدأ في (إعراب بسم الله الرّحمن الرّحيم وسورة الفاتحة) دون تقديم، وأنهى الجزء الأوّل من هذا التّفسير بالآية 128 من سورة البقرة[27]، وكان الكتاب في غاية الأهميَّة والإفادة.

ولاشكَّ أنَّ سِعة اطّلاع ابن أبي الرّبيع أسهمت في تنوّع مصادره، فقد حظِيَ بفرصة قراءة أمّهات الكُتُب عن شيوخه الأجلاء وبِخاصّة إذا علمنا أنّه لم تكن له رحلة إلى المشرق، ويأتي في طليعة النُّحاة الّذين تابع أراءهم في مُصنّفاته، سيبويه الّذي اجتهد في فهم كتابه وتفهيمه، ويأتي في الدّرجة الثّانية في النّقل الفارسيّ الّذي لقِيَ من اهتمامه الشَّيء الكثير أيضًا، ومع أنّه مرّات يُصرّح باسمه ومرّات أخرى العكس، ثمّ يليهما الأخفش (ت215هـ) الّذي تردَّد اسمُه كثيرًا في كتاب (البسيط) ولكن دون أنْ يُصرّح باسم كتابه، وكذلك المبرّد (ت286هـ) الّذي نَقَلَ عنه في مواطن عديدة مع مناقشة أكثر آرائه ورَدِّ ما ذهب إليه. هذا ولا يُنسى أنّ هناك من نُحاة الأندلس الّذين كانوا مصدرًا مهمًّا لابن أبي الرّبيع أيضًا، وأشهرهم الشَّلوبين الّذي بلغ منزلة خاصَّة عنده[28]، فقد كان له الفضلُ في ما بلغه من معرفة وتقدّم في النَّحو العربيِّ منذ مراحل حياته الأولى، وأمّا من النُّحاة المغاربة الّذين ذكرهم ابن أبي الرَّبيع فنجد الجزولي الّذي حَظِيَ بالذِّكر في كتاب (التّفسير)[29]، وكذلك

(البسيط) الّذي كان يُشير إلى آرائه باسم (صاحب الكرّاسة)[30]. ويُفهم من هذا كلِّه أنّ الثّقافة المُتنوّعة الّتي اكتسبها ابن أبي الرّبيع كانت عن طريق ملازمته للشّيوخ وعلى رأسهم الشّلوبين كما تقدَّم في الذِّكر، وقراءته لمصادر كثيرة في شتى العلوم ولا سيما مُصنّفات اللّغة والنَّحو، حيث أفاد كثيرًا من بحوث سيبويه والفارسي والمبرّد والشّلوبين وغيرهم، حتَّى عُدَّ من كِبار العلماء الّذين جعلوا مدينة سبتة تتميّز بنشاطها النَّحويِّ واللّغويِّ منذ استقراره بها. كما أنَّ تنوّعَ مصادره يدلّ على سعة الاطلاع، حتَّى بَرَزَ اسمُه بين جلّة العلماء ليس في النَّحو واللّغة فقط، بل في علوم أخرى أيضًا بَرَعَ فيها من قراءات وفقه وحديث وتفسير، فكان له من المؤلّفات الّتي تردّد صداها في زمانه وبعد وفاته، وأقبل النّاس عليها كإقبالهم على جُمل الزَجَّاجي في المغرب والمشرق واعتنوا بِشرحها وتدريسها إلى وقت متأخِّر وخَيْرُ شَاهِدٍ على ذلك قول بهاء الدّين بن النّحاس (ت698هـ) بالمشرق الّذي قدَّر جودةَ كتابه (الإيضاح) وانتفاعه به بترديد هذه العبارة "سيّدنا... ذاك شيخنا إفادة"[31]، ولا يُنسى شرحُ تلميذه إبراهيم الغافقي الّذي جاء على الجُمل كتلخيص لِشرحه (البسيط)، وابن الفخّار الخولاني الألبيري الّذي كان شرحه أكمل من شرح شيخه الغافقي، ممّا يعني أنَّ ابن الفخّار أفاد كثيرًا من (البسيط) وردَّدَ اسمه في عدّة مواضع، علاوة على أنَّه كان كثير الميل إليه مقارنة بابن عصفور الّذي ذكره في شرحه أيضًا[32]. وأذكر إلى جانب هؤلاء، الأشموني الّذي ذكره في شرحه على ألفية ابن مالك (ت672هـ) بحوالي ستّ مرّات[33]. وكذلك المُرادي (ت749هـ) الّذي كان من النُّحاة الّذين ذكروا آراء ابن أبي الرّبيع في مؤلّفاته، ومنها كتاب (الجني الدّاني في حروف المعاني) الّذي نقل عنه في مواضع مختلفة تنحصر في كلّ من باب مذ ما، لات، لكن ولو لا، ومثال ذلك قول صاحب المؤلَّف في مسألة (لات) "وقال ابن أبي الرّبيع (لات) أصلها (ليس). فقُلّبت ياؤُها ألفًا، وأُبدِلت سيّها تاءً، كراهة أنْ تلتبسَ بحرف التمنّي"[34]، وكذلك الأمر في توضيح المقاصد

والمسالك بِشرح ألفية ابن مالك الّذي رَدّدَ اسمَه فيه حوالي ثماني مرّات، فقد أشار إلى رأيه مثلاً في باب لات، باب العطف وغيرهما. كما تكرّر اسمُ ابن أبي الرّبيع في كتابي (همع الهوامع في شرح جمع الجوامع) و(الأشباه والنّظائر) للسيّوطي ومن الأمثلة على ذلك قوله في باب ظنّ وأخواتها "وَذَهَبَ ابن أبي الرّبيع: إِلَى أَنَّ (ضرب) بِمَعْنى: صيَّر مُتَعَدٍّ لاثْنَيْنِ مُطلقًا مَعَ المثَل وغيره نَحو ضَرَبْتُ الفِضَّة خلخالا. وَمَال إِلَيْهِ أبو حيَّان"[35] وللإشارة كان السيوطي تارةً موافقًا لِما ذهب إليه وتارة ثانية مخالفًا، وثالثة مكتفِيًا بعرض حكمه النَّحويِّ كما في المسألة المذكورة. وأعتبر متابعة أبي حيّان الأندلسيّ (ت745هـ) للسَّبتيِّ دليلاً على أنَّ لآرائه واختياراته وتوجّهاته النَّحويَّة أثرًا كبيرًا في المعاصرين له والخالفين من بعده وسِوى هؤلاء كثير.

4- **آراء ابن أبي الرّبيع السّبتي ومذهبه النَّحويّ:** إنَّ أغلب الدِّراسات الّتي اهتمّت بآراء ابن أبي الرّبيع أو تحدّثت عنه في معرض تناولها له كأحد أئمّة النَّحو في الغرب الإسلاميِّ، تُصنّفُه بين العلماء الّذين تأثّروا بالمذهب البصريِّ، وأَكَّدَ على هذا محقّقُ كتابه (البسيط في شرح جمل الزَجَّاجي) بالقول إنَّه "بصريُّ الاتّجاه إلى أبعد الحدود، ويتجلّى ذلك واضحًا في موقفه من مسائل الخلاف بين المدرستين البصريّة والكوفيّة، فما ذكر مذهب البصريِّين والكوفيِّين في مسألة من مسائل الخلاف إلاَّ أخذ بِرأيِ البصريّين"[36]، حتَّى إنَّه في بعض المواضع كان يُساند رأيَ البصريِّين وفي الوقت نفسه يردّ على الكوفيِّين، وفي مواضع أخرى كان يذكر آراء البصريّين دون الإشارة إلى ما يُخالفها من الآراء الكوفيّة، وللعلم لم يكن يُشيرُ إلى آرائهم فحسب، وإنّما كثيرًا ما كان يقوم بِشرحها وتوضيحها. ومن الآراء الّتي تابعَ فيها البصريِّين بِمن فيهم سيبويه أذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- اختار ابن أبي الرّبيع رأيَ سيبويه في أنَّ (ما) المصدريَّة حرف بحيث لا يعود عليها ضمير من صلتها، خلافًا للأخفش وابن السرّاج (ت316هـ) وجماعة

من الكوفيِّين الّذين ذهبوا إلى أنَّها اسم ولذلك تفتقر إلى ضمير، فإذا قلت: يُعجبُني ما صنعت فتقديره عند سيبويه: يُعجبُني صُنعك وأمّا الأخفش فكان يقول: الصّنع الّذي صنعته. و(ما) المصدريّة قسمان، الظّرفيّة وهي الّتي تُقدَّرُ بِمصدر نائب عن ظرف الزّمان، وغير الظرفيّة وهي الّتي تُقدَّر مع صلتِها بِمصدر ولا يحسن تقدير الوقت قبلها. ونُحاة آخرون قالوا إنَّ (ما) زائدة كابن الطراوة (ت528هـ) ولها أربعة أقسام، فالأوّل أنْ تكونَ زائدة لِمجرّد التّوكيد، والثّاني أنْ تكون كافّة، وهي تقع بعد (إنَّ) وأخواتها، وبعد (رُبَّ) وكاف التَّشبيه في الأكثر، والقسم الثّالث أنْ تكون عوضًا وهي ضربان عوض من فعل وعوض من الإضافة، وأمّا الرّابع فأنْ تكون (ما) مَنْبَهةً على وصفٍ لائقٍ كالتّعظيم والتَّحقير وغير ذلك، كما هناك أقسام أخرى ذكرها المُرادي[37]. ولابن أبي الرّبيع رأيٌ في هذه المسألة وهو أنَّ ما مصدريّة، لا تُستعمل وحدها فقط، إذْ لابدَّ أنْ تقترن بِغيرها فتقول: لا أُكلّمك ما دام زيد جالسًا، فـ (ما) مع الفعل في تأويل المصدر الّذي يكون في موضع الظَّرف تقديره: لا أُكلّمُكَ مدّة دوام زيد جالسًا[38]، بِمعنى أنّ (ما) حرفيّة لا دلالة لها إلاّ باقترانها مع غيرها، ورأى هذا الرّأي أيضًا من النّحاة الأندلسيّين ابن خروف الّذي قال بِدوره إنَّ (ما) المصدريّة حرفٌ والصَّواب هو الخلاف فيها[39]، بدليل رأي الأخفش المذكور أعلاه والمُخالف لأنَّه صرَّح باسميتها.

– ذهب ابن أبي الرَّبيع مذهب البصريِّين إلى أنَّ (بسم الله) يُعربُ خبرًا لِمبتدأ محذوف، خلافًا للكوفيّين الّذين قالوا بوجود الفعل المقدّر (أبدأ) ولذلك يُعرب (بسم) جار ومجرور الباء حرف جر واسم مجرور بالباء وعلامة جرّه كسر آخره متعلّق بفعل محذوف وجوبًا، واحتّجوا بأنَّ الجاري مجرى المثل يُحذف متعلّقُه وجوبًا وهو مضاف ولفظ الجلالة مضاف إليه و(الرّحمن الرّحيم) صفتان (لله) والصّفة تتبع الموصوف في الإعراب وهو جرّ آخرهما بالكسر كما يجوز أنْ يُعربَ (الرّحمن) بدلاً و(الرّحيم) نعتًا. وأمّا السبتيّ فقد رَدَّ عليهم بالقول إنَّ الفعلَ الّذي لا يصلُ إلاّ

بحرف الجرّ يضعُف حذفه[40]، ويبدو أنَّ هذا النَّحويِّ لم يكتفِ بموافقة البصريّين فحسب، بل علَّلَ في هذه المسألة قائلاً إنَّ وصلَ الفعل بحرف الجرّ يضعفُ حذفه.

– اختلف النّحاة في مسألة تنكير التّمييز وتعريفه، فهناك جمهور البصريّين الّذين اشترطوا تنكير التّمييز، وأمّا الكوفيّون وتبعهم ابن الطراوة فقد جوّزوا التَّعريفَ واستدلّوا على ذلك بقول الشّاعر:

رَأَيْتُك لمَّا أنْ عَرفْتَ وُجُوهَنا صدَدْتَ وطِبْتَ النّفسَ يَاقيسُ عَنْ عَمرو

ففي (طبتَ النّفسَ) اعتبروا (أل) الدّاخلة عليها معرفة وليست زائدة، وفي حين حَكَمَ البصريّون على ذلك أنَّه لِضرورة شعريَّة، وهو الرّأي المختار عند ابن أبي الرّبيع لقوله "والصَّحيح أنَّ التّمييزَ لا يكون إلاّ نكرة؛ لأنّ المقصود منه بيان ما انبهم من الذّوات. هذا يحصل من لفظ التّنكير فلا فائدة في التَّعريف"[41]، فبالنّسبة إليه لا يُفيد تعريفُ التّمييزَ ولذلك وَجَبَ تنكيرُه.

– تابعَ جمهور البصريِّين في الامتناع عن العطف على المُضمر المجرور دون إعادة الخافض، وذلك بقوله "فإنْ كان الأوّل مخفوضًا فلابدّ من إعادةِ الخافض، لِما ذكرته من الاتّصال فتقول: مَررتُ بِزيدٍ وبِكَ"[42]. واستدلّ البصريُّون على رأيهم بالقول إنَّ الجار مع الضَّمير المجرور بمنزلة شيء واحد فإذا تمّ العطفُ من غير حرف جرٍّ فكأنَّه عطفٌ على جزء الكلمة أو عطف الاسم على الحرف وهذا غير جائز، بخلاف الكوفيّين الّذين أجازوا العطفَ على هذا الضَّمير بلا شرط فقالوا: (مررتُ بِكَ وبِزيدٍ) وجرى عندهم مجرى: (مررتُ بِزيدٍ وعمروٍ)، ولكن ما ينبغي ذكره هنا هو أنَّ الكسائي والفرّاء موافقان للبصريّين في هذه المسألة فلعلّ ما نُسِب إلى مذهبهم هو رأيٌ لبعض المتأخِّرين، واستدلّوا على رأيهم بشواهد من التَّنزيل وكلام العرب، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ

فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [النّساء: الآية 127]، فـ (ما) جاء موضع خفض لأنَّه عطف على الضَّمير المخفوض في (فيهنّ)[43]، وقول الشَّاعر:

فَاليوْمَ قرَّبتَ تَهْجُونَا وَتَشْتِمُنَا فاذْهَبْ فَمَا بِكَ وَالأيَّام مِنْ عَجَبِ

والشَّاهد في البيت (والأيّام) جاء معطوفًا على الضَّمير المجرور في (بك) دون إعادة العامل فإذا اعتبر الكوفيّون عطفَه من غير إعادة لحرف الجرّ أمرًا جائزًا فهو عند البصريِّين شاذٌ ولا يجوز إلاَّ في الشِّعر لضرورة كمثل هذا الموضع. وأجد ابن أبي الرَّبيع متابعًا للبصريِّين في منع العطف بلا إعادة الخافض وفقًا للشَّواهد الّتي احتجّوا بها، ولا سيما الشّواهد القرآنيّة الّتي احتلّت أعلى مراتب السّماع عنده. ولكن حتَّى وإنْ ذهب هذا المذهب قومٌ من النّحاة إلاَّ أنَّ لرأي الكوفيِّين أتباعه لكثرة السَّماع به في التّنزيل وكلام العرب نثره وشعره بشكل خاصّ.

– وتابعهم كذلك في القول إنَّ (الميم) المشدّدة الّتي أُلْحِقت بِآخر لفظ الجلالة (اللّهم) عوض من حرف النّداء (يا) الّتي للتّنبيه؛ لأنّه لا يُمكن الجمعُ بينهما وحجّتهم في ذلك أنَّ العِوَضَ ما قام مقام المعوّض، وأمّا الفرّاء وممّن تبعه من النُّحاة الكوفيّين[44] فقد ذهبوا إلى أنَّ أصل الكلمة هو (يا الله) ثمّ حُذِف حرفُ النِّداء للتّخفيف بِسبب كثرة الاستعمال، وبالتّالي اعتبروا الميمَ زائدة في الاسم تعظيمًا لاسم الله تعالى، ولكن يلزم الحرف إذا نُودِيَ هذا الاسم العظيم (الله) بغير ميم مشدّدة.

ولكن بالرّغم من ميله المفرط إلى المذهب البصريِّ إلاّ أنّه تابع ولو قليلاً بعض آراء الكوفيِّين ومن أمثلة ذلك موافقته لهم في القول إنَّ (بلى) كلمة مركّبة من بل والألف، معتبرين الألفَ بدلاً من الجملة المحذوفة للجواب في مثل قول سبحانه: ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ ﴾ [القيامة: الآية 4] فتقديره: (بلى نجمعُها قادرين) فحُذف (نجمعها) وجُعلت الألفُ عوضًا من ذلك[45]. والصّواب هو أنّ هذه الألف من أصل الكلمة، مع العلم أنَّ هناك من قال إنَّ أصل بلى هو بل، والألف زائدة فيها، أضف إلى أنَّ

البعض منهم جعلها للتّأنيث، فـ (بلى) "حرف ثلاثيُّ الوضع، والألف من أصلِ الكلمة، وليس أصلها بل، الّتي للعطف، فدخلت الألف للإيجاب أو للإضراب والردّ"[46]، يتبيّن من هذا التّعريف أنَّ (بلى) حرف جواب و(بل) حرف عطف وهذا دليل على أنَّهما يؤدِّيان معان مختلفة.

هذا وأذكر أنّ لابن أبي الرّبيع السّبتيّ بعض التوجّهات والآراء النَّحويَّة الّتي انفرد بها كغيره من النُّحاة المتأخِّرين في الآتي:

– ذهب النّحويّ إلى القول إنَّ لام المُستغاث في مثل (يا لزيد) لا تتعلّق بالفعل المحذوف (أنادي) لكونه متعدّيًا بنفسه، وهو برَأْيه هذا مُخالف للمبرّد الّذي اعتبر هذه اللام زائدة وعليه ابن خروف أيضًا واختاره أبو حيّان، ولابن جنّي الّذي قال إنَّها متعلّقةٌ بِحرف النّداء وليس بالفعل لِما في هذا الحرف من معنى الفعل ومُخالف أيضًا لابن عصفور وابن الضائع (ت680هـ) اللّذين نَسَبَا قولهما لسيبويه، حيث رأى أصحاب هذا المذهب أنّ تعدّي فعل الاستغاثة ضَعُفَ بوجوب الحذف ممّا قَوِيَ تعدّيه بهذه اللام[47]، وهو رأيُ جمهور النُّحاة أمثال ابن مالك واختاره ابن عصفور حيث أقرّوا في المسألة بِتَعَلُّق اللام بفعل النّداء المُضمر.

– ومن آرائه أيضًا، ذهب إلى القول إنَّه إذا اتّصلت (ليت) بـ (ما) الحرفيّة فذلك يُزيلها عن الاختصاص بالأسماء، وبالتّالي يجوز دخولها على الأفعال فيُقال (ليتما قام زيد)، ولكن ابن هشام الأنصاريّ (ت761هـ) خالفه في هذه المسألة قائلاً إنَّ (ليت) لا يصحّ دخولها على الأفعال حتَّى مع اتصالها بـ (ما) الحرفيّة فلا يُمكن القول (ليتما قام زيد)[48]، بِمعنى أنَّ (ليت) باقية الاختصاص بالأسماء فلا تدخل على الأفعال حتَّى مع (ما) خلافًا لأخواتها مثل (لعلّ وإنّ) كقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ ﴾ [الأنبياء: الآية 108]، واختار هذا الرّأي قبله الجزولي الّذي قال إنَّ (ليت) باقية مع (ما) على اختصاصها بالأسماء ومن ثمّ يجوز إعمالها لبقاء

الاختصاص وإهمالها حملاً على أخواتها. كما هناك ابن مالك الّذي أجازَ الإعمال والإهمال في ليتما، ومع أنَّ قولَ الفرّاء أبطل دعوى الإجماع بينهما، فهو لم يُجِز كفَّ (ما) لليت وللعلّ بل أوجبَ إعمالَها فتقول: ليتما زيدًا قائمٌ، ولعلَّما بكرًا قادمٌ وهو مذهب سيبويه[49]، وتبعهما كثيرٌ من النّحاة المغاربة والأندلسيّين.

– قال النَّحويُّ ابن أبي الرّبيع إنَّ حرف النِّداء هو النَّاصب للمنادى، لِتضمّنه – الحرف– معنى الفعل المحذوف وجوبًا، والمنادى مفعول به منصوب بإضمار فعل تقديره (أُريدُ أو أنادي) الّذي يُعوّضه هذا الحرف[50]، وكان الفارسيّ قد أشار إلى هذا الرّأي قبله، وهو مُخالف لِجمهور النُّحاة وفي مقدّمتهم سيبويه الّذي رأى أنَّ النَّاصب له هو الفعل المُضمر (أنادي)[51] وليس الحرف الّذي نَابَ مَنابَه، كما اختار هذا الرّأي المبرّد الّذي صرّح بالقول إنَّ ناصبَ المنادى هو الفعل المحذوف وجوبًا وحرف النّداء بدلاً عنه لسدِّه مسدّ ذلك الفعل، ومع أنَّ ابن يعيش (ت643هـ) يُنسَبُ إليه الرّأيُ الأوّل وهو أنّ ناصب المُنادى حرف النّداء[52]، وهذا غير صحيح فبالنِّسبة للرّأي الأوّل يكون المنادى مفعولاً به للفعل المحذوف، وأمّا للرّأي الثّاني فالمنادى يأتي منصوبًا بـ (يا) كما أفاد نحويُّنا.

– ولابن أبي الرّبيع رأي عن (لكنْ) المخفّفة الّتي اختلف النُّحاة في كونها من حروف العطف، وفي عملها تبعًا لِما يليها من مفرد أو جملة، أو لاقترانها بالواو أو عدمه، وتبعًا لِمعنى الجملة قبلها ما بين نهي ونفي، فقد ذهب قومٌ منهم إلى أنَّها حرف ابتداء وليست حرف عطف إنْ وقعت قبل الجملة وتقدّم عليها الواو؛ لأنّ العاطف لا يدخل على حرف عطف آخر، كما هناك من اعتبرها حرف عطف وهو مذهب قومٍ من النُّحاة أمثال الفارسي، حيث تكون (لكنْ) عاطفة ولا تحتاج إلى الواو في مثل قولنا: ما قام زيدٌ لكنْ عمروٌ، وما ضربتُ زيدًا لكنْ عمرًا، وما مررتُ بِزيد لكنْ عمرو، وأمّا يونس بن حبيب فقد قال بأنّها غير عاطفة، بل هي حرف استدراك، والواو قبلها عاطفة لِمَا بعدها ويكون العطفُ عنده عطف مفرد

على مفرد، ولكن ابن كيسان (ت299هـ) خالفه بالقول إنَّ العطف بها وارد وتكون مُخيّرًا في الإتيان بالواو لأنّها زائدة وغير لازمة، ولابن عصفور رأيٌ منفردٌ في هذه المسألة، حيث جعل (لكن) عاطفة والواو قبلها زائدة، ومع ذلك لا تُستعمل (لكنْ) إلاّ بها أيْ إنَّها زائدةٌ ولازمةٌ في الوقت نفسه. أمّا بالنِّسبة لابن أبي الرَّبيع فاعتبرها حرفَ عطف، بحيث تعطف جملة على جملة أخرى حين اقترانها بالواو وهو ظاهر كلام سيبويه، مع وجوب اتّفاق الجملتين في المعنى، وإنْ ولِيَها مفردٌ فتكون هي العاطفة ولكن بشرطين، أحدهما أنْ لا تقترن بالواو وهذا قاله الفارسي وأكثر النُّحاة ولكن قال قومٌ إنَّها لا تُستعمل مع المفرد إلاَّ بالواو، والشَّرط الثّاني أنْ يتقدّمها نهي أو نفي مثل (ما قام زيدٌ لكنْ عمرو- لا يَقُم زيد لكنْ عمرو)[53]، وإذا فُقِد الشَّرطان فتكون حرف استدراك وابتداء كلام. ولكن يبدو أنّ هناك من النّحاة الّذي اعترضوا على رأيه هذا كابن هشام الأنصاري لمّا قال "زَعَمَ ابن أبي الرّبيع أنّها حين اقترانها بالواو عاطفة جملة على جملة وأنّه ظاهر قوله سيبويه..."[54]، فابن هشام لم يوافقه في ما ذهب إليه.

- انفرد ابن أبي الرّبيع بقوله إنَّ كلمة (عيونا) في قول الله تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ [القمر: الآية 12] نصبٌ على البدل من الأرض، فإمّا حُذف الضّمير أيْ (عيونها) أو أُسقِط حرف الجرّ أيْ بالعيون وأصل الجملة (فجَّرنا عيونَ الأرض) وهو في ذلك مُخالف لشيخه الشّلوبين الّذي قال إنَّ (عيونًا) في الآية نصب على الحال المقدّرة لا التّمييز، ولم يثبُت إنْ كان التّمييزُ منقولاً عن المفعول[55]، مع أنَّ أكثر النّحاة الأندلسيِّين والمغاربة ذهبوا إلى أنَّها تمييزٌ مُحوَّل عن مفعول لا حال أمثال ابن عصفور وابن مالك والجزولي وسِواهم.

- اختلف النُّحاة في مسألة تعدّد الخبر لفظًا ومعنًى لِمبتدأ واحد على مذاهب أحدها الجواز بتعدُّد الخبر، وقد يكون ذلك بأكثر من خبرين، في مثل قوله تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: الآيات 14- 15- 16] والمذهب الثّاني منع هذا التعدّد لِجعلهم الأوّل خبرًا والباقي صفة للخبر، وأخذ هذا الرّأي ابن دُرُستويه (ت347هـ) من نُحاة المذهب البغدادي، ولكن هناك من النُّحاة الّذين اعتبروا الخبر الثّاني خبرًا لِمبتدأ مقدَّر، وابن أبي الرّبيع اختار الرّأيَ الثّاني وتبِعه ابن عصفور وكثير من الأندلسيّين والمغاربة[56]، ولكن يبدو أنَّ الرّأيَ الأوّل هو الأصح وعليه جمهور النّحاة حيث يجوز تعدّد الخبر كما في النّعوت سواء اقترن بعاطف أم لا.

وهذه إذًا جملة من آراء ابن أبي الرَّبيع الإشبيليَّ السَّبتيِّ وتوجّهاته واختياراته النَّحويَّة الّتي تميَّز بها بين النّحاة، وقد دلّت اجتهاداته على أنَّه لم يكن يكتفي بِعرض القواعد وإصدار الأحكام فقط، بل كان يُرجِّح ويُناقش ويُعلِّل ويعترض على الآراء الّتي لا تحتكم إلى الصَّواب بالنِّسبة إليه.

فالمهمّ في الأمر، أنَّ هذا العالم الفذّ كان في النَّحو بصريًّا إلى حدٍّ كبير، وذلك لأنّه كثير المتابعة لآرائهم وترجيحها، وبالأخصّ سيبويه الّذي نقلَ من آرائه الكثير مع موافقته فيها في غالب الأحيان، ولشدَّة تعلّقه بآرائه – سيبويه- فقد كان في مواضع عديدة يُفضِّل رأيَه على آراء النّحاة الآخرين كالمبرّد والأخفش وغيرهما حتّى إنَّه كثير الاحتجاج بِشواهده النَّثريَّة والشِّعريَّة. ولكن بالرَّغم من ميله إلى المذهب البصريِّ إلاَّ أنَّه تابع الكوفيِّين في مسائل قليلة وساندهم فيها، ثمّ البغداديِّين في مسائل أخرى وهي بِنسبة قليلة أيضًا، ومع أنَّ معظم هؤلاء – نُحاة البغداديّة- كانوا من أتباع النّحاة البصريِّين. وأمّا انتماؤه إلى المذهب المغربيِّ الأندلسيِّ فيبدو أوّلاً في تلك الآراء الّتي تابعَ فيها نُحاة هذا الأخير أو اعترضَ عليها كالجزولي والشَّلوبين، وثانيًا في الاجتهادات الّتي انفرد بها في بعض المسائل النَّحويَّة كما أَتَيْتُ على ذكرها. ولأنَّ استقرار هذا النّحويّ في سبتة أثمر ثماره، حيث كان فيها

أحد شيوخها الأجّلاء الّذين عَظُمَ بهم الانتفاع، وملأَ صيتُهم البقاع حتّى ارتبطت شهرة هذه المدينة في الدَّرس النَّحويِّ باسمه فضلاً عمّا قدَّمه من جهود تعليمًا وتأليفًا، بِدليل أنَّه لم يشتهر في موطنه إشبيلية كاشتهاره فيها، حيث انشغَلَ العمر كلّه بِتدريس أشهر كتب النَّحو المشرقيّة وتوضيحها وأخصُّ بالذِّكر كتاب سيبويه الّذي وضعَ تقييدًا عليه، وجُمل الزَجَّاجي الّذي قدَّم عليه أكثر من شرح. وكان يُدرِّسُ إلى جانبها مؤلَّفاته الّتي زادت من تفوّقه وتميّزه في الميدان، حتَّى إنَّها لقيت قبولاً واسعًا لدى العلماء، وظلّت محطّ اهتمامهم بعد وفاته زمنًا طويلاً ولا سيما كتاب القوانين أو الملخّص كما يُسميه البعض الّذي اعتمدوه في التَّدريس إلى جانب كتب النَّحو الأخرى ذات الصَّدى الواسع. فحاصلُ القول لو لم يَضِعْ ممّا ألَّفه من كتب نحويَّة كتقييد كتاب سيبويه وغيره لبَلَغَ شهرةً أكثر.

- الهوامش:

1- محمّد حجي، "ابن أبي الرّبيع إمام أهل النّحو في زمانه" مجلّة المناهل. الرّباط- المغرب: ربيع الأوّل يناير 1982م، السّنة 9، وزارة الشّؤون الثّقافيّة، ع22، ص471.

2- عبيد الله ابن أبي الرّبيع الإشبيلي السّبتي، البسيط في شرح جمل الزَجَّاجي، تح ودراسة: عياد بن عيد الثبيتي، ط1. بيروت: 1986م، دار الغرب الإسلامي، السّفر1، ص69.

3- جلال الدّين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم د ط. لبنان: د ت، المكتبة العصريّة، مج2، ص125.

4- محمّد المختار ولد أباه، تاريخ النَّحو العربيِّ في المشرق والمغرب، ط2. بيروت: 2008م دار الكتب العلميّة ص302.

5- محمّد حجي، "ابن أبي الرّبيع إمام أهل النّحو في زمانه" مجلّة المناهل، ع22، ص470.

6- عبيد الله ابن أبي الرّبيع الإشبيلي السّبتي، البسيط في شرح جمل الزَجَّاجي، السّفر1، ص23.

7- صالحة بنت راشد بنت غنيم آل غنيم، تفسير القرآن الكريم لابن أبي الربيع عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله القرشي الإشبيلي السّبتي (ت599- 688هـ)، أطروحة الدكتوراه. المملكة العربيّة السعوديّة: 1411هـ، جامعة أم القرى، ج1 تح ودراسة، ص2 وص27.

8- عبيد الله ابن أبي الرّبيع الإشبيلي السّبتي، البسيط في شـــرح جمل الزَجَّاجي، السّفر1 ص29- 37.

9- محمّد حجي، "ابن أبي الرّبيع إمام أهل النّحو في زمانه" مجلّة المناهل، ع22، ص489.

10- أحمد ابن القاضي، درّة الحجال في أسماء الرّجال، تح: محمّد الأحمدي أبو النّور، ط1. تونس/القاهرة: 1971م المكتبة العتيقة ودار التّراث، ج1، ص11.

11- المرجع السّابق، ص491.

12- أحمد ابن القاضي، درّة الحجال في أسماء الرّجال، ج3، ص270- 271.

13- صالحة بنت راشد بن غنيم آل غنيم، تفسير القرآن الكريم لابن أبي الربيع عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله القرشي الإشبيلي السّبتي (ت599- 688هـــ)، بحث مقدّم لنيل درجة الدكتوراه، ج1 ص2 وص7.

14- عبيد الله ابن أبي الرّبيع الإشبيلي السّبتي، البسيط في شرح جمل الزَجَّاجي، السّفر1، ص23.

15- المرجع نفسه، ص40.

16- السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة، مج2، ص125.

17- القاسم بن يوسف التجيبي، برنامج التجيبي، تح وإعداد: عبد الحفيظ منصور، د ط. ليبيا/ تونس: 1981م، الدّار العربيّة للكتاب ص278.

18- فهرس النَّحو، المصوّرات الميكروفيلميّة الموجودة بمكتبة الميكروفيلم بمركز البحث العلميّ وإحياء التّراث الإسلاميّ، إعداد قسم الفهرسة بالمركز. مكّة المكرّمة: د ت، جامعة أم القرى، كلية الشّريعة والدّراسات الإسلاميّة مركز البحث العلميّ وإحياء التّراث الإسلامي، ص87.

19- محمّد حجي، "ابن أبي الرّبيع إمام أهل النّحو في زمانه" مجلّة المناهل، ع22، ص479.

20- ميلود التوري، الحركة اللّغويّة بالمغرب الأقصى: عصر المرابطين والموحّدين، بحث لِنيل دبلوم الدّراسات العليا في اللّسانيّات. الرّباط: 1992- 1993، جامعة محمّد الخامس، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، ص259- 260.

21- التجيبي، برنامج التجيبي، ص280.

22- محمّد المختار ولد أبّاه، تاريخ النّحو في المشرق والمغرب، ص305- 306.

23- صالحة بنت راشد بن غنيم آل غنيم، تفسير القرآن الكريم لابن أبي الرّبيع عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله القرشي الإشبيلي السّبتي (ت599- 688هـــ)، أطروحة الدكتوراه، ج1، ص81.

24- محمّد حجي، "ابن أبي الرّبيع إمام أهل النّحو في زمانه" مجلّة المناهل، ع22، ص475- 476.

25- المرجع نفسه، ص477.

26- عبيد الله ابن أبي الرّبيع الإشبيليّ السّبتيّ، البسيط في شرح جمل الزَجَّاجي، السّفر1، ص50.

27- محمّد حجي، "ابن أبي الرّبيع إمام أهل النّحو في زمانه" مجلّة المناهل، ع22، ص486- 489.

28- المرجع السّابق، ص110- 121.

29- صالحة بنت راشد بن غنيم آل غنيم، تفسير القرآن الكريم لابن أبي الربيع عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله القرشي الإشبيلي السّبتي (ت599- 688هـ)، أطروحة الدكتوراه، ج1، ص37.

30- المرجع السّابق، ص185- 201- 582.

31- المرجع نفسه، ص49.

32- المرجع نفسه، السّفر1، ص131- 132.

33- يُنظر: نور الدّين الأشموني، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تح: محمّد محي الدّين عبد الحميد، ط1. بيروت: 1955م، دار الكتاب العربيّ.

34- بدر الدين المُرادي، الجني الدّاني في حروف المعاني، تح: فخر الدّين قباوة ومحمّد نديم فاصل، ط1. بيروت: 1992م، دار الكتب العلميّة، ص485.

35- السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح: أحمد شمس الدّين، ط1. بيروت: 1998م، دار الكتب العلميّة، ج1، ص485.

36- المرجع نفسه، ص123.

37- بدر الدّين المُرادي، الجني الدّاني في حروف المعاني، ص330- 335.

38- عبيد الله ابن أبي الرّبيع الإشبيلي السّبتي، البسيط في شرح جمل الزَجَّاجي، السّفر1 ص672.

39- محمّد ابن تاويت، "النّحو الأندلسيّ وابن هشام المصريّ" مجلّة المناهل. الرّباط: 1984م وزارة الشّؤون الثّقافيّة ع31، ص228.

40- ابن أبي الرّبيع، التّفسير، ص1ع/ صالحة بنت راشد بن غنيم آل غنيم، تفسير القرآن الكريم لابن أبي الربيع عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله القرشي الإشبيلي السّبتي (ت599- 688هـ) أطروحة الدكتوراه، ج1، ص86.

41- عبيد الله ابن أبي الرّبيع الإشبيليّ السّبتي، البسيط في شرح جمل الزجّاجي، السّفر2 ص1083.

42- المرجع نفسه، السّفر1، ص345.

43- عبد الرّحمن أبو البركات ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريّين والكوفيّين، تح: جودة مبروك محمد مبروك مراجعة: رمضان عبد التواب، ط1. القاهرة: 2002م مكتبة الخانجي، ص371- 374. وحسن محمّد عبد الرّحمن أحمد، شرح ألفية ابن معط لأبي جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الرُّعيني (779هـ) السّفر1- تحقيق ودراسة-، أطروحة الدكتوراه في اللّغة العربيّة. المملكة العربيّة السّعوديّة: 1994م، جامعة أم القرى، كليّة اللّغة العربيّة قسم الدّراسات العليا العربيّة، مج1، النّص المحقّق، ص40.

44- عبيد الله ابن أبي الرَّبيع الإشبيلي السّبتي، البسيط في شرح جمل الزَجَّاجي، السّفر2 ص934. وعبد الرّحمن أبو البركات ابن الأنباري الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريّين والكوفيّين، ص290- 292.

45- المرجع السّابق، السّفر1، ص176.

46- بدر الدّين المُرادي، الجني الدّاني في حروف المعاني، ص420.

47- السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج2، ص54. وعبد الله ابن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، تح: محمّد محي الدّين عبد الحميد، د ط. بيروت: 1991م، المكتبة العصريّة للطّباعة والنّشر، ج1 ص244.

48- ابن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، ج1، ص315.

49- عيسى أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النَّحو، تح وشرح: شعبان عبد الوهاب محمّد، مراجعة: حامد أحمد نيل وفتحي محمّد أحمد جمعة، ط1. القاهرة: 1988م، أم القرى للطّبع والنّشر، ص111. وأثير الدّين أبو حيّان الأندلسيّ، ارتشاف الضّرب من لسان العرب، تح وشرح ودراسة: رجب عثمان محمّد، مراجعة: رمضان عبد التواب ط1. القاهرة: 1998م، مكتبة الخانجي ج3، ص1285.

50- عبيد الله ابن أبي الرّبيع الإشبيلي السّبتي، البسيط في شرح جمل الزَجَّاجي، السّفر1 ص162.

51- السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج2، ص25- 26. وأبو حيّان الأندلسيّ ارتشاف الضّرب من لسان العرب، ج4، ص2179- 2180.

52- محمّد المبرّد، المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، ط3. القاهرة: 1994م، مطابع الأهرام التّجاريّة، ج4 ص202.

53- عبيد الله ابن أبي الرّبيع الإشبيليّ السّبتي، البسيط في شرح جُمل الزَجَّاجي، السّفر1 ص348. وأبو حيّان الأندلسي ارتشاف الضّرب من لسان العرب، ج4، ص1975- 1976. وابن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب ج1، ص322- 323.

54- المرجع نفسه، ج1، ص322.

55- عبد الرّحمن المكُّودي، شرح المكُّودي (على الألفيّة في علمي النّحو والصّرف لابن مالك ومعه حاشية العلاّمة الشّيخ أحمد بن عبد الفتّاح الملوي والأزهري)، عناية ومراجعة: أحمد عوض أبو الشبَاب، د ط. المغرب: 2011م، دار الرّشاد الحديثة، ص114. والسيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج2، ص266.

56- المرجع نفسه، ج1، ص346.

أثر البلاغة العربية في الدرس اللساني الحديث
-نظرية النّظم أنموذجا-

أ. عماري عزالدين
جامعة المسيلة

الملخص: ما من شك في أن الدراسات البلاغية العربية القديمة تكتسي أهمية بالغة، وبخاصة نظرية النظم، هذه الأهمية لا تظهر إلا من خلال الوقوف على الأثر الذي أحدثته في الدراسات اللسانية الحديثة –الغربية– ذلك أن كل النظريات اللسانية في الدرس الحديث تلتقي مع هذه النظرية في كثير من المفاهيم والحدود، وهذا ما يؤدي إلى الاعتقاد – ربّما– بامتداد جذور هذه النظريات إليها، تستقي من معينها، وتنمو في إطارها. – وهذا ليس معناه تعصبا للتراث، وليس نفيا للدرس الحديث واعتباره مجرد بديل مصطلحي للنحو والبلاغة القديمين، إذ يتنافى هذا وصفة الموضوعية في البحث العلمي–.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن أية محاولة للوقوف على أثر نظرية النظم العربية في الدرس اللساني الحديث، لا تمر إلا عبر محاولة أكيدة لفهم كليهما – نظرية النظم والنظريات الحديثة – ثم العمل على التقاط نقاط الالتقاء بينهما، ومنه فإن هذا البحث يسعى إلى بيان ذلك من خلال مفهومين اثنين:

مفهوم القيمة، ومفهوم السياق، هذا كله في إطارٍ من التقصي في البحث والموضوعية في الطرح.

تمهيد: لقد عرفت الدراسات البلاغية ازدهارا عبر مرحلتين هامتين من تاريخ تطورها ابتداء من النشأة المتمثلة في البلاغة قبل الإسلام وصدره وانتهاء بما سمي بمرحلة الجمود والجفاف وهاتان المرحلتان هما:

أولا: مرحلة الدراسات المنهجية:

وهي المرحلة التي سبقت ومهدت لعبد القاهر الجرجاني ولقد شاع فيها استعمال بعض الأساليب الجديدة والتي لم يكن الأدب العربي على عهد بها وذلك نتيجة لتأثر الشعراء والأدباء والنقاد – بعامل الترجمة– بالثقافة الوافدة من الأمم الأخرى . وقد وانقسم الأدباء والشعراء حيال هذا التأثر قسمين:

– قسم قبل ذلك واستساغه وتأثر به أيما تأثر، وخير من يمثله أبو تمام في شعره .

– قسم حافظ على القديم ودافع عنه، وخير من يمثله البحتري.

هذا، ولقد اشتد الصراع بين المحافظين والمجددين، فتعالت أصوات المجددين متهمين غيرهم بالسطحية، وانبرى من المحافظين من يدافع عن أصالة البلاغة العربية وأنها في غير حاجة إلى الاستمداد من أية أمة أخرى. ويعد كتاب "البديع" لابن المعتز (249هـ –296هـ) حجر الأساس في ذلك، فهو أول دراسة منهجية تخطت الملاحظات العابرة والتعليقات الموجزة إضافة إلى وقوفه وقوف الواثق أمام تيار الصنعة والتكلف آنذاك فقد صرح بغرضه من كتابة قائلا: « وإنما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبحاث البديع»[1].

ثانيا: مرحلة الدراسات البلاغية: اتسمت الدراسات البلاغية بمنحى فلسفي نتيجة تأثر دارسيها بالثقافات الأخرى ومحاولتهم إقامة البلاغة العربية على أساس هذه الثقافة، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: قدامة بن جعفر (ت 337هـ) في كتابه "نقد الشعر"، وأبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت 403هـ) في كتابه "إعجاز القرآن" فقد ظهر أثر المنطق في روح وطابع كل منهما.

ولقد ظهر في هذه المرحلة أيضا تيار المتكلمين والذي كان يهدف إلى غايتين هما:

- البحث في إعجاز القرآن تمكينا للدين في النفوس.
- الوقوف في وجه تيار استمداد البلاغة من الآثار اليونانية وقطع الطريق أمامه، وقد نتج عن ذلك الدفاع عن الدين لمنطق الثقافة الحديثة.

وإذا كان علي بن عيسى الرماني بكتابه "النكت في إعجاز القرآن" (ت 386هـ)، وأبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت 403 هـ) بكتابه "إعجاز القرآن" من الذين يمثلون هذه المرحلة، فإن قمة النضج فيها يمثلها عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) بكتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، هذا الأخير الذي عرض فيه نظريته المشهورة حول النظم، والتي كان لها أثرها في الدرس الحديث، وقبل تبيين ذلك لا بد من معرفة شاملة للنظم تنطلق من تحديد مفهومه وتتبع أثره حتى أينع عند عبد القاهر الجرجاني وأصبح له أسسه وقوانينه التي يعرف بها.

01/ مفهوم النظم:

أ- **لغة:** جاء في لسان العرب: «النظم في اللغة هو لتأليف، وضم شيء إلى شيء آخر، يقال:... نظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك والتنظيم مثله ومنه نظمت الشعر ونظمه ونظم الأم على المثل، وكل شيء قرينه بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته. والنظم: المنظوم؛ وصف بالمصدر والنظم ما نظمته من لؤلؤ وخرز وغير هما والنظام الخيط الذي ينظم اللؤلؤ»[2]. وفي أساس البلاغة: «ومن المجاز نظم الكلام، وهذا نظم حسن وانتظم كلامه وأمره، وليس لأمره نظام إذا لم تستقم طريقته»[3]. ومن هنا فالنظم في اللغة «بمعنى الجمع والضم والنظام والربط، والتأليف الذي يراد به ضم الكلمات المتخيرة على الوجه الذي يقتضيه المنطق»[4].

ب- **اصطلاحا:** النظم هو: «تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل، وقيل الألفاظ المترتبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العدد»[5].

والملاحظ أن كلا التعريفين- اللغوي والاصطلاحي – يتفقان في كون النظم هو التأليف، وضم الكلمات بعضها إلى بعض على حسب ما يقتضيه العقل والمنطق، وذلك «على مستوى الحروف والكلمات والجمل وهو ما يقوم على التقليد المأثور المستعمل من كلام العرب باعتباره مقياسا للصواب والخطأ»[6].

02/ نشأة نظرية النظم وتطورها: اتسعت رقعة الدولة العربية في العصر العباسي، وهذا ما أدى إلى اختلاط العرب بالأجانب، هذا الاختلاط أثر سلبا بفساد الذوق العربي وانحرافه وانتشار اللحن، وأثر إيجابا بظهور

عامل الترجمة والذي أدى بدوره إلى شيوع الثقافة الأجنبية في أوساط المسلمين، تزامنا مع ظهور فرق المتكلمين المختلفة، والتي خصت نفسها بالبحث في سبب إعجاز القرآن الكريم.

اختلف المتكلمون في سبب إعجاز القرآن الكريم، فإن كان منهم من أرجعه إلى الصرفة*، فإن منهم من أرجعه إلى مزية النظم حيث يعتبر الجاحظ (ت255هـ) من أوائل من ألفوا في نظم القرآن « ويتجه التفكير في النظم القرآني عند الجاحظ، (فضلا عن قضايا البيان العامة) في اتجاهين كبيرين:

– التركيب النحوي والدلالي الذي يستوعب مادة "المعاني" و"البيان" عند السكاكي...

– المعجم والمقام، قال في ذلك: «وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها. ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر. والناس لا يذكرون السغب** ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث...»[7]»[8].

وإذا كان الجاحظ يجعل الهدف من النظم هو البيان والإفهام، فإن أبا الحسن الرّماني(ت386هـ) وهو يتحدث عن إعجاز القرآن الكريم، يرى أنه ليس كل من أبلغ مراده بليغا، فكل الناس يتساوون في ذلك؛ «وليست البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عي ولا البلاغة أيضا بتحقيق اللفظ على المعنى، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى

وهو غث مستكره ونافر متكلف. وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ»[9]، ومن هنا فإن الكلام عنده حسن وقبيح، « فالقبيح كالتخليط والمحال الذي لا يتضح به معنى، والحسن هو الكلام المبين عن معان واضحة...»[10].

ولما كان الكلام عند الرماني (حسن وقبيح)، فهو عند الخطابي (ت388هـ) على أجناس مختلفة، «فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرّسل، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة»[11].

وهذا الكلام الذي ذكره الخطابي قائم عنده على ثلاثة أسس: لفظ حامل ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، ومقومات الكلام هذه جاءت في القرآن الكريم باعتباره كلاما، يقول في ذلك: «وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقـــدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضـــل من نعوتها وصفاتها»[12].

ويأتي الباقلاني (ت 403هـ) وقد أفاد من جهود سابقيه – الجاحظ والرماني – ليضع نظريته في النظم، ويأتي في كتابه "إعجاز القرآن" على تفسيرها، وبيان ما فيها من الروعة والجمال، «فيتحدث عن نظم القرآن ويقول إنه مخالف للمألوف من كلام العرب، وله أسلوب يتميز به يباين

أساليبهم في الكلام الموزون والمنثور بضربيه من السجع والترسل، وهو أسلوب فريد، تطرد فيه البلاغة اطرادا يشمل جميع آياته دون أي تفاوت.... كما يقول إنه يتفوق على كلام البشر في إيجازه وإطنابه وصوره البيانية والتعبيرية، ومن تمام ذلك فيه دقة وضعه الأسماء والألفاظ لمعانيه التي لم تكن متداولة بين العرب ولا مألوفة لهم. ومما يكشف عن روعته أن الكلمة منه إذا ذكرت في تضاعيف كلام تتألق بين جاراتها تألقا»[13].

يأتي القاضي عبد الجبار (ت 415 هـ) ليتناول في كتابه (المغني) النظم بشيء من الدقة والتفصيل، حيث يقول: «اعلم أن الفصاحة لا تظهر في إفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد من الضم من أن يكون لكل كلمة صفة»[14].

فعبد الجبار يرى بأن النظم هو التئام الكلمات بعضها مع بعض، وأن مراعاة الإعراب والحركات والموقع يجعل النحو ركنا مهما في النظم حتى تتحقق له البلاغة. وعلى هذا يكون القاضي عبد الجبار قد وضع الأساس الذي بنى عليه عبد القاهر الجرجاني فكرته في النظم.

هذا الأخير الذي أرسى قواعد النظم والذي دافع عنه بحماسة وبنى له أسسا حتى أصبح نظرية متكاملة لم يتح لأحد من قبله أن تناولها بهذه الصورة الواضحة، منطلقا فيها من استحالة الفصل بين اللفظ والمعنى.

يعر ف عبد القاهر النظم قائلا: «معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض»[15]، ويجعل وجوه التعلق ثلاثة:

– تعلق اسم باسم، بأن يكون خبرا عنه أو حالا منه أو تابعا له.

– تعلق اسم بفعل، بأن تكون فاعلا أو مفعولا به أو مطلقا أو فيه أوله أو معه.

– تعلق حرف بهما، وذلك على وجوه عدة[16].

كما يشير إلى أنه من الضروري في معرفة الفصاحة أن نضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلام وأن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة، وإنما تثبت لها الفضيلة (المزية) وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي سبقتها، والتي تليها يقول: «وهل تجد أحدا يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟

وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافه: قلقة، ونابية، ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية في مؤداها؟»[17].

ويؤكد أن نظم الكلم يقتضي فيه أثار المعاني وترتيبها حسب ترتيب المعاني في النفس، «من حيث إن الألفاظ إذ كانت أوعية للمعاني، فغنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق...»[18]، ثم هو يتكلم في مكان النحو منه، فيقول: «اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ رسومه التي رسمت لك، فلا تخل بشيء

منها»[19]. كما يرجع المزية (الحسن) في النظم إلى معاني النحو وعلى وجوه الفروق التي من شأنها أن تكون فيه[20].

ويتحدث عبد القاهر عن اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره، فيعرض لضروب الكناية والتمثيل، كما يعرض لسائر ضروب المجاز من المجاز العقلي أو المجاز في الإسناد وغيره، كما يتحدث عن للاستعارة[21]، ويقرر أنها كلها من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون .

ويتحدث عن وجوه النظم في التقديم والتأخير وفي الحذف، ويتكلم على فروق الخبر من مثل، "زيد منطلق" و"منطلق زيد" وعلى أسرار الإتيان بالذي، وعلى فروق الحال، لها فضل تعلق بالبلاغة، وعلى أسرار الفصل والوصل وعلى تقديم كل النفي وتأخيرها عنه، وعلى مثل {وَجَعَلُواْ بِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ}[22] وعلى أسرار التنكير في مثل {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ }[23]، وعلى ضروب تأكيد الخبر وعلى القصر.

إن عبد القاهر الجرجاني وهو يبحث في دلائل إعجاز القرآن الكريم، وبعد إعمال فكر، يتوصل إلى أن سبب إعجازه لا يرجع لا إلى لفظه، ولا إلى معناه، وإنما إلى نظمه، وما يقرره في ذلك، ما يلي:

- أن البلاغة والفصاحة والبراعة كلها تتحقق من خلال النظم.
- أن النظم قائم على عدم الفصل بين اللفظ وبين المعنى.
- أن الكلمة مفردةً تأخذ قيمتها من خلال السياق الذي ترد فيه
- أن النظم هو توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه فيما بين معاني الكلم.

لقد أثرى عبد القاهر البلاغة العربية والبيان العربي إثراء جليلا، في نقد الأساليب وتحليلها، واستنباط الفروق والخصائص فيما بينها، وبما عرض له من أحكام نقدية دقيقة على أساليب كثيرة من ضروب الشعر النثر.

03/ أثر نظرية النظم في الدرس اللغوي الحديث: إذا ما أنعمنا النظر في الدرس اللغوي الحديث فإننا نلتمس مستويات من التقابل ونسب من التماثل بين كثير من آراء عبد القاهر الجرجاني اللغوية وطروحاته ومعالجاته، وما توصل إليه علم اللغة الحديث، ويمكن الوقوف عند كل ذلك من خلال ما يلي:

أ – نظرية النظم ومصطلح القيمة: لم يعر عبد القاهر الجرجاني اللفظة المفردة اهتماما كبيرا، فليس لها أي قيمـــة ما لم تدخل في تركيب معين ومن هنا كان انصرافه إلى تلك العلاقات التي تتحقق بين الكلمات بدخولها في تركيب نحوي، يقول: « واعلم أن مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعا من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة. وذلك أنك إذا قلت: "ضرب زيد عمرا يوم الجمعة ضربا شديدا تأديبا له"، فإنك تحصل من مجمـــوع هذه الكلم كلها على مفهوم، هو معنى واحد لا عدة معان، كما يتوهمه الناس، وذلك لأنك لم تأت بهذه الكلم لتفيده أنفس معانيها وإنما جئت بها لتفيده وجوه التعلق التي بين الفعل الذي هو "ضرب"، وبين ما عمل فيه، والأحكام التي هي محصول التعلق»[24].

إن استخدام الجرجاني مصطلح التعلق إقرار منه بأن الكلام بصيغته الاجتماعية بناء يحكمه نظام مكون من طائفة عناصر لغوية مترابطة منسقة ضمن شبكة من العلاقات السياقية المحددة لوظائف المفردات في السياق من الفاعلية والمفعولية والابتداء والخبر...[25] .

وهذا ما ذهب إليه اللغوي السويسري فردينان دي سوسير(1857م ــ 1913م) بتأكيده على أن اللغة كتلة عناصر متماسكة وأن أهمية الدراسة اللغوية ولاسيما دراسة دلالة العناصر التنظيمية، تكمن في دراسة العلاقات والروابط الجامعة بينهما. وخلاصة ما يقرره دي سوسير حول قيمة الكلمة،: «إن اللغة نظام من العناصر المعتمد بعضها على بعض تنتج قيمة كل عنصر من وجود العناصر الأخرى في وقت واحد»[26].

وعبد القاهر الجرجاني لم يقف عند هذا الحد، إنما وضح وجوه التعليق وسبل الربط في نظام التركيب اللغوي في العربية بتحديده شبكة من العلاقات الشكلية القائمة بين الوحدات المرفولوجية وهي (الاسم والفعل والحرف) التي أدرك قيمتها، وتفطن إلى أن أساس المستوى التركيبي والدلالي هو المستوى الصرفي، ويضيف أن الكلام ثلاث: اسم وفعل، وحرف وللتعليق فيما بينها طرقٌ معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف بهما.

إن علماء اللغة المحدثين يتفقون مع عبد القاهر الجرجاني في كل ما سبق ذكره، فهم ينظرون إلى العنصر اللغوي كأنه لا وجود له إلا من خلال العلاقات التي يقيمها مع غيره من العناصر، وهذا يدل على أن الجرجاني قد بنى نظريته على مقياسين أساسيين وهما: مقياس (الاختيار)، ومقياس (التركيب)، وذلك لضمان فصاحة المفردات وسلامة بنيتها الداخلية مما يعكر فصاحتها، ويفسد جمالها الأدبي، ولاستقامة المعنى الدلالي وتصويره أحسن تصوير، يقول: «... ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، وتختار له اللفظ الذي هو أخص به

وأكشف عنه وأتم له، وأحرى بأن يكسبه نبلا، ويظهر فيه مزية»[27]، إذن مبدأ الاختيار عند الجرجاني يتعلق بفصاحة العنصر اللغوي ومدى مسايرته للاستخدام اللغوي السليم، بأن يكون مألوفا ومستعملا وجاريا على المعايير الصوتية، ويرتبط كذلك بالملكة اللغوية البليغة عند المتكلم[28].

إن لهذين المقياسين أهمية كبيرة في السمو بالتراكيب اللغوية إلى مستويات بلاغية رفيعة في عملية تحديد الأبعاد الدلالية التي تدخل في صلب دراسة الجرجاني في الدلائل، «إذا إن الانتقاء وفي نقطة تقاطعهما وبعد ذلك، لفتة ذكية من الجرجاني الذي أراد أن يضع المقومات الجوهرية للأسلوب الأدبي الذي يستند أساسا إلى مقياسين متكاملين: مقياس انتقاء الرصيد اللفظي من القاموس العام للغة، ومقياس توزيعه وتنسيقه على سلسلة الكلام»[29]، وهذا ما يتوافق في الدرس الحديث مع نظرية "رومان جاكسون" الذي يرى بأن الأسلوب توافق بين عمليتين، أي: تطابق لجدول الاختيار على جدول التوزيع مما ينشئ انسجاما ما بين العلاقات الاستبدالية والعلاقات الركنية.

ب – نظرية النظم ونظرية السياق: ورد في شرح لفظ "السياق" في المعاجم العربية القديمة والحديثة على السواء معاني كثيرة، غير أن القاسم المشترك الذي يستخلص من بين هذه المعاني جميعا في تناولها مادة (سوَق) بالتفسير والتوضيح معنى واحد تشترك فيه وهو التتابع والسير والملاءمة والاتفاق والنظم، وما يؤدي هذا المعنى مباشرة دون تأويل أو مشابهة قول الزمخشري (ت538هـ) في أساس البلاغة «وتساوقت الإبل، تتابعت وهو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يساق الحديث. وهذا الكلام مساقه إلى كذا وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده»[30].

وأما في الاصطلاح، و«بالرغم من ورود لفظ السياق في التراث العربي بهذه الصيغة وبصيغ أخرى، سواء كان وروده عند اللغويين أو البلاغيين أو المفسرين أو الأصوليين، إلا أنه يستعمل استعمالات (سياقية) مختلفة وقابلة لتعدد الفهم.

ويمكن أولا إطلاق حكم مفاده أنه مع تعويل القدماء على السياق والإفادة من فهم النصوص أو بنائها، إلا أنه لم يعتد به مصطلحا قائما في العلوم المشار إليها، بدليل أنه لم يوضع له تعريف معين***، ولم يجر له في كتب الاصطلاح ذكر»[31]

وأما عن أهميته في الدرس البلاغي فينوّه أحد الدارسين إلى أنه من «أبرز الملامح في النظر البلاغي عند العرب قام على اشتراط موافقة الكلام لمقتضى الحال، واستشعر المقولة السائرة "لكل مقام مقال" ورصد على وجه التفصيل ما يكون من تأثير السياق، سياق الحال خاصة، وهي حال المتكلم والمخاطب وسائر ما يأتلف منه المقام، ورصد ما يكون من تأثير ذلك في تشكيل الكلام وتأليفه على هيئات في القول تتنوع وفقا لتنوع المقامات»[32].

وكان لقضية السياق مفهوم يكاد يكون متكاملاً عند عبد القاهر، وذلك حين أوضح بأن السياق هو ترتيب الألفاظ في الجملة وتأليفها بحيث تأتلف مع ترتيب هذه الألفاظ ومعانيها في النفس والذهن والعقل، وقد تناثرت أقواله في كتابيه: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" فالبلاغيون عبروا عن توافق اللفظ مع المعنى بعبارتهم المشهورة "لكل مقام مقال"، وهو عبّر عن مدى الارتباط بين الكلمات بعضها ببعض، ومناسبتها للسياق والمقام الّذي تذكر فيه. «لا يمكن أن تكون الكلمات بليغة في حد ذاتها، ولكنها بحاجة إلى سياق. وعندما

يترتب السياق بالشكل الصحيح –أي النظم– يمكن أن تكون هناك بلاغة وتفوق في الأسلوب. ويشير الترتيب الصحيح في هذا السياق إلى التوافق بين المعاني في الذهن والكلمات في الجملة»[33].

كما ركز عبد القاهر الجرجاني على مسألة السياق الكلامي الذي ترد فيه العبارة، فكلمة (ربض) خارج النظم لا تفرق عن (ضرب) لكن (ربض الكلب) يخالف (ضرب محمد أخاه)، فالتركيب يحصّل استحسان الكلمة وقبولها أو رفضها، والكلمة في السياق تتعلق بما يجاورها، فلا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبين بعضها على بعض ويجعل هذا بسبب تلك وهذا بمراعاة أحكام النحو ومعانيه، والاختيار يكون بحسب انسجام الكلمات وفقا لأحكام النحو. ويلفتنا النظر في الكلمة المجردة أي قبل دخولها في سياق لغوي، والنظر إليها بعد دخولها في هذا السياق مشيرا إلى ما يعرض لها من مزايا في الحالة الثانية، وذلك بفضل موقعها في السياق المنظوم[34].

وهذا ما يقف عنده الدرس اللغوي الحديث، حيث إن نظرية السياق قائمة على ملاحظة العلاقات الرابطة للوحدات اللغوية وذلك لتحديد المعنى المراد إذ يقول مؤسس هذه النظرية فيرث (1890م/ 1960م) أن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تنسيق الوحدة اللغوية أي بوضعها في سياقات مختلفة بواسطة العلاقات التركيبية، كما يقول اللغوي البريطاني (بالمر. أ) أيضا: «إن الكلمات إن كان لها معنى، فإنها تستقيه من عملها في الجملة»[35]. ومنه فإن تحديد معنى الكلمة عند أصحاب نظرية السياق في الدراسات الغربية لا يكون إلا من خلال استعمالها في اللغة، والدور الذي تؤديه، ودراسة معناها يكون

بملاحظة الوحدات المجاورة لها والمواقف التي ترد فيها، لذا فإن القرائن المقامية تلعب أكبر الدور في تشكيل النظرية[36].

لقد استطاع عبد القاهر الجرجاني بانتهائه إلى نظرية النظم من أن يتغلب على قضية اللفظ والمعنى التي اشتغل بها من سبقوه وعاصروه ولم يقدروا على بث الحكم النهائي فيها، ويستدل على ذلك بما ذكره من أن نظم المفردات وترتيبها يقتضى آثار المعاني وترتيبها في النفس[37]، وهو أيضا «يلفتنا إلى النظر في الكلمة مجردة، أي قبل دخولها في سياق لغوي والنظر إليها بعد دخولها في هذا السياق، مشيرا إلى ما يعرض إليها من مزايا في الحالة الثانية، وذلك بفضل موقعها من السياق المنظوم. وأبعد من هذا، فإنه يرى أن إحساسنا بقيمتها الجمالية قد يختلف من سياق لغوي إلى سياق لغوي آخر، فقد تستعذب الكلمة وتحلو في سياق، وقد تستهجن هذه الكلمة بعينها أو يقل حسنها في سياق آخر»[38]. وهذه الكلمة المفردة ميز فيها عبد القاهر الجرجاني بين تشكيلها الصوتي وبين بنائها التنظيمي النحوي تمييزا دلاليا وليس شكليا، وذلك من وجهين: سمى الأول (الحروف المنظومة) التي لا يحتاج نظمها إلى اقتفاء اسم دلالي في الذهن بحيث لو قال واضع اللغة (ربض) بدلا من (ضرب) لما أخطأ، وسمى الثاني (الكلم المنظومة) التي يواكب نظمها آثار الدلالات وكيفية تنسيقها في العقل[39]، من ذلك أدرك الجرجاني الطبيعة الاعتباطية للعلاقة الكائنة بين الدال والمدلول.

إن قول عبد القاهر الجرجاني باعتباطية الإشارة اللغوية هو ما أدركه دي سوسير حين قال: «إن الإشارة اللغوية اعتباطية. ففكرة "الأخت" sister لا ترتبط بأية علاقة داخلية بتعاقب الأصوات s–o–r التي تقوم بوظيفة الدال

في اللغة الفرنسية: فهذه الفكرة يمكن التعبير عنها باستخدام أي تعاقب صوتي آخر...»[40].

إن مقاربة واعية بين منهجي عبد القاهر الجرجاني ودي سوسير تبين ما يلي:

- إنّ مصطلح التأليف عند عبد القاهر يقابله مصطلح التركيب عند دي سوسير.

- إنّ الكلمة بمفردها عند عبد القاهر لا فائدة لها في تأدية المعنى، إلا بضمّها إلى أخواتها التي تكون مجموع الكلم أو البناء، وهذا ما يقابله تماما عند دي سوسير أنّ الكلمات المتفرقة لا تعني شيئا في التركيب إلا إذا كانت مجتمعة داخل وحدات متداخلة.

- لا تفاضل للفظة على لفظة أخرى في رأي عبد القاهر ما لم تكن هناك دلالة تربط المعنى بمدلوله، وتفسير هذا عند دي سوسير أنّ لا معنى للعلامة إلا بعلاقتها بما ترتبط به من معنى كلّي.

- إنّ الصورة الكلامية عند عبد القاهر من خلال النّص تحدِّدها الوظيفة التعبيرية التي تؤدّيها الجملة إن كانت الجملة إخبارا (وهو التقرير)، أو استخبارا (وهو الاستفهام)، أو غيره مما يخدم ويوضح نوعية النسق، ويقابل كلّ هذا في رأي دي سوسير بصريح اللّفظ أنّ الجمل كذلك لها دورها في خدمة نظام الكلام الذي يحدّد النسق على قدر المعنى الوظيفي في الجملة الإخبارية والاستخبارية ... فليس من باب الصدفة أن تتوافق هذه الآراء بهذا الشكل الموضوعي المتسلسل المتطابق دون أن تكون هناك علل عملية تتعلق بتقنيات الدرس اللّغوي المحكم بين هذين العالمين مع التباين في الفارق

الزمني البعيد بينهما، مما يرجح الحكم أنّ عبقرية عبد القاهر قد فاقت جهود دي سوسير بعامل السّبق والابتكار[41].

وفي ختام البحث لا بد من تسجيل أن عبد القاهر الجرجاني استطاع أن يأتي بنظرية متكاملة تضاهي أحدث النظريات اللغوية في النصف الثاني من القرن العشرين، وبخاصة جهود العالمين الغربيين (فردينان دي سوسير وفيرث) من خلال آرائهما حول (القيمة ــ السياق) والتي لها ارتباط وثيق بنظرية النظم.

إن هذه النظرية كفيلة إذا ما بسطت وشرحت أن تبعد الجفاف عن بلاغتنا العربية وأن تقربها من نفوس دارسيها، وأهم ما يمكن الإشارة إليه حول هذه النظرية أن الألفاظ هي وحدات اللغة، وهي رموز للمعاني لا تتفاضل في ذاتها، وإنما يكون لها الفضل من حيث دلالتها على المعنى، ومن حيث موقعها من النظم، وكل ما يمكن أن يقال في تفاضل الألفاظ المفردة أن تكون مألوفة أو غريبة وحشية، والنظم يكون بحسب المعاني، وهو متوقف على التركيب النحوي، ولا يكفي الناظم أن يكون عالما بقوانين النحو ومعانيه وإنما يجب أن يكون عالما بمواضعها ووجوهها. والفروق بينها، فالفضل والمزية يعود إلى حين التخيير في دائرة حدود النحو وإلى اهتداء الناظم إلى الأفضل فالأفضل.

بعد كل هذا لا نبالغ إن قلنا بأن ما يتعلق بنظرية النظم من مفاهيم هو من السبق والعمق معا بحيث يتفوق على كل ما جاء به الدرس اللغوي الحديث وبخاصة نظرية السياق، فإن النظريات العربية التي أسست لدراسته – السياق– كانت أوفى من النظريات الغربية الحديثة.

الهوامش:

1 – ابن المعتز، البديع، تحقيق المستشرق كراتشوفسكي، لندن، 1935، ص: 1، 2 .

2 – ابن منظور، لســـان العـــرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، مادة نظم (د ط) (د ت)، ج:14، ص: 294.

3 – الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط1، 1998، ص: 284.

4 – صالح بلعيد، نظرية النظـــم، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، بوزريعـــة ــ الجزائر (د ط)، 2002، ص: 92.

5 – الشريف الجرجاني، كتـــاب التعريفات، مكتبة لبنان، لبنان /بيروت، طبعة جديدة، 1985 ص: 261.

6 – صالح بلعيد، نظرية النظم، ص: 92.

* أبو إسحاق النظام، ومفاد ذلك أن الناس يستطيعون أن يأتوا بمثل القرآن الكريم، غير أن الله صرفهم عنه.

** السغب: شدة الجوع.

7 – الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح :عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة،ط:07، 1998 ج1، ص:20.

8 – محمد العمري، البلاغة العربية (أصولها وامتداداتها)، أفريقيا للشرق – المغرب –، د ط 1999م، ص: 157– 158.

9 – الرّماني، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط:3، د ت، ص:75.

10 – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط:06، د ت، ص:107.

11 – الخطّـــابي، بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص: 26.

12 – المرجع نفسه، ص: 27.

13 – شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص: 109.

14 – القاضي عبد الجبار، المغني في التوحيد والعدل، ج16، ص: 199. نقلا عن: حاتم الضامن، نظرية النظم، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الحرية للطباعة/ بغداد، د ط 1979، ص: 23.

15 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 05، د ت، ص: 04.

16 – ينظر: المرجع نفسه، ص: 04، 08.

17 – المرجع نفسه، ص: 44. 45.

18 – المرجع نفسه، ص 52.

19 – المرجع نفسه، ص 81 .

20 – المرجع نفسه، ص 87.

21 – المرجع نفسه، ص 66، وما بعدها.

22 – سورة الأنعام، الآية: 100.

23 – سورة البقرة، الآية: 179.

24 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص412، 413.

25 – ينظر: المرجع نفسه، ص410.

26 – فرديناند دي سوسير: علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، مراجعة: مالك يوسف المطلبي، دار آفاق عربية للصحافة والنشر، بغداد، د ط، 1985، ص:134.

27 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 43.

28 – ينظر: دلخوش جار الله حسين، الثنائيات المتغايرة في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، (دراسة دلالية)، منشورات دار دجلة، ط:01، 2008م، ص: 19 ــ 20.

29 – ينظر: أحمد الشايب، الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط:1991،08، ص: 44.

30 - الزمخشري: أساس البلاغة، ص 225.

*** – لم يرد في تعريفه إلا عبارة "سوق المعلوم مساق غيره".

31 – ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، دلالة السياق، سلسلة الرسائل العلمية الموصى بطبعها، جامعة أم القرى، ط:01، 1423هـ، ص:41.

32 – نهاد الموسى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، ص: 88. نقلا عن: آفاق اللسانيات، إشراف وتحرير: هيثم سرحان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط:01، 2011، ص: 445.

33 - كيس فيرستيج، أعلام الفكر اللغوي، تر: أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديدة المتحدة ط:01، 2007، ص: 175.

34 – ينظر: عثمان موافي، دراسات في النقد العربي، دار المعرفة الجامعية، (د ط)، 2000 ص:191. 192.

35 – بالمر.ر، علم الدلالة، ترجمة : مجيد الماشطة، مطبعة الجامعة المستنصرية، د ط، 1985 ص: 46 .

36 – ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، المغرب، طبعة 1994، ص: 337.

37 - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 52.

38 – عثمان موافي، دراسات في النقد العربي، ص: 189، 190.

39 - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 49.

40 – فرديناند دي سوسير، علم اللغة العام، ص: 87.

41 – ينظر: محمد عباس، الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني – دراسة مقارنة– دار الفكر/ دمشق، دار الفكر المعاصر/ بيروت، لبنان، 1999، ص: 27.

- PEDOYA-GUIMBRETIERE, E. et KANEMAN-POUTATCH, M. (1991). *Plaisir des sons,* Paris, Didier.

Guide et manuels scolaires

- Guide pédagogique des manuels de français : 3e AP- 4e AP- 5e AP. 2012.
- Mon premier livre de français : 3ème année primaire, 2012, 2013.
- Mon livre de français : 4ème année primaire, 2011, 2012.
- Mon livre de français : cinquième année primaire, 2011, 2012.

pratique de la langue étrangère à l'oral. Elle est pour les apprenants un passage obligatoire et une condition pour bien parler. Une maîtrise insuffisante de la prononciation peut constituer un blocage pour les apprenants. Il faudrait donc essayer d'améliorer sa maitrise par des activités ciblées sur les difficultés particulières en fonction des différents systèmes phonologiques en présence. L'objectif serait d'aider les apprenants, à ce stade d'apprentissage, à avoir une bonne maîtrise de la prononciation pour se consacrer par la suite à des activités plus couteuses cognitivement.

Bibliographie

- FOUCHE, P. (1959). *Traité de prononciation française*, Paris, Klincksieck.

-CALLAMAND, M. (1981). *Méthodologie de l'enseignement de la prononciation: organisation de la matière phonique du français et correction phonétique*. Paris, Création Loisirs Enseignement International.

- GALAZZI-MATASCI, E. et PEDOYA, É (1983). « Et la pédagogie de la prononciation ? », in *Le français dans le monde*, 180, 39-44.

- GRAMONT, M. (1954). La *prononciation française traité pratique*, Paris Delagrave.

- GUIMBRETIERE, E. (1994), *Phonétique et enseignement de l'oral*, Paris Didier/Hatier.

- HINDRET, J. (1687). *L'Art de bien prononcer et de bien parler la langue française*, Réimpression Genève, Slatkine.

- LAURET, B. (2007). *Enseigner la prononciation du français: questions et outils*. Paris, Hachette.

- LÉON, M. et LEON, P. (1997). *La prononciation du français*. Paris, Nathan Université.

- LEON, M. (1976). *Exercices systématiques de prononciation française*, Paris Hachette et Larousse.

- LEON, P. (1992). *Phonétisme et prononciation du français*, Paris, Nathan.

- ROLLAND, Y. (2011). *Apprendre à prononcer, quels paradigmes en didactique des langues ?*, Paris, Berlin

-WIOLAND, F. (1991). *Prononcer les mots du français : des sons et des rythmes*. Paris, Hachette.

- CALBRIS, G. (1971). « La prononciation et la correction phonétique », in *Guide pédagogique pour le professeur de français langue étrangère*, sous la direction d'A. REBOULLET, Hachette.

- RENARD, R. (1971). *Introduction à la méthode verbo-tonale de correction phonétique.* Paris, Didier.

consonnes graves : [b], [r], [m], [v], [p], utiliser un entourage vocalique postérieur :[u], [o] et utiliser une intonation descendante.

- Si l'apprenant prononce [O] au lieu de [OE], il faut entourer la voyelle [OE] de consonnes aigües : [s], [z], [t], [d], utiliser un entourage vocalique antérieur : [i], [e] et utiliser une intonation montante.

- Si l'apprenant prononce [u] au lieu de [O], il faut montrer que [O] est plus ouvert que [u], et l'entourer de consonnes aigües, de voyelles antérieures et utiliser une intonation montante.

6-3- Les nasales

Les voyelles nasales sont souvent les plus difficiles à distinguer par les apprenants kabylophones, car ces voyelles n'existent pas dans le système vocalique kabyle. Donc pour les distinguer, nous proposons les activités suivantes :

- Tout d'abord, faire différencier la voyelle nasale de la voyelle orale correspondante, il s'agit donc de mettre la voyelle nasale en confrontation avec la voyelle orale.
- il faut que la voyelle nasale soit précédée d'une consonne nasale, car dans ce cas, la nasalité devient plus évidente (ex : « maman »).
- Ensuite, il faut distinguer les voyelles nasales entre elles :

La voyelle [ɛ̃] est la plus aigüe, il faut la prononcer avec les lèvres étirées et la mettre dans un entourage consonantique adéquat [s], [t] [z], [d] et [n].

La voyelle [ɑ̃] est centrale, il faut la prononcer en ouvrant la bouche et la mettre dans l'entourage consonantique suivant [ʃ], [k] [ʒ], et [g].

La voyelle [ɔ̃] est la plus grave, elle se présente la bouche arrondie et elle peut apparaitre dans l'entourage consonantique suivant [f], [p] [v], [b], [m].

Conclusion

En guise de conclusion, nous dirons qu'en langue étrangère, pour parvenir à la maitrise de l'oral qui est une activité très complexe, il y a lieu d'accorder une attention toute particulière à la prononciation c'est-à-dire à la production et à la perception des sons d'une langue étrangère. En effet, la prononciation est un élément à part entière de la

Le français possède dans son système deux voyelles orales postérieures labiales qui se distinguent par le trait d'aperture. C'est le cas de [u] et [O] : l'une est fermée et l'autre mi-fermée/mi-ouverte. Et deux voyelles orales labiales mi-fermée/ mi-ouverte qui se distinguent par le trait de l'antériorité : l'une est antérieure et l'autre est postérieure. C'est le cas de [O] et [OE]. En revanche, le kabyle n'a qu'une seule voyelle orale labiale fermée postérieure : [u]. Cela explique pourquoi plusieurs apprenants prononcent la voyelle [u] au lieu de [O] et de [OE] et confondent ces deux dernières.

5-3- la confusion entre les voyelles nasales

La majorité des apprenants ayant fait des erreurs ne font pas la distinction entre la voyelle [$\tilde{\alpha}$] et la voyelle [$\tilde{\text{ɔ}}$] et des fois ils confondent ces deux voyelles avec la voyelle [$\tilde{\varepsilon}$]. Le français possède quatre voyelles nasales, alors que le kabyle au contraire n'a aucune voyelle nasale. Cela peut expliquer la confusion entre ces voyelles.

Après cette analyse, nous pouvons conclure que la voyelle qui n'existe pas en kabyle est systématiquement remplacée par celle qui existe. Autrement dit, les voyelles qui existent en kabyle posent moins de problèmes. En revanche toutes les voyelles absentes posent, à des degrés différents, des problèmes.

6- Comment y remédier

6-1- La voyelle [y]

Dans notre enquête, dans la plupart des cas, l'apprenant kabylophone prononce [i] à la place de [y].

-[i] et [y] se trouvent sur le même degré d'aperture, mais le [i] est écarté, alors que le [y] est arrondi. Pour distinguer le [y], il faut l'entourer de consonnes graves comme [b], [r], [m], [v], [p] (Ex : mur [myR]) et utiliser un entourage vocalique postérieur comme [u], [o] (Ex : motus [motys]). Pour rendre une voyelle plus grave, il faut utiliser une intonation descendante (ex : « je l'ai vu dans le bus.»).

6-2- Les voyelles moyennes ([E], [O], [OE])

- L'apprenant kabylophone prononce [i] au lieu de [E], le [E] est plus ouvert que le [i]. Il faut donc montrer l'ouverture de [E] en le prononçant avec la bouche très ouverte et procéder de manière inverse pour le [i]. Pour distinguer la voyelle [E], il faut l'entourer de

manuel scolaire, 5ème année primaire, page : 11) lu par les élèves et qui sera utilisé pour étudier la production des voyelles du FLE. A ce stade d'apprentissage, l'épreuve de lecture comprend plus d'avantages que les autres méthodes (parole spontanée, semi-spontanée, répétition). Pour notre recherche sur les voyelles, c'est elle qui reflète le mieux les compétences des élèves. Nous pouvons évaluer avec plus de précision les contextes que l'on veut tester et on peut mieux évaluer les compétences réelles des apprenants. C'est pourquoi ce type d'exercice à été choisi.

L'analyse du corpus en lecture à haute voix, montre que les difficultés pour un apprenant de langue maternelle kabyle, quant à l'apprentissage du système vocalique du français repose sur les voyelles mi-fermées et mi-ouvertes, les voyelles nasales et la voyelle fermée arrondie [y]. Ce sera donc à ces trois catégories de sons que nous nous intéresserons dans ce travail. Les erreurs des apprenants se manifestent par la substitution d'une voyelle à une autre.

5-1-Substitution de la voyelle [i] à la voyelle [E] ou [y]

La totalité des apprenants ayant fait des erreurs ont produit la voyelle [i] à la place de [E] ou à la place de [y].

En observant les deux systèmes vocaliques du français et du kabyle nous trouvons que le français possède dans son système deux voyelles orales antérieures non labiales qui se distinguent l'une de l'autre seulement par le trait d'aperture. C'est le cas de [i] et [E] : l'une est fermée et l'autre mi-fermée/mi-ouverte, et deux voyelles orales antérieures fermées qui se distinguent l'une de l'autre seulement par le trait de la labialité. C'est le cas de [i] et [y] : l'une est labiale, l'autre est non labiale. Le kabyle au contraire n'a qu'une voyelle orale antérieure non labiale fermée : [i]. Cela dit, nous comprendrons pourquoi plusieurs apprenants en rencontrant un mot français qui comporte la voyelle [E] ou la voyelle [y] prononcent souvent [i] au lieu de [E] et de [y].

5-2-Substitution de la voyelle [u] à la voyelle [O] ou [OE]

La totalité des apprenants ayant fait des erreurs ont produit la voyelle [u] à la place de [O] ou à la place de [OE]. Nous avons aussi enregistré plusieurs cas de confusion entre ces deux dernières.

phonèmes qui posent problèmes et les sons auxquels ils seront rapprochés.

La différence la plus claire entre les deux systèmes vocaliques est le nombre de voyelles. Le français compte seize voyelles prononcées là où le kabyle n'en distingue que trois. Ce surplus vocalique entraîne une plus grande exigence dans le degré de pression lors de l'utilisation de l'appareil phonatoire. En comparant les deux systèmes vocaliques on peut trouver trois voyelles uniquement qui sont communes aux deux systèmes : [i, u, a].

Deux tiers des voyelles du français sont concentrés dans la zone antérieure. C'est pour cette raison qu'il conviendra d'insister sur l'antériorité dans le cas des kabylophones.

La labialisation est bien plus significative en français qu'en kabyle dans la mesure où ce trait concerne plusieurs de ses voyelles. Dans le cas des kabylophones, il faut insister sur la labialisation surtout dans le cas de l'opposition [i] et [y], pour faire prendre conscience du lieu d'articulation de ce dernier phonème. /y/ partage l'antériorité avec /i/ mais au lieu d'être une voyelle non labiale, elle est labiale comme /u/.

En kabyle, pour la production d'une voyelle, il n'y a que le pharynx et la cavité buccale qui sont sollicités. Le français fait également appel à la cavité nasale donnant ainsi lieu à la distinction entre quatre voyelles nasales : [ɛ̃, œ̃, ɔ̃, ɑ̃]. La distribution des voyelles sur le plan acoustique montre que le nombre de degrés d'aperture est différent dans ces langues, quatre en français et deux en kabyle, ce que nous considérons comme une différence très importante entre les deux systèmes. La comparaison des systèmes vocaliques des deux langues nous permettra de prédire les possibilités de transferts de la langue maternelle vers la langue étrangère qui pourraient avoir lieu lors de l'apprentissage du français langue étrangère par des apprenants kabylophones.

5- Protocole d'enquête

Des apprenants de cinquième année de l'école primaire Mohamed Oudiai de la Daïra de Ouaguenoun ont participé à notre enquête. Tous les élèves ont été testés dans des conditions quasi identiques puisque nous leur avons proposé la même épreuve. Notre analyse repose sur une épreuve de lecture d'un texte (*Un métier : sauver des vies*, tiré du

restreinte dès l'enfance, au cours de la phase d'apprentissage de la langue maternelle.

Selon le principe de « surdité phonologique », qui a été énoncé pour la première fois par Polivanove en 1931 et repris plus tard par Troubetzkoy en 1939 sous l'image de « crible phonologique », le système d'écoute d'un apprenant d'une langue étrangère donnée est influencé par la perception des sons de sa langue maternelle. Ce « crible phonologique » affaiblit notre sens de distinction et nous empêche de distinguer certains sons d'une langue étrangère. L'apprenant kabylophone, en entendant les sons de la langue française, peut ne pas entendre certaines sonorités, comme il peut aussi en percevoir d'autres d'une manière erronée, car il n'est pas sensible à leurs caractéristiques et il les rapproche spontanément des sons de sa langue maternelle. Par exemple, il peut confondre la voyelle [i] et la voyelle [e], car cette opposition n'a pas de valeur distinctive en kabyle. Ces deux voyelles sont perçues comme des variantes combinatoires du même phonème.

De cette mauvaise perception des sons résultera une mauvaise prononciation, car on ne peut prononcer un son qu'on a mal entendu. Ainsi selon Troubetzkoy, la mauvaise prononciation ne dépend pas du fait que l'étranger en question ne peut pas prononcer un certain son, mais plutôt du fait qu'il n'aperçoit pas correctement ce son. Confronté aux sons d'une langue étrangère, l'apprenant soumettra son audition et son articulation aux habitudes de sa langue maternelle.

Il est donc très important de comparer le système phonologique de la langue maternelle de l'apprenant avec le système phonologique de la langue étrangère. C'est à partir de l'analyse des erreurs commises par les apprenants qu'il sera possible d'identifier les sons qui posent problème et les sons connus des apprenants. Dans cette étude ce sont les sons vocaliques qui nous intéressent.

4- Comparaison entre le système vocalique du français et du kabyle

Les erreurs des apprenants kabylophones proviennent essentiellement des différences qui existent entre le système phonologique du kabyle et du français, il est donc essentiel de commencer par comparer les deux systèmes afin de repérer les

phonétique, les apprenants éprouvent beaucoup de difficultés en prononciation du FLE.

3- La correction phonétique

Les différentes recherches menées dans le domaine d'apprentissage des langues ont montré que les processus de production de la parole en langue maternelle et en langue seconde sont similaires. Mais il y aurait des interférences de la langue maternelle à la langue étrangère. Donc les apprenants d'une langue étrangère donnée transfèrent leurs connaissances acquises en langue maternelle vers la langue étrangère.

Différentes méthodes de correction phonétique peuvent être distinguées : la méthode articulatoire, la méthode des oppositions phonologiques la méthode comparatiste et la méthode verbo tonale. C'est cette dernière qui nous intéresse principalement dans cette étude.

La méthode verbo tonale est une méthode de correction qui est basée sur la relation entre la perception et la production. Elle consiste à exposer l'apprenant aux sons d'une langue étrangère afin qu'il puisse reproduire des sons identiques par le biais de l'imitation et de la répétition. Toute la méthode repose sur la perception

« *Ainsi s'expliquent nos erreurs de prononciation lorsque nous voulons reproduire un message en langue étrangère. Nous le reproduisons mal parce que nous le percevons mal : cette mauvaise perception résulte d'une structuration des éléments informationnels inadéquate car dictée par des habitudes sélectives propres à la perception de notre langue maternelle* » (Renard, 1971 : 24).

Quand un apprenant n'arrive pas à prononcer un son d'une langue étrangère ce n'est donc pas un problème d'articulation, mais bien un problème de perception. Pour corriger la prononciation de l'apprenant ce n'est donc pas sur l'articulation qu'il faut travailler, mais sur la perception.

Les spécialistes de l'enseignement des langues ont prouvé depuis longtemps que les difficultés qu'éprouve un apprenant à prononcer les sons d'une langue étrangère sont avant tout des difficultés liées à la perception de ces sons. Le processus de production est donc orienté vers la perception autant que vers la production elle-même. C'est vrai que l'oreille humaine est capable de distinguer un nombre très important de sons, mais l'acuité auditive d'un individu se trouve

AP, mis dans une situation de communication significative, l'élève sera capable de produire un énoncé mettant en œuvre deux actes de parole à l'oral et à l'écrit (...). Au terme de la 4ème AP, l'élève sera capable d'insérer, en respectant les paramètres de la situation de communication, sa production orale ou écrite dans un cadre textuel donné (...). Au terme de la 5ème AP, l'élève sera capable de produire à partir d'un support oral ou visuel (texte, image), un énoncé oral ou écrit mettant en œuvre les actes de parole exigés par la situation de communication. » (Guides pédagogiques des manuels de français 2012 : 67-68).

En ce qui concerne le domaine de la prononciation qui est l'objectif de notre recherche. Les compétences visées dans le programme sont :

- La maîtrise du système phonologique (discriminer les phonèmes de la langue, discriminer les phonèmes voisins, discriminer des unités de sens).
- l'appropriation du système prosodique (distinguer les différentes intonations, repérer les rythmes de la chaine parlée).
- lecture à haute voix (réaliser une bonne prononciation/articulation, réaliser une bonne prosodie assurer la qualité sonore nécessaire pendant la lecture.

Nous constatons qu'une place importante est accordée à la phonétique dans l'enseignement /apprentissage du FLE au primaire. L'apprentissage du système phonologique français se fait d'une manière progressive, il commence par la discrimination des phonèmes de la langue pour aller vers une discrimination des unités de sens en associant le système prosodique qui permet à l'élève d'identifier l'intonation, enfin reconnaitre et produire des actes de paroles.

La description des deux composantes de l'oral (compréhension/expression) nous permet de dire que la phonétique a sa place dans le programme car avant tout, les jeunes élèves doivent acquérir le système phonologique, pour assurer une bonne maîtrise de l'oral. Mais malgré cette place accordée à la

l'intégrer de manière efficace dans leur cours. Il faut retenir qu'elle est aussi importante que la correction grammaticale et lexicale lors de l'apprentissage d'une langue étrangère. Une prononciation correcte permet aux apprenants de pratiquer le français en dehors de l'école sans aucune honte. De plus une bonne prononciation d'un apprenant signifie qu'il perçoit correctement tous les phonèmes du français. Ceci est un avantage non négligeable pour une meilleure mémorisation des structures. Il sera donc intéressant que chaque enseignant de FLE accorde de l'importance à la phonétique et lui consacre une partie de son cours.

2- La place de la phonétique dans les programmes et les manuels officiels.

Selon Lauret «*l'acquisition de la prononciation d'une langue étrangère se fait :*

- *Grâce à une forte implication de l'apprenant et de l'enseignant ;*
- *Grâce à une importante ouverture à la différence sonore et vocale ;*
- *Grâce à une écoute fréquente (la plus fréquente possible), précise ou non, de la musique et des sons de la langue* » (Lauret, 2007 : 169).

Depuis 2004, la réforme des programmes dans l'enseignement fondamental propose une démarche d'enseignement/apprentissage qui permet à l'élève de donner un sens à ce qu'il apprend, car il participe à la réalisation concrète du projet en développant chez lui la créativité, l'autonomie et le sens de l'initiative. Dans le primaire en classe de FLE, l'oral qui est intégré dans le projet, retrouve sa place comme une compétence à part entière qui est distincte de l'écrit. En effet, l'oral revient sur la scène depuis l'avènement de l'approche communicative qui vise l'acquisition d'une compétence de communication en Français Langue Etrangère, cela en permettant à l'apprenant de pouvoir communiquer de manière correcte et le plus naturellement possible dans diverses situations de la vie quotidienne.

Le programme officiel du français au primaire a pour objectif de développer chez l'apprenant des compétences de communication à l'oral (écouter/parler) et à l'écrit (lire/écrire). « *Au terme de la 3ème*

وهذا راجع أساسا إلى عدم القدرة على اكتشافها والتعرف عليها بطريقة سليمة. لذلك، من الضروري أن نفكر بجدية في تدريس/ تعلم النطق.

الكلمات المفتاحية *: الشفوي، النطق، اللغة الفرنسية كلغة أجنبية، اللغة الأم.*

Introduction

La problématique de la prononciation est à l'époque actuelle au centre des réflexions didactiques et linguistiques. Savoir prononcer convenablement est une compétence qui s'acquière dès le jeune âge C'est pour cette raison que nous nous somme intéressé au cycle primaire qui est un palier très déterminant pour l'apprentissage d'une langue étrangère, il représente le début d'un réel apprentissage de la prononciation d'une langue appartenant à un système différent de celui de la langue maternelle de l'apprenant. Ce dernier doit acquérir une articulation correcte dans ce cycle pour pouvoir passer par la suite à d'autres compétences à savoir la compréhension.

Dans le cadre de cette étude, nous nous intéressons aux difficultés de l'enseignement/apprentissage de la prononciation dans un contexte plurilingue. Par conséquent, nous allons, en premier lieu, nous intéresser au processus de l'enseignement/apprentissage de la prononciation. En second lieu, nous tenterons de montrer quelle place accordée à la prononciation dans le processus d'apprentissage. Enfin nous nous intéresserons aux difficultés de prononciation du FLE au cycle primaire et nous proposerons une méthode appropriée pour remédier à cette situation non des moins négligeables.

1-La phonétique, quel intérêt pour un cours de FLE au primaire ?

L'apprentissage de la prononciation est très important pour communiquer avec succès. En fait, toutes les connaissances explicites ou implicites de la grammaire et du lexique d'une langue ne suffisent pas pour se faire comprendre si les apprenants ne prononcent pas d'une manière correcte. La correction phonétique est souvent ignorée par les enseignants lors des cours de FLE, soit parce que les enseignants n'ont pas les connaissances nécessaires pour une pratique réussie de cette discipline ou parce qu'ils ne savent pas comment

Apprentissage de l'oral en contexte plurilingue. Problèmes liées à l'acquisition de la prononciation

Nacéra Kheloui
Université de Tizi-Ouzou

Résumé : D'après les différentes recherches en didactique ces dernières années, les chercheurs (LAURET, B. 2007, -ABRY, D 2010, LEON, M. 2003, CHARLIAC, L. 2006, 2010 entre autre) sont convaincus de la nécessité de l'apprentissage d'une bonne prononciation. Il est donc important de préparer les apprenants à l'exercice de cette aptitude dès le jeune âge. Dans le cadre de cette étude, nous allons nous pencher sur les difficultés de la prononciation dans le primaire. En effet, lors de l'apprentissage du français dans le cycle primaire, les apprenants rencontrent d'énormes difficultés en prononciation dues à l'inexistence de certains phonèmes dans la langue source (le kabyle), par conséquent, à l'incapacité à les reconnaitre et à les identifier d'une manière correcte. De ce fait, il est indispensable de réfléchir sérieusement à l'enseignement/ apprentissage de la prononciation.

Mots clés : *oral, prononciation, FLE, langue maternelle*

الملخص:

انطلاقا من عدة دراسات أجريت خلال السنوات الأخيرة و التي اهتمت بالتعليم آو فن التعليم تأكد عدة باحثين (لاسيما LAURET, B. 2007, ABRY, D. 2010, LEON, M. 2003, CHARLIAC, L. 2006, 2010) من ضرورة تعلم النطق السليم. ولذا فمن المهم إعداد الطلاب لممارسة هذه القدرة منذ سن مبكرة. وكجزء من هذه الدراسة، سوف نركز على صعوبات النطق عند تلامذة الطور الابتدائي. في الواقع، عند تعلم اللغة الفرنسية في المدارس الابتدائية، يواجه الطلاب صعوبات كبيرة في النطق بسبب عدم وجود بعض الصوتيات في اللغة الأصلية (القبائلية)،

Bibliographie

El Watan-Weekend n°: 299 du vendredi 02 Janvier 2015.

Gide A., *Les Faux-monnayeurs* [1925], Paris, Gallimard, 1980.

Gontard M., *Ecrire la crise,* Rennes, Presses Universitaires de Rennes, 2013.

Scarpetta G., *L'impureté*, Paris, Gallimard, 1985.

Zaoui A., *La chambre de la vierge impure,* Alger, Barzakh, 2009

1 - Cf. *Larousse de Poche,* Paris, Larousse, 2013.

2 - Extrait de la postface de ce roman

3 - Nous pensons en particulier à Momou qui, en plein délire, parcourt Alger, pieds nus, de nuit comme du jour, et crie: « c'est moi Sénac, c'est moi Yahia el Ouahrani», affirmation qui résonne avec celle d'Al Halladj : « c'est moi la vérité c'est moi la vérité »

4 - Ce cri de Salman le Grand, après avoir trouvé le fameux manuscrit dans la ville de Tamnetit : « je l'ai trouvé ! je l'ai trouvé !» rappelle en effet *Eureka!* d'Archimède.

5 - Cf. *El Watan-Weekend* № 299 du vendredi 02 Janvier 2015

6 - En effet, en plus de l'évocation du prophète Salamon, ce nom de Salman le Grand rappelle aussi tous les grands empereurs de l'Occident, à l'image d'Alexandre le Grand, roi de Macédoine et fondateur d'empire (IVème siècle av. J.-C.)

7 - Célèbre voyageur et géographe arabe (1304 - v.1370).

son double qui «*se lance dans un long discours sur [leurs] origines andalouses qui remontent au grand chanteur et musicien Ziryab, celui qui inventa la cinquième corde du luth*» (p.108).

Enfin, le dernier personnage qui incarne dans ce livre l'identité postmoderne, c'est bien Salman le Grand, père du narrateur-conteur Ailane. En effet, comme le suggère son nom[6], ce personnage est l'illustration parfaite d'une identité rhizomique, celle de l'errance et de l'altérité au cœur du soi. Infatigable globe-trotter, il incarne l'esprit d'ouverture vers l'altérité et l'amour du voyage. Cependant, même s'il était «*une âme errante sur des chemins pendant un siècle et sept années, quatre mois et vingt-trois jours*» (p.113), son idole n'a jamais été Ibn Batouta[7], mais plutôt l'illustre Ibn Khaldun qu'il cherche à surclasser. Son admiration pour ce célèbre historien l'amène à se retirer discrètement «*dans la médina de Bejaïa pour s'installer dans une mosquée où jadis enseignait*» (p.85) ce dernier. Persévérant, il parvint à concrétiser «*son rêve suprême : effacer l'image d'Ibn Khaldun et celle d'Ibn Tumert (...) de la mémoire collective des Berbères*» (p.92).

Par cette référence à ces deux personnages historiques, l'auteur cherche à souligner un trait important que l'on retrouve chez le sujet postmoderne, à savoir un bilinguisme assumé et vécu comme enrichissement intellectuel de soi. Car comme nous le savons, ces deux savants sont des Berbères qui ont produit des œuvres monumentales en langue arabe. Quant à Salman le Grand, il a fait mieux, lui l'arabophone, a réussi l'exploit de traduire le saint Coran en langue berbère. Plus que cela, passionné d'Al Mutanabbi et de Cheikh Mouhand U Mouhand (p.115), il a toujours assumé son bilinguisme.

Conclusion :

En définitive, nous pouvons conclure par dire que toutes ces «impuretés» opèrent un véritable décentrement par rapport aux premiers romans de la littérature francophone du Maghreb, dans le sens où il n'oppose plus le Même à l'Autre. Au contraire, il plaide pour une hétérogénéité radicale de l'être à travers les exemples d'Ailane, Sultana et de Salman le Grand qui se démarquent nettement de ceux qui se définissent par opposition à l'Autre. En bref, en créant de tels personnages, l'auteur plaide pour une identité rhizomique même si cela n'est pas du tout évident dans une société peu ouverte à l'Autre.

haines, elle céda à la pression et décida enfin d'aller vers des lieux plus cléments : «*j'ai décidé de partir sur les traces de ma mère Rokia : « Nous sommes condamnés au voyage»*» (p.166). Par cette décision, elle confirme cette idée d'errance qui est au cœur de l'identité rhizome, cette identité postmoderne qui intègre l'autre au cœur du moi et non pas celle qui se construit sur l'opposition binaire de l'Autre et du Même.

Par ailleurs, l'autre personnage qui rêve de départ sur les traces de Rokia n'est autre qu'Ailane. A l'instar de sa cousine Sultana, il est un parangon de l'identité hybride. Lui aussi voue une admiration sans bornes pour la fugueuse et rebelle Rokia, une admiration qu'il décline quand il dit : «*sur les traces de ma tante Rokia, j'avançais sans ailes*» (p.33). Subjugué par elle, il ose même s'agenouiller et se prosterner devant son portrait pour demander à Allah de la protéger, imitant par là le comportement de sa tante devant le portrait de son idole à elle Mustafa Atatürk, le père de la Turquie moderne. A l'image de cette rebelle, Ailane affiche sa singularité identitaire dès les premières pages du roman. En effet, tout en se démarquant de ceux qui croient «*aux prêches violents sur la fin du monde et contre l'Occident mécréant*» (p.68), il annonce d'abord son «impureté» identitaire à travers l'énumération de ses idoles révolutionnaires : «*C'est un fait, je suis passionné par les révolutionnaires : le prophète Mohammed d'Arabie, que le salut soit sur lui, Che Guevara d'Amérique latine Nelson Mandela d'Afrique et Ismail Abdelfattah d'Aden*» (p.*27)*.

En plus de ces idoles, l'amour des langues est l'autre preuve de cette altérite intégrée au cœur d'Ailane, ce sujet postmoderne. Ce dernier, séduit par l'«espagnol hautement musical» de Laya, parvint, au bout de six mois, «*à parler et écrire parfaitement la langue de Cervantès et de Garcia Lorca*» (p.86). Cependant, ce qui illustre le mieux l'identité rhizomique de ce personnage est sans doute son interrogation sur sa génitrice :

«Neuf mois de traduction. Neuf mois d'attente : le bébé. Malgré l'absence de mon père, je suis né, disait ma mère, le jour de l'achèvement de la traduction du Coran en berbère. Un don d'Allah ! Suis-je le fils de Nouara, de Chehla ou de Rokia ? Les choses s'imbriquent dans ma tête, telles des poupées russes» (p.89).

En effet, au-delà de cette analogie qui fait de la traduction du Coran en berbère un processus d'enfantement, ce passage reflète l'hybridité identitaire d'Ailane. En se demandant s'il est le fils de Nouara, de Chehla ou de Rokia, ce personnage ne traduit pas sa crise identitaire cette interrogation est, pour lui, une façon d'assumer son identité plurielle à laquelle même il rajoute une autre origine, par le biais de

enfermés dans leurs certitudes au point de cultiver la haine de l'autre. L'auteur lui-même nous oriente vers cette piste en dénonçant, dans une interview, le cloisonnement identitaire du monde arabo-musulman : «*Le monde arabo-musulman est en proie à une culture de méconnaissance de l'autre, de l'autosuffisance maladive, et cela engendre la haine et l'animosité envers cet autre avec lequel on partage la vie sur cette terre.*»[5] Cette méconnaissance générant la haine d'autrui se trouve en effet au cœur de ce roman, mise en cause par ces personnages en question qui rêvent d'une identité plurielle. En se démarquant des autres, ces personnages illustrent cet élément essentiel de la culture postmoderne, à savoir «*l'intégration de l'autre – cet ennemi pour la modernité – dans la conscience de l'identité-ipse*» (Gontard, 2013 : 63). Ce qui nous conduit alors à expliciter cette intégration de l'autre dans ce texte.

Sultana, la vierge impure, est sans doute un de ces personnages qui ne croient guère au «*fantasme moderne de la race pure et de l'identité-racine*» (Gontard, 2013 : 63). Du moins, c'est ce qu'elle découvre en elle, au hasard d'une émission radiophonique qui précipita son ouverture à l'Autre ou plus précisément à la religion de ce dernier :

«Je ne sais pas comment, la nuit suivante, très tard, je tombais sur cette station de radio qui diffusait la lecture de quelques passages du livre saint, la Bible (…). Le lecteur disposait d'une voix exceptionnelle qu'accompagnait une chorale harmonieuse hautement spirituelle. Cette lecture me fait monter les larmes aux yeux ; en même temps, elle éveilla en moi une énergie spirituelle et charnelle» (p.156).

Depuis cette découverte, Sultana prend l'habitude d'écouter cette émission et s'intéresse de plus en plus à cette religion de l'Autre au point où son amour pour la Bible devient comparable à celui qu'elle porte pour le Coran, le livre saint des musulmans : «*je lisais tantôt le Coran tantôt la Bible*» (p.159). Par cette pratique iconoclaste, elle se distingue des autres habitants du village qui se définissent par la négation d'autrui. Ces derniers, se croyant dépositaires de la vérité stigmatise cette *Yahoudia* et l'expose à la vindicte populaire comme nous pouvons le lire à travers les propos de l'épicier du village, Hedi El Manchot : « *Nous avons parmi nous une* yahoudia *dans le village. Une malédiction envoyée du ciel d'Allah sur nos têtes. Elle a abandonné l'islam, religions de nos parents (…). Une* mourtadda*, il faut l'égorger, il est licite de verser son sang*» (p.160). Malgré toute cette haine à son égard, Sultana suit innocemment son chemin que les deux voix (voies) d'Allah éclairent. Mais face au déchainement des

une construction sans piliers (...)» (p.125), nous lisons des expressions reprenant des clichés désuets de l'autre culture, à l'exemple de «*cette femme (...) est capable de cacher toute la forêt*» (p.41) et «*l'habit ne fait pas le moine*» (p.41). Tous ces exemples montrent comment l'imaginaire de ce roman est irrigué par les deux cultures citées et combien sa pensée est métissée. Par ailleurs, histoire de pousser l'hétérogénéité de son texte à l'extrême, l'écrivain fait cohabiter ces deux cultures dans une même phrase comme dans l'exemple suivant : «*avant qu'une belle Turque, tête de Turque, ne me mange la tête*» (p.109). Puisqu'au moment où « tête de turque » renvoie à un cliché de la culture française, « me mange la tête » n'est qu'une transposition littérale d'une expression populaire algérienne. Enfin, accentuant davantage l'hétérogénéité de sa texture, l'auteur y insère aussi des versets coraniques traduits à l'exemple de la sourate *les impies* du saint coran.

En dernier lieu, sur le plan linguistique, ce roman d'Amin Zaoui valorise le bilinguisme comme l'illustrent ses personnages principaux. L'amour des langues chez ces derniers est en effet est révélateur de cette valorisation du bilinguisme «*qui ne s'exprime pas sur le mode du déchirement mais sur celui de l'ouverture du sujet à sa propre altérité*» (Gontard, 2013 : 120). Car même s'il arrive à l'auteur d'employer souvent, dans cette œuvre, des mots arabes avec une typographie distinctive (italique), cela n'obéit nullement à un effet de folklorisation. Son but est plutôt d'éviter les aléas d'une traduction approximative dans la mesure où «traduire, c'est trahir». A titre d'exemple, quand il parle de la célèbre œuvre d'Ibn Khaldun, il préfère le mot arabe *Mokaddima* en italique, précédé de l'article français 'La', au titre 'Prolégomènes' employé dans les traductions françaises de cette œuvre. Par un tel choix, notre écrivain montre combien il assume son bilinguisme, une position qu'illustre davantage avec la transcription dans deux langues différentes (français et arabe) d'une expression funéraire : « A Allah nous appartenons A Allah nous retournerons» et « إنا لله وإنا إليه راجعون» (p.22).

III. Identité composite: Enfin, pour compléter cette analyse du postmodernisme dans *La chambre de la vierge impure*, nous nous proposons de montrer à présent comment l'auteur fait d'Ailane Salman le Grand et Sultana des parangons d'une identité mosaïque obéissant «*au principe postmoderne de diversalité*» (Gontard, 2013 : 64). Une telle lecture est suggérée par la démarcation de ces personnages des autres habitants du village *Karmoussa* qui sont

II. Hybridité dialogique : Plus significative encore est l'impureté dialogique dans cette œuvre, une impureté qui touche et à la langue et à la pensée. Elle se remarque à travers plusieurs phénomènes de réécriture d'éléments culturels, littéraires et linguistiques donnant lieu à une hétérogénéité qui s'étend de l'imitation à la translation et de la polyphonie au bilinguisme. Une hétérogénéité que nous nous proposons d'aborder à présent en nous focalisons sur les éléments qui affectent la langue d'écriture par l'introduction d'éléments issus de la culture arabo-musulmane. Toutefois, vu l'étendue de cette question nous nous contenterons ici de l'analyse de l'imitation littéraire, de la translation et adaptation de contenus culturels du terroir, et enfin de l'usage d'une langue métisse.

Comme nous l'avons vu plus haut, la littérature arabe, avec ses trois genres narratifs, altère la « pureté » générique de ce livre. Mais cette impureté, comme nous le verrons ici, ne se limite pas seulement à l'altération du code romanesque, elle se constate aussi dans le travail de réécriture accompli par l'auteur à partir de textes de la littérature arabo-musulmane. En effet, en plus de l'influence manifeste des *Mille et une nuits* et des allusions littéraires à Al Halladj[3] et à Archimède[4] ce roman reprend, en italique, un court récit sur le calligraphe Ibn Moqla avant de le pasticher dans une fresque décrivant un exploit de Salman le Grand. En parodiant le récit de ce malheureux calligraphe l'auteur instaure ainsi un dialogue entre le texte premier, intitulé *La Main qui rêve* et narré, comme dans une halqa, par un conteur dans la médina de Béjaia, et un texte second, celui qui relate le procès de Salman le Grand après avoir traduit et calligraphié le Coran en berbère. Par ce pastiche, l'auteur laisse transparaître sa double culture tout en invitant son lecteur à méditer ce destin tragique qui s'abat sur chaque main créatrice. Puisque, comme Ibn Moqla, victime du calife Al Radhi Bi Allah qui lui a tranché d'abord la main droite, puis la main gauche et enfin les deux pieds, Salman le Grand a subi lui aussi le même châtiment pour avoir osé traduire et transcrire «*le Coran paroles d'Allah, dans une langue sale telle que le berbère*» (p.93). En bref, le pastiche sert ici à souligner la cruauté des bourreaux qui s'acharnent sur toute *main qui rêve*.

Sur le plan culturel, cette œuvre regorge d'adaptations et transcriptions d'adages du terroir et de traductions de versets coraniques qui côtoient des clichés et des expressions issus de la culture occidentale. En effet, à côté des dictons arabes du genre : «*il n'y a pas d'os dans la langue*» (p.14) ou «*une maison sans homme est*

histoires tissées autour des hauts faits accomplis par cet être hors du commun. Citons en ce sens, sa maîtrise des langues des oiseaux : «*il était aussi un célèbre connaisseur, ou plutôt un décodeur, de chants d'oiseaux. Il savait éperdument imiter, lire et transcrire les langues de vingt-sept espèces d'oiseaux*» (P.49). En soulignant le pouvoir extraordinaire de ce personnage, cet extrait montre la contamination du roman par la sîra. Cependant, cette capacité digne d'un Attar est loin d'être le seul exploit de cet homme, puisque son odorat et son érudition rivalisent avec le carbone 14 des paléoanthropologues.

Mon père (…) avait acquis toute la sagesse et le savoir linguistique du prophète Salomon. En fonction de l'odeur du *smek,* l'encre traditionnelle, de la composition et de la couleur du parchemin, ou de la qualité de la peau de gazelle sur laquelle était calligraphié le texte, mon père était capable de définir avec précision l'âge du manuscrit, son pays d'origine et le nom du calligraphe (p.51).

Cet exploit et bien d'autres font de Salman Le Grand un être d'exception, voué à l'éternité comme le laisse entendre son fils : «*Mon père n'était pas mort. Et il ne mourrait jamais*» (p.47).

Enfin, comme dernière trace de la narration arabo-musulmane dans ce livre, nous pouvons citer surtout les éléments qui rappellent la rihla le récit de voyage des pèlerins vers la Mecque. Dans cette optique nous constatons que l'essentiel de ce qui est dit sur la tante du narrateur, installée à Istanbul, est relaté par les hadjis, de retour des lieux saints de l'islam. Ainsi dans cet extrait ci-dessous :

«(…) des années plus tard, quelques hadjis, transitant par Istanbul sur le chemin des lieux saints de l'islam, racontèrent qu'ils l'avaient vue de leurs propres yeux, et ils juraient que c'était elle, en chair et en os (…). D'autres pèlerins prétendirent que ma tante Rokia était assise sur une immense fortune, sur une mine d'or, qu'elle détenait cinq hôtels, trente-trois hammams à Istanbul et Izmir (…) » (p.15).

Certes ce passage est loin de ressembler à une maqama dans la mesure où ce n'est pas le pèlerin-narrateur qui parle et décrit sa découverte, néanmoins il la suggère comme escale d'un voyage donnant lieu à une rencontre enrichissante. Par ailleurs, à lire certaines phrases d'Ailane à propos des pérégrinations de son père, nous pensons directement à Ibn Batouta, le célèbre globe-trotter arabe. Une telle impression se dégage à lecture de ce passage du roman : «*je savais qu'il était menteur, parce qu'il ne parlait jamais des femmes rencontrées au cours de ses voyages dans les pays des Blancs, des Noirs et des Jaunes*» (p.35). Cet extrait est en fait une allusion et un clin d'œil aux récits de voyage d'Ibn Batouta où foisonnent les notations géographiques, climatiques et culturelles, mais jamais sur les femmes des innombrables pays explorés par cet infatigable voyageur.

de la tradition littéraire arabo-musulmane. Ces derniers, en y bouleversant l'équilibre narratif, nous amènent à lire ce récit comme une œuvre transgénérique, travaillée par la dite trace. La référence explicite à de nombreux auteurs issus de cette tradition est en ce sens un indice révélateur de la contamination de notre corpus par des procédés narratifs appartenant à la dite littérature. Tout en confirmant la double culture de notre auteur, cette référence nous conduit en fait à nous interroger sur ce travail de la trace arabo-musulmane. Il s'agit en ce sens de voir comment ces éléments altèrent la pureté de ce récit et bouleversent son équilibre narratif. En clair, en partant de l'idée que cette littérature «*ne connaît que trois genres narratifs principaux : la hikâya (conte), la sîra (biographie) et la maqama (séance) qui se combine avec la rihla (récit de voyage*» (Gontard, 2013 : 110), nous focaliserons notre analyse en particulier sur la force du conte, les exploits des personnages et les voyages du père.

Fidèle à ses origines, l'auteur emprunte d'abord au conte qui demeure l'une des formes les plus riches et vivantes de la culture orale au Maghreb. Ainsi, contrairement au roman occidental où la narration est assurée souvent par un narrateur omniscient, cette œuvre d'Amin Zaoui est un enchâssement de récits racontés par plusieurs conteurs. Comme dans la pure tradition maghrébine où, la nuit tombante, les grands-mères racontent, souvent en improvisant, des histoires pour un auditoire intéressé, Ailane, «*dans les volutes de fumée psychotrope et le vertige des sens*»[2], tente de séduire son auditrice (Laya) en lui ménageant suspense et rebondissement dans cette histoire interminable et rocambolesque du père. Le désir de séduction ne quitte guère l'esprit de ce conteur-narrateur comme le suggère ce passage:

«Ce soir-là, je sortis ma langue pour enchanter Laya avec une nouvelle histoire(…).

Je la cernai.

Je la ravis.

Je l'ensorcelai.» (p.44)

Par ailleurs, en racontant l'histoire de son père, Ailane emprunte aussi quelques traits d'un autre genre très prisé de la littérature arabo-musulmane, à savoir le récit épique, appelé communément la sîra, à l'exemple de celle de Antara. Véritable épopée racontant la geste d'un héros particulier, la sîra se trouve ainsi imité, dans notre corpus essentiellement dans l'évocation de la vie du père au nom suggestif de Salman Le Grand. En effet, toutes les versions qui y sont compilées concourent à hisser ce dernier au rang de personnage légendaire rivalisant avec l'immense Ibn Khaldoun. Cela transparait de toutes ces

linguistiques» (Balutet, 2014). Enfin, nous terminerons par la crise du sujet (postmoderne) en nous focalisant sur les personnages principaux du roman tout en soulignant l'hybridité de l'espace-temps où ils évoluent.

I. Impureté générique: Comme nous pouvons le lire sur la première de couverture, *La chambre de la vierge impure* est un roman c'est-à-dire une «*œuvre d'imagination en prose dont l'intérêt réside dans la narration d'aventures, l'étude de mœurs ou de caractères l'analyse de sentiments ou de passions*»[1]. Toutefois, bien qu'il réponde foncièrement à cette définition, ce récit d'Amin Zaoui est loin d'adhérer à l'idéal de pureté prôné, entre autres, par Gide qui voulait «*purger le roman de tous les éléments qui n'appartiennent pas spécifiquement au roman*» (Gide, 1980 [1925] : 57). En effet contrairement à l'auteur de *La symphonie pastorale*, notre écrivain se révèle comme un adepte de l'«impureté générique» (Scarpetta). Son roman est en ce sens « impur » et hétérogène, vu la présence en son sein d'éléments liés à la poésie et surtout à la tradition littéraire arabo-musulmane. Cette dernière, qui «*travaille la mise en récit*» (Gontard 2013 : 110) dans la littérature francophone du Maghreb, est largement perceptible chez cet auteur qui a l'habitude de publier aussi des romans en langue arabe.

Cette transgression du code romanesque, le lecteur averti peut la constater d'abord à travers ce recours fréquent au leitmotiv. Dès les premières pages du roman, ce lecteur remarque en effet la répétition d'une même formule (« l'eau n'est pas dormante ») à des intervalles presque réguliers. Phrase inaugurale du récit, elle revient à cinq reprises comme le refrain d'une chanson. Par une telle répétition l'écrivain veut sans doute fidéliser ses lecteurs et attirer leur attention vers l'essentiel (dans ce cas précis, il s'agit de se méfier du faux-semblant des regards). Par ailleurs, loin d'être un cas isolé, ce leitmotiv s'impose comme un élément d'une poétique dans la mesure où d'autres formules sont clairsemées dans l'univers de ce roman. C'est le cas des phrases : *« suce-moi les seins, suce-moi le sein»*, *« je ne suis pas fait pour le théâtre »*, *« Ailane, l'autre* » qui fonctionnent comme autant de clins d'œil de l'auteur à son lecteur qui attend au fil des lignes le retour du leitmotiv. Ce dernier, par sa dissémination déplace la lecture vers le niveau horizontal alors que le roman d'habitude se lit d'une façon linéaire et verticale.

Cependant, ce qui illustre le mieux l'«impureté générique» dans ce roman, c'est bien la présence au sein de ce dernier d'éléments relevant

L'impureté dans *la chambre de la vierge impure* d'Amin Zaoui

M. Hakim MAHMOUDI
ENS Université d'Alger

Introduction : Né en 1956, Amin Zaoui est l'un des écrivains algériens les plus prolifiques des années 2000. De ce fait, il s'impose comme référence pour tous ceux qui s'intéressent aux orientations actuelles de la littérature algérienne de langue française. *La chambre de la vierge impure*, à l'instar des six autres romans publiés, en langue française, par cet écrivain depuis 1998, illustre l'inscription de ce dernier dans l'écriture dite postmoderne. En effet, écrit dans cette période qui «*semble en partie caractérisée par la fin du mythe (''moderne'') de la spécificité ou de la pureté des arts – phase de confrontation, au contraire, des métissages, de bâtardise d'interrogations réciproques (...), des heurts, des contaminations, des rapts, des transferts*» (Scarpetta, 1985 : 13), ce roman ne peut déroger à cette règle d'hétérogénéité et d'impureté qui caractérise le récit postmoderne. Intéressé par ce sujet, nous nous proposons ici de repérer les caractéristiques qui pourraient établir le postmodernisme de ce texte.

Toutefois, face à une multitude de discours théoriques inhérents à ce vaste champ de l'esthétique postmoderne, nous sommes amené à choisir deux théories ou plutôt deux notions parmi tant d'autres. Ainsi pour notre analyse, nous nous référerons ici d'un côté aux notions d'*hétérogénéité* de Lyotard et d'*impureté* de Scarpetta, et d'un autre, à la notion d'hybridité qui est aussi au cœur des études postcoloniales. Par ces choix conceptuels, nous comptons expliquer certains phénomènes d'écriture postmoderniste constatés dans notre corpus. En d'autres termes, il sera question, dans ce qui suit, de l'hybridité dans toutes ses facettes. Partant de la remarque de Gontard qui voit la participation du roman francophone à l'aventure postmoderne dans la mise en œuvre «*des dispositifs de métissage et de créolisation*» (Gontard, 2013 : 109), nous nous intéresserons d'abord à l'impureté générique ou l'altération du romanesque par la trace arabo-musulmane. Puis nous aborderons l'hybridité dialogique, entendue dans le sens que lui confère Nicolas Balutet comme «*transformation dans un texte particulier de différents éléments culturels, littéraires et*

6 - J.L. Austin is worldwide famous for his *How to Do Things with Words* (1955) in which he underscores the cruciality of discourse and introduces the dichotomous **performative** vs **constative** utterances. Whereas the former imply action and dynamism, the latter are mere statements. For Butler a statement such as the famous 'It's a girl'
which a nurse or a midwife utters at the birth of a girl is not constative, but rather performative in that by such an utterance, a process of 'girling' takes place.

important books with other theorists like Seyla Benhabib, Žižek Slavoj,etc.

References

Butler, Judith. (1990). *Gender Trouble*. London and New York: Routledge.

---------- (1993). *Bodies That Matter: On the Discursive Limits of the "Sex"*.New York and London: routledge.

Castle, Gregory. (2007). *The Blackwell Guide to Literary Theory*. Oxford: Blackwell Publishing.

Helmers, Mathew. (2011). 'Queer Theory'. in *The Encyclopedia of Literary and Cultural Theory.* Vol I, II & III, edited by Ryan Michael, London: Wiley-Blackwell.

MacArthur, Tom, eds. (1992). *The Oxford Companion to the English language.*Oxford and New York: Oxford university Press.

Mullan, John. (2006). *How Novels Work.*Oxford: Oxford University Press.

Ryan, Michael, eds. (2011). *The Encyclopedia of Literary and Cultural Theory.* Vol I, II & III, London: Wiley-Blackwell.

Salih, Sara. (2002). *Judith Butler.* London and New York: Routledge.

1 - Many founding texts began as dissertations such as Boumelha's, Millet's, etc.

2 - Immanuel Kant (1724-184), G.W.F. Hegel (1770-1831), Edmond Husserl (1859-1938), Martin Heidegger (1889-1976), Jean Paul Sartre (1905-8) and Maurice Merleau-Ponty (1908-61) delved in phenomenology which is the study of consciousness, i.e. how the mind perceives the external world.

3 - Post-structuralism and deconstruction are sometimes used interchangeably as they overlap and both react against structuralism which they claim to develop and elevate.

4 - Queer Theory supposedly arose from he coalescence of post-structuralism psychoanalysis and feminism.(Salih 2002:8)

5 - There is no room for definition, fixity and stasis in Queer theory; it deconstructs sexed and gendered identities and differs from feminism, gay, lesbian studies and gender studies which problematize woman, gender and sex through the assumption that the subject is already there.

> of bodies and, more specifically, to materialize the body's sex, to materialize sexual difference in the service of the consolidation of the heterosexual imperative.
>
> (Butler, 1993:.2)

Needless to say that behind every text is somehow or other a palimpsest in that it vehicle a subtext which tells the ills of the author. *Gender Trouble* and the other Butlerian texts innuendo to the earlier years of Butler when she

> grew up understanding something of the violence of gender norms: an uncle incarcerated for his anatomically anomalous body, deprived of family and friends, living out his days in an "institute" in the Kansas prairies; gay cousins forced to leave their homes because of their sexuality, real and imagined; my own tempestuous coming out at the age of 16; and a subsequent adult landscape of lost jobs, lovers, and homes.
>
> (Butler, [1990] 1999: xx)

This article has been a tentative to familiarize the novice with Judith Butler albeit queerness surrounds her much more once one has read the article and her multiple books. Butler is fascinating because she is the philosopher *par excellence;* she speculates, theorizes and philosophizes *ad nauseam* and this fits amateurs of philosophy, but repulses the believers in the line of least resistance. Butler aligns with Judith/Jack Halberstam, Sedgwick, Eve Kosofsky, Gayatri Spivak Homi Bhabha, Luce Irigaray, Monique Wittig, Hélène Cixous, Julia Kristeva, Simone de Beauvoir and the substantial group of women thinkers who not only challenged the androcentric tradition in knowledge, but outwitted men in many domains. Butler's books are all seminal; *Gender Trouble (*1990) is the landmark in her career. It was followed *inter alia* by *Bodies That Matter: On the Limits of "Sex"* (1993), *Excitable Speech: A Politics of the Performative* (1997), *Precarious Life: The Powers of Mourning and Violence* (2004), *Undoing gender* (2004), etc. Judith Butler co-authored other

"structure of identity which is based upon a socially imposed primary 'loss' or rejection of homosexual desire." (Ibid: 9). Queer troubles the hitherto constructs of gender, sex, subject by reversing the traditional conception and 'construction' of identity. In sum, the subject/individual does not frame institutions, practices and discourses, but are shaped and effected by them and Butler envisages other ways of effecting the subject. Hence her theory of performativity; a coinage that is not easy to decipher and should not be confused with performance. Butler introduces the word performativity in *Gender Trouble* and assets that: 'gender proves to be performative, that is, constituting the identity it is purported to be. In this sense, gender is always a doing, though not a doing by a subject who might be said to pre-exist the deed' (Butler, 1990:34). 'Subject-in-process' is the other neologism we owe to Butler who borrows this conception from Hegel whose Phenomenology is framed like a bildungsroman (initiation from ignorance to knowledge), thus the Butlerian subject passes from stages through which it passes from misrecognition to recognition.

Butler refutes the pre-existence of a subject called 'woman' as feminists assume; she aligns with De Beauvoir in underlying the fact that gender is what we **do** not what **are**. For Butler gender identity results from language, i.e.it is language and discourse which constitutes our identity as male or female. This very idea meets the demand of my thesis since I contend that Hardy, the author constructs the gender of his female and male characters subversively. Language in general and discourse in particular, have much to do with this process of construction of the identity; Butler does not mean performative in the Austinian[6] sense, i.e., an action or performance performed by a doer. In fact, she distinguishes performativity from performance and states that:

> [. . .] performativity must be understood not as a singular or deliberate "act," but, rather, as the reiterative and citational practice by which discourse produces the effects that it names [.. . .] The regulatory norms of "sex" work in a performative fashion to constitute the materiality

Indeed, language is undermined and as often as not,

> [t]he demand for lucidity forgets the ruses that motor the ostensibly "clear" view. Avital Ronell recalls the moment in which Nixon looked into the eyes of the nation and said, "let me make one thing perfectly clear" and then proceeded to lie. What travels under the sign of "clarity," and what would be the price of failing to deploy a certain critical suspicion when the arrival of lucidity is announced? Who devises the protocols of "clarity" and whose interests do they serve? What is foreclosed by the insistence on parochial standards of transparency as requisite for all communication? What does "transparency" keep obscure?
>
> (Ibid: xx)

As a matter of fact, reading Butler is not a sinecure. In her *Judith* Butler (2002) Sara Salih rightly points out that, "the movement of her thought would resemble a Mobius strip, or a series of Mobius strips exemplifying how her theories curve or circle around issues without attempting to resolve them" (Salih, 2002:3).

Butler questions and quests about identity and subjectivity; the gendered identity which is 'constructed for us' according to her (Ibid:2). 'Subjecthood' and the process whereby the subject is brought into existence constitute the essential of Butler's thought. Unlike so many thinkers, Butler does not pretend to supply answers to the questions she asks in her various formulations; she favours the Hegelian dialectic which entails a thesis negated by an anti-thesis which abuts to a resolution or synthesis which is not definitive , but rather constitutes the ground of another thesis. Open-endedness is the principal characteristic of dialectic and Butler's theorizing. Butler rebukes final resolution which she regards as anti-democratic and oppressive (Ibid: 4). Like Hegel's *Phenomenology of Spirit* (1807) Butler's thought is concerned with identity and subject as a limitless and continuous process. Butler resorts to Freud and borrows his 'melancholy' to expound her melancholic heterosexuality which is a

demonstrated and she avows to have worked "with an extraordinary group of activists first as a board member and then as board chair of the International Gay and Lesbian Human Rights Commission (1994–7), an organization that represents sexual minorities on a broad range of human rights issues" (Butler, [1990]1999: xviii).

Though she is closely associated with Queer theory, Judith Butler belongs in more than a trend of literary and cultural theory. In fact she contributed to the enrichment of psychoanalytic theory postmodernist theory, poststructuralist theory, feminism, gender studies and last but not least philosophy. Butler's most famous book is the seminal and canonical *Gender Trouble* (1990), yet *Bodies That Matter* (1993), *The Psychic Life of Power* (1997), *Antigone's Claim* (2000), *Undoing Gender* (2004) and other works are all equally important and essential for an insightful seizure of this enormous theoretician who answers to the name of Judith Butler. Her books are also intimately interrelated in the sense that they treat, extend and expand central issues which are moulded in unanswered questions-Butler's trade mark-that trouble feminists, non-feminists, linguists psychoanalysts, philosophers, sociologists and politicians alike.

In response to those who disapprove of her style, Butler iconoclastically directs the readers' attention to the ideological undercurrents that permeate style and grammar. For her, "neither grammar nor style are politically neutral », and "[l]earning the rules that govern intelligible speech is an inculcation into normalized language, where the price of not conforming is the loss of intelligibility itself" (Ibid: xix). According to Butler "[i]f gender itself is naturalized through grammatical norms, as Monique Wittig has argued, then the alteration of gender at the most fundamental epistemic level will be conducted, in part, through contesting the grammar in which gender is given" (Ibid:xx).

constitution of the subject entails a radical and constitutive relation to alterity?' (qtd in Salih, 2002:20).

Beside Hegel, Foucault and post-structuralism (deconstruction)[3] constitutes the essential source of inspiration for Butler who undertakes to deconstruct the traditional binary opposition between male and female. Foucault and Derrida are by far crucial sources for Butler's theories about gender/sex, subject, etc. She draws from the former the central concepts of genealogy and power and deconstruction from the latter. Butler's theoretical alignment with Foucault, Derrida and also Althusser made some categorize her in the post-structuralist school albeit her oeuvre also lends itself to a psychoanalytic categorization through her reliance on Sigmund Freud and Jacques Lacan. On the other hand, the influence of feminism is easily discernible in the writings of Butler especially the French Simone de Beauvoir, Luce Irigaray and Monique Wittig along with the American anthropologist Gayle Rubin. This blend of theories adds to the queerness of Butler's thought[4]. Her deep concern in the process of construction of the unstable subject and her negation of established constructs such as gender and sex are what makes of Butler the representative of queer theory[5] *par excellence*. Queer theory does not adhere to the 'straight culture' and its emergence rightfully coincided with the trailing of gays and the eventfulness of AIDS. It is enough to write that queer theory "remains a nebulous and unwieldy category of critical practice" (Helmers, 2011: 798) to daunt any interest on the part of the reader.

The same nebulosity is found in Butler's thinking. However, for Salih, "Butler's work has changed the way we think about sex sexuality, gender and language" (Salih, 2002: i). If anything, Butler is closely associated with theorizing gender and subjecthood. She examines the processes through which the individual becomes gendered. Butler's relationship with gay and lesbianism has been

Queer Butler?

HATEM Youcef
Department of English/FLL

Because "[e]ven the most common and unremarkable title, the bare name of a novel's central character, will tell us something in advance about how to read" (Mullan, 2006:16), the choice of a question and the selection of the weird word queer and the proper name of a thinker as a title for the following article is not fortuitous; it purposes to shed light on one of the most controversial theoretician and philosopher of the modern times. Right away, we have to underscore the fact that the name Butler is not a distinctive feature of this wo/man thinker at issue i.e., Judith Butler. In fact, Samuel Butler (1835-1902) popularized the name in question thanks to his famous *Erewhon* (1872) "in which an imaginary utopian community in New Zealand serves to satirize the follies of contemporary England as he saw them" (MacArthur 1992:169). However, it has been Judith Butler who has recently caused this patronymic to enjoy the fame which is its nowadays.

Judith Butler's first contribution to the realm of theory came in the form of a dissertation[1] submitted in 1984 at Yale University and entitled *Subjects of desire.* The text was revised for publication in a book form in 1987 and reprinted in 1999. *Subjects of Desire* or a piece of juvenilia, as Butler tenderly calls it, is a philosophical text that deals with Hegel[2] and some outstanding French philosophers. It encapsulates some of Butler's principal ideas which are found again in her later publications. Hegel holds sway in Butler's earlier work, and later work too as she admits it, "'[i]n a sense, all my work remains within the orbit of a certain set of Hegelian questions: What is the relation between desire and recognition, and how is it that the